

يوسف السباعي

الشمس



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



السقاة ماتت !

(والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس
اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) •
« قرآن كريم »

يطلب من :

مكتبة مصر
شارع كامل صدقي النجاة

الإهداء

إلى عمى العزيز :

طه السباعى باشا

أهدى كتابى هذا .

لا لأنه — بفضل القلب — صاحب معالى .. أو صاحب سعادة ..
(فأتى لا أدري كيف يستطيع القلب البشرى أن يشارك الله سلطته
فى منح المعالى أو السعادة . ! ولا أدري كيف يمكن أن يفضل انسان
على غيره لأنه صاحب سعادة !) .

ولكنى أهديه له لأنه — بفضل الله — صاحب نظافة .. نظافة
فى الذهن ، واليد ، والقلم ، واللسان .

انى أهديه له .. رغم أنه سياسى .. وباشا .. و « حماى » .

يوسف السباعى



كتبت هذا الإهداء إلى « طه السباعى » قبل أن تلغى الثورة الألقاب ،
وقد زال عنه القلب الذى لم أتم له فى إهدائى وزنا . ولم يبق له
إلا ما رأيته يستحق الاعتبار ، أنه لم يصبح « صاحب سعادة » ولكنه
ما زال كما وصفته صاحب نظافة .. فى قلبه وفى خلقه وفى عمله .

مقدمة

التقيت ذات يوم بالأسناذ « أحمد بك عباسى » كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، فانبأنى أن الوزارة كانت توشك أن تقرر بعض كتبى لمدارسها ، لولا أن اللجنة المختصة رأت أن الكتب تحوى بعض عبارات بالعامية تتنافى مع الغرض الذى قررت من أجله الكتب .

ورغم أنه لم يدر بخلقى أن اكتب كتبى بحيث لا تتنافى مع مطالب وزارة المعارف ، بل رغم أن ذكر وزارة المعارف لم يطف بذهنى قط وأنا اكتب هذه الكتب ، إلا أننى أحسست بشيء من الخيبة وأنا أسمع قول استاذنا الفاضل ، إذ كان يسرنى ويرضى غرورى ولا شك أن أجد الوزارة تقرر بعض هذه الكتب .

وعلى هذا فلم أكد أبدا هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعارف ومطالبها التى تترفع عن اللغة العامية ، وعزمت أن أقيم سراجا منيعا يحول دون تسرب الالفاظ العامية التى تأبى إلا أن تفرض نفسها فرضا فى سياق الحديث . واخذت فى الكتابة محاولا اجراء الحوار بين أبطال القصة باللغة الفصحى ، ولكنى لم أكد اكتب بضع صفحات ، ولم أكد « أحمى » فى الكتابة . . حتى وجدت أبطال القصة ينطقون على الرغم منى فى الحديث باللغة العامية .

وحاولت عبثا إيقافهم عند حدهم . . وردهم عن غيهم . . وتهديدهم بأن وزارة المعارف الفصيحة . . لن تقرر الكتاب فى مدارسها رائهم سيسقطون الكتاب بهذا اللغو العامى ، والهذر اللا فصيح .

ولكنى أخفقت فى محاولتى ولم أستطع إلا التسليم .. قائلا لىفسى :
إنى اكتب للامة اكثر مما اكتب للخاصة من الفصحاء والبلاء .. وأن
هؤلاء الامة فى أشد الحاجة إلى زاد من الأدب الذى يفهمونه .. والكتابة
اللى يسيفونها .. أكثر من أولئك الخاصة الذين لديهم تراث من
الفصاحة والبلاغة يفيض عن حاجتهم .

ومع ذلك فأنى أجد هؤلاء الخاصة أكثر اساعة الأدبنا الطبيعى غير
المتكلف .. اذكر انه عقب قراعتى لقصة « زقاق المدق » للأستاذ
« نجيب محفوظ » واعجابى بها .. أن أعطيتها لعمى « طه السباعى
باشا » وهو من أبلغ الأدباء ، وعندما انتهى منها سألته عن رايه فيها
فاجابنى بأنها من أبداع ما قرا ، ولا يعيبها إلا أن الحوار جرى باللغة
الفصحى .. ولو كان باللغة العامية لبلغت منتهى الروعة .

وأنى لأنكر أيضا أن حوار « عودة الروح » وهى أروع ما كتب
« توفيق الحكيم » يجرى باللغة العامية ، رغم أن كاتبنا الكبير قد ترفع
بعد ذلك عن اللغة العامية وأخذ يجرى حواراه باللغة الفصحى ، أو على
الأصح ، بأبسط درجات اللغة الفصحى التى تكاد تقارب العامية .

ولست أشك أننا فى فترة صراع بين العامية والفصحى ، وأن
الكتاب فى هذا الجيل حائرون بينهما ، ولا أدل على ذلك من إخراج
الأستاذ « محمود تيمور » إحدى رواياته فى ثوبين : ثوب فصيح وآخر
عامى .

وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع .. بين الفصحى والعامية ..
ولا جدال هناك فى أن الغلبة — فى الحوار — للعامية ، لأنه من
المستثقل المموج أن نحاول انطاق أشخاص القصة باللغة الفصيحة ..
وهم لا يمكنهم فى حياتهم الطبيعية أن ينطقوا بها .

على أية حال لا يراد بمقدمتى هذه اعتذار ولا تبرير .. فالكاتب
يحب أن تنطلق أفكاره محررة من كل قيد ، والألفاظ فى اللغة توابع

للمأسلوب والأفكار .. ومن الخير ، ونحن نهذف إلى أن يكون أدبنا القومي
أديبا عالميا لا نجعل من اللغة قيذا يثقل قدرتنا على التعبير الصادق غير
المتكلف .

ان هدف الكاتب ، أو الفنان بصفة عامة ، هو الوصول إلى أغوار
النفوس ونقل مشاعره إليها .. والفنان الناجح هو موقظ الأحاسيس ..
محرك المشاعر .. مهما كانت وسيلته ، وأيا كان أسلوبه .
وكل ما أرجوه أن أكون قد حققت بكتابتى هدف الفنان .
والسلام عليكم ورحمة الله .

الفصل الأول

سارق الجواقة

حدثت هذه القصة حوالى عام ١٩٢١ فى حى الحسينية وما زال مسرح حوادثها قائما كما هو ، وقد تكون كف السنين بدلت وجهه بالفناء والهدم ، والبناء والتنظيم .. إلا أن الكثير من علاماته المميزة ما زالت قائمة على حالها لم يخزن عليها الدهر ، ولم يبدلها الزمن .

وأشهر هذه العلامات وأشدها ارتباطا بقصتنا صنبور المياه الحكومى ، القائم فى إحدى زوايا درب السماكين ، أمام كشك صغير تربع فيه « سيد الدنك » .. المانع المانع ، الأمر الناهى فى مياه الحى . الحاكم بأمره فى صف طويل عريض من النسوة ذوات الصفائح ، والرجال ذوى القرب .

وكم أود لو وضعت القارئ فى مسرح القصة وجعلته يتجول فى أزقته وحواريه ، ويراها رأى العين .. ولكنى أشك كثيرا فى أن قارئ هذا الجيل يستطيع الوصول بسهولة إلى هذه الربوع القديمة التى دالت دولتها وأدبر عزها وعفى جمالها وزال سؤدها ، وأضحت قصورها أطلالا بالية ودمنا عابية .. ومع ذلك فليس أحب إلى من التطوع بقيادته إلى هناك واصطحابه فى جولة قصيرة سريعة ، تعطى له مجرد فكرة سطحية عابرة عن المكان ، الذى أوشك أن أزج به إليه ، وأضعه فيه ، خلال فترة تراءته لهذه القصة .

نبداً من شارع فاروق فى منتصف المسافة بين ميدان فاروق وميدان

العتبة (هذا الميدان قد توالى عليه أسماء عدة .. ويبدو لى أن من الخير أن أسميه باسمه القديم خشية أن تبدل اسمه الجديد باسم آخر ما بين كتابتى هذه القصة وظهورها » حيث يقطع الشارع الكبير شارع ضيق يسير فيه الأتوبيس الذاهب إلى بيت القاضى ، وهو شارع البغالة .

لنجعل وجهتنا إلى العتبة ، ثم ندلف يسارا فى شارع البغالة ونسير فى الطريق الضيق المزدحم .. الملىء بحوانيت البقالة والنجارين ، وبائعى القباقيب ، والصرماطية ، والعطارين .. ولنكافح فى شق طريقنا .. بين عربات الكارو ، والحمير ، وعربات اليد ، وباعة العرقسوس .. ولنتجاوز الدروب المقاطعة ، ومنها درب البزازرة ، ودرب عجور .. ولنتجاوز كذلك المسجدين القائمين على يسارنا .. وبذلك نكون قد قطعنا شارع البنهاوى ، ووصلنا إلى الساحة الممتدة الفسيحة المترامية على مدى البصر ، فنجد على يميننا « باب الفتوح » وهو أحد أبواب القاهرة المعز ، القائم فى سبك وضخامة ، وقد علتة الأتربة ، وبدا عليه البلى والقدم ، وترامى حوله بقايا برسيم وروث بهائم ، وحشد من الفادين والرائحين ، والصبية اللاهين العابثين .. والباب يؤدى إلى وكالة الليمون والزيتون ، وإلى الطريق المفضى إلى النحاسيين وبيت القاضى وسيدنا الحسين .

أما فى الواجهة فتمتد الساحة حتى تنتهى بمقابر باب النصر التى يخرقها شارع رئيسى يسمى شارع النجوم ، وهو مفض فى النهاية إلى شارع العباسية ، وقلم المرور ، وتحدد الساحة فى الميسرة بشارع مرتفع يحده جرف مبطن بالطوب ، وهو شارع القصاصين وينتهى بضريح صغير منمزل هو ضريح « ابن هشام » حيث أزيل ما حوله من قبور لتوسيع الساحة وبقي هو قائما وحده ليدل على سخط الأحياء فى التفريق بين قيم الأموات الذين سواهم الله فى باطن الأرض .

لندع الساحة ، وباب الفتوح ، وباب النصر جانباً .. ولنندلف يسارنا فى أول درب يقابلنا فى الساحة ، درب قد كتب عليه لافتة

قضى باسمه ، وهو « درب السماكين » ، وهو الدرب الموازى لشارع الحسينية ، الذى يليه مباشرة على يسار الساحة .

الدرب طريق عادى ، من طرق الأحياء الشعبية القديمة بضيقه وقذارته ، وبحوانيته القائمة على جنباته ودوره البالية العتيقة المترية الجدران ، العالية الأبواب ، المتقاربة النوافذ حيث يد السكان تكاد تمسك من خلالها بيد جاره .

وأرض الطريق قد كسيت بكتل البازلت المربعة المقلقلة التى جعلت الطريق أكثر وعورة مما لو ترك على حاله .. وأكوام القمامات قد تراكت على جوانبه ، تحيط بها المياه القذرة الأسنة .

كل هذه المظاهر يتشارك فيها درب السماكين مع درب عجور ، ودرب البهلوان ، ودرب اسمه ايه ، وبقية دروب القاهرة النظيفة المحترمة .. ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون لدرب السماكين مجموعة من الظواهر المميزة والعلامات البارزة ، التى تميزه عن بقية الدروب .

أول هذه الظواهر — كما سبق القول — حنفية المياه القائمة على يمين الداخل بعد مسيرة بضع خطوات من مدخل الدرب ؛ والحنفية بكشكها وصاحبها .. تحتل زاوية داخله فى مبانى الطريق ، بحيث تكون الزاوية شبه ساحة صغيرة يحتشد فيها طلاب المياه .

فإذا عبرنا الحنفية وجدنا سورا مهدما يخفى ربوة خربة ، متربة مليئة بالقمامات والصفائح القديمة ، وفى ركن من الربوة تربعت بضع قدور سود للفول المدمس وبجوارها وقف نفر لا تقل ملابسهم وجلودهم سوادا عن قدر الفول .

ذلك هو « مستوقد الحسينية » القائم فى ظهره « حمام الحسينية » الذى شيد مدخله فى شارع الحسينية الموازى لدرب السماكين .

ويلى المستوقد بضع دور عتيقة وحوانيت ومدرسة أولية .. تقوم على أزقة قصيرة مغلقة ، متفرعة من الدرب الأسمى كأنها نجسوات شبيهة بحرف U .

فإذا دأبنا فى السير داخل الدرب صادفنا على اليسار منزل شامخ
البناء ، متين الجدران . ذو باب ضخـم مصفـح بالحديد ، قد انفرج عن مدخل
عالى السقف .. ضيق الساحة ، وبدا فى ركن منه كوم أسود ، يصعب
تمييزه لأول وهلة فى ظلمة المدخل .. ويخيل للإنسان فى بادئ الأمر ،
أنه منضدة « عتقى » وادواته .. ولكن بامعان النظر يتضح أنها أفران
« بطاطة » قديمة قد وضعها الحداد المواجه للمنزل فى مدخل المنزل ،
حتى لا يزدحم بها حائوته .

لنعبـر المدخل ونـدلف من الباب القائم على يمينه والمفضى إلى فناء
متسع خرب .. ملئ بأكوام الحجارة والأتربة .

ومن الفناء يبدو لنا المنزل وما جاوره خرابا فى خراب وقفرا فى
قفـر ، ويلفت نظرنا مئذنة عالية ، تنبئ عن مسجد يجاور المنزل ، أما
المنزل نفسه ، فهو مثل لعزیز قوم ذل .

إن الجدر الشامخة المتينة قد تشققت ، حتى لتوشك أن تتقوض
أركانها ، والنوافذ قد تهاوت مصاريعها ، وفاضت من حناياها ظلمة
كثيية كأنها هى نوافذ كهف خرب .. والشرفة المتسعة فى الطابق الأول
على يسار الداخل قد تآكل سلمها الرخامى واحاطت به أكوام من
صناديق خثسية فارغة قد أعدت لرص الكتب الصفراء التى صفت على
حافة الشرفة .. والتى أخذ الحمالون فى اخراجها من داخل المنزل .

أجل ! ان ما بقى صالحا للسكنى من المنزل الشامخ الضخم قد
استؤجر كمخزن للكتب ، وبذا حفظ المنزل إلى حد ما من المذلة والاهانة
.. واستبقى له أثر من طيب أصله .. وسابق مجده .

وقد يلقانا صاحب مخزن الكتب بالترحيب ، وقد لا يلقانا أصلا ..
ولن يضيرنا ذلك .. فليس بنا كثير حاجة إليه .. ان الذى يهمنا فعلا هو
ذلك الصبى « السقا » الذى حمل القرية على ظهره وأخذ يصب مياهها
حول شجرة « تمر حنة » عالية مورقة .. هى كل ما تبقى من أثر
الحديقة البائدة .. التى كانت تشغل الفناء .

هذا هو مسرح القصة كما يبدو الآن .. خرب متهترع .. محطم

مهدم .. ليس به من سمات مجد باند ، ومظاهر عز غير ، غير بقايا باهتة نلقاها هنا وهناك .

ثمة شيء واحد .. نستطيع أن نجزم بأنه لم يتغير ، وأنه على حاله كما كان منذ ثلاثين عاما .. ذلك هو الصبى « السقا » والشجرة المورقة .

لنرتقب الصبى مليا وهو يميل بجذعه الأعلى ويفتح فوهة « القربة » فتندفع منها المياه إلى حفرة تحيط بجذع الشجرة ، وسرعان ما تفيض المياه فى باطن الأرض لتمدصها الجذور ، فتزداد الشجرة ايناعا وخضرة . لنثبت أعيننا جيدا على الصبى والشجرة .. على الشيء النضر الوحيد بين خراب بلقع ، والأثر اليناع الباقى فى رسوم حائلة .

لنمعن فيه البصر .. ولنغضب أعيننا عن كل ما نواه .. ولنعد بأذهاننا القهقرى فنعبر بها ثلاثين عاما فى زمن غير ثم نقف بها ونمشى الهوينى .

الصبى والشجرة .. كما هما .. حتى لكاننا لم ننقل من يومنا قيد شعره ، ولم نخض فى ربوع الماضى قيد خطوة . ولكن ما حولهما قد تبدل ، فصار عجبا .

ثلاثون عاما إلى الوراء قد بدلت المكان تبديلا تاما .. فجعلت قفرة نضرة ، وخرابه ازدهارا ، وقدمه جدة ، وموته حياة .

إننا لم نعد فى مخزن الكتب .. فالمكان قد عاد إلى سابق مجده وقديم عزه ، وأصبح كما كان .. قصر « إبراهيم بك جاد الكريم » .. أو كما كان أهل الحى يطلقون عليه « السراية الكبيرة » .

نحن الآن فى عام ١٩٢١ فى أوائل شهر سبتمبر .. والوقت ما زال مبكرا وضوء النهار لم يستتب له الأمر ، وفلول الليل تتسابق إلى الفرار من جحافل الشرق المحتجة وراء الأملق .

والصباح ندى رطيب ، والسحب متناثرة فى السماء كأنها أكوام القطن المندوف ، و « درب السماكين » صامت ساكن لا أثر فيه للحياة إلا فى المستوقد والجامع ، و « السراية الكبيرة » قد خيم عليها الصمت

وقام جدارها الحجرى الضخم ، وبابها الخشبى السميك البنى اللون المصفتح بالنحاس قد انفرجت ضلفتاه عن « عم جاب الله » الحارس الأسود وقد قبع فوق سجادة الصلاة وانهمك فى التسبيح والتمتة وقد أغمض عينيه وبدت عليه أقصى آيات الخشوع والإيمان .

فإذا تجاوزنا الردهة المظلمة العالية القبة القائمة وراء الباب والتي قبع فيها « جاب الله » يؤدى فرائض دينه . . واتجهنا يمينا أمضى بنا باب صغير إلى الحديقة المتسعة المترامية الأطراف .

والحديقة فى هذه الوقت من السنة تعتبر فى قمة مجدها وفى أوج انتاجها . . فهى — كمعظم حدائق القصور فى ذلك الحين — حديقة فاكهة أكثر منها حديقة زينة . . فالعين لا تقع فيها على ساحات منبسطة من الحشائش وأحواض الزهور ، إذ تتكاثر الأشجار المثمرة فى كل نواحيها ، يتخللها هنا وهناك أنواع من الشجيرات ذات الزهور العطرة كشجيرات الورد ، والفل ، والياسمين البلدى ، والياسمين الهندى ، مما يجعل نسمات الخريف تهب عطرة كأنفاس الأحبة .

وأبرز الظواهر فى الحديقة تكعيبة الكرم الممتدة بحذاء السور والتي تكون مربعا ذا ضلع ناقص يتمه بناء القصر ؛ والظاهرة الثانية هى حوض رخامى متسع ملئ بالمياه يتوسط المربع ، وحول الحوض تناثرت اشجار الفاكهة من خوخ ورمال وبرقوق ومشمش وجوافة ومانجة ، عدا النخيل القائم فى الأطراف و « التوتة » التى تظل المدخل .

والحديقة فى مجموعها اشبه بالأحراش الطبيعية المتكاثفة الأوراق الشديدة الخضرة وقد تكون يد التنسيق والتشذيب قصرت عنها ، ولكن يد الطبيعة عوضتها خيرا فندفعت فيها من قوتها نضرة عجيبة فتشابكت غصونها ، وأينعت ثمارها وتلتحت أكمامها ، وتفجرت براعمها من قوة العصارة وفرط النمو .

وكانت مياه الحوض الرخامى قد أوشتكت أن تغيض بعد أن بدا نصريفها فى أول الليل فى قنوات تسقى الحديقة وكان يسمع لصوت تدفقها من الحوض وانسيابها فى القنوات خريخ خافت لطيف .

والندى قد كسا الشجر وتلاّات قطراته على الورود الحمر المتناثرة
أوراقها على الأرض وفى القنوات ، وعلى جدار الشرفة ودرجاتها
الرخامية البيضاء .

والقصر مغرق فى السكون لا يسمع منه صوت ولا حركة ، وقد
أغلق بابه ونوافذه إلا واحدة تستنشق نسيم الصباح غفا صاحبها عن
إغلاقها فى آخر الليل .

وهكذا بدا المكان كله فى إغفاءة إلا من الحارس الذى يؤدى الصلاة ،
والصبى « السقا » .

كان الصبى - سيد الدنك - يؤدى عمله اليومى الذى كلفه به أبوه
منذ بضعة أسابيع .. عندما قرر أخراجه من الكتاب وتعليمه
« الصنعة » ، وكان هذا الواجب اليومى الذى يؤديه « كسقا » مستقل
هو حمل القرية الصغيرة إلى حديقة السراية وسقى شجرة « التمرحنة »
التي كانت مغروسة فى ربوة مرتفعة لا تبلغها مياه القنوات المتسربة من
الحوض .

ووقف « سيد » يصب مياه القرية فى الحفرة المستديرة حول
الشجرة الصغيرة ، وبدأ الصبى فى عملية الصب ماهرا حاذقا ، رغم
حدائثه بها ورغم صغر سنه التى لم تتجاوز التاسعة .

كان الصبى نمونجا متقنا مصفرا لسقا ، وقد وقف بجسده
النحيل الأسمر .. محنى الهامة واضعا القرية الصغيرة فوق ظهره وقد
ارتدى السطيح (١) الجلدى الذى صنعه له أبوه من سطيح قديم له .

وقف « سيد » مرتديا السطيح حاملا القرية على ظهره ، وقد

(١) جاكثة جلدية بلا أكمام ، أو على الأصح ، صئيرى جلدى يرتديه
« السقا » فوق جلبابه ليقية البلال ، وتشد القرية عليه بسيور جلدية
تسمى الحبالات .

امسك بيمناه فوهتها المائلة إلى أسفل ، وانثنى بجذعه قليلا مصوبا الفوهة تجاه الحفرة وترك المياه تتدفق حتى أفرغت القربة ما فى جوفها وامتألت الحفرة بالمياه وقاضت .

وقد يشعر الإنسان بالراء والعطف وهو يبصر بالنسبى الضئيل التحيل فى مثل هذه اللحظة المبكره من النهار وعبيد الله ما زالوا فى مضاجعهم يغطون فى النوم ، وهو يحمل القربة تكاد تنقض ظهره ، ويبدو كأنها قد حمل من العبء ما لا طاقة له به .

ولكنه لا يكاد يطالع وجهه حتى يبصر به علامات حبور وغبطة تؤكد أن الصبى هائىء سعيد ، وأنه قرير بعمله لا يشعر منه ثقالا ولا ضرا .

وقف « سيد » وقد أفرغ « القربة » فتهدلت فارغة على ظهره ، وبدأ وجهه أسمر دقيق التقاطيع ، حلو القسمات ، وأخذ ينفض بيده قطرات الماء التى بللت كفه وذيل جلبابه وتلفت حوله بنظرة فاحصة وجرى بصره بالنوافذ فلم يجد بها عينا ترقبه ، ثم هبط إلى مدخل الحديقة فلمح « عم جاب الله » ما زال قابعا على سجادته منهكما فى صلاته .

واطمأن « سيد » إلى انعدام الرقابة فسار فى خفة إلى شجرة جوافة مثقلة بالثمار الصفراء المثلثة ، وكان فى أسفل الشجرة من الثمار الناضجة المتساقطة ما يكفى لاشباعه . . ولكنه كان يكره الغنيمة السهلة ، فسرعان ما خلع القربة والسطيح وتفز ممسكا بأحد الفروع المنخفضة ، ثانيا جذعه السفلى ، مبدلا قدميه على جذع الشجرة ، ساعدا عليها كالقردة وأخذ ينتقل من فرع إلى فرع حتى استقر على فرع محمل بالثمار ، ولاحث له فى نهاية الفرع ثمرة تكاد تكون أكبر ما حملته الشجرة فصمم على أخذها ، وبدأ تسلُّه على الجذع رويدا رويدا ، فلم يكد يصل إلى حافته ويمسك بالثمرة حتى تهاوى الجذع تحت ثقله وهوى به إلى أسفل .

لم يهو « سيد » إلى الأرض . . فقد حال بينه وبين الوصول إلى الأرض سد قام بينهما هو جسد « عم جاب الله » الذى بلغ مسامعه

صوت تسلق الشجرة وخشخشة الأوراق ، فقام ليحقق شكوكه فى الشقى الصغير الذى تعود سرقة الثمار يوما بعد يوم .

وفوجيء « جاب الله » بالصبى يهوى بالفرع على رأسه ، فضج بالصراخ والسباب ، ولم يكد يتمالك نفسه ليقبض على الصبى السلقط ، حتى كان قد تناول القربة والسطيح وانطلق هاربا يعدو خارج الدار .

انطلق « سيد الدنك » يعدو بالقربة والسطيح ، ووراءه « جاب الله » الأسود .. يهرول بجلبابه الأبيض وعمامته ، ولم يكد يصل إلى الباب الخارجى حتى توقف مبهوتا فقد وجد أباه « المعلم شوشة الدنك » يقف على الباب بعربته المحملة بالقرب .

وصاح به أبوه فى دهشة :

— ما بالك ؟

وتلفت « سيد » خلفه ، فلم يجد « جاب الله » قد وصل بعد فاجاب :

— لا شيء .. لقد انتهيت من سقيا الشجرة .

— ولم تهول هكذا عاريا ؟ ان السقا الأصل لا يخلع السطح والقربة ويحملهما هكذا فى يديه .. السقا لا يخلع حلته ابدا .. ولو سار بدونهما فإنه يصبح كالعسكرى الذى يحمل بذلته على كتفه .. هل رأيت عسكريا يفعل ذلك ؟

وكان « سيد » ما زال يتلفت خلفه فى دعر وهو يدعو الله ان يحجز « جاب الله » داخل الحديقة ، وأجاب على سؤال أبيه بقوله :

— لا ...

— إذا فلم تخلع عنك بذلتك الآن ؟

وقبل أن يجيب كان « جاب الله » قد وصل .. وهو يجدف بساقيه الطويلتين الشبيهتين بالمجاديف .

وكان سبابه و « برطمته » يسبقانه ، وبعد لاي وطول سباب ، عرف المعلم « شوشة » ما كان من أمر ابنه .

واستمر « جاب الله » فى شكواه :

— كل يوم مثل هذا .. يتسلق الشجر ، ويكسر الفروع ويتسلف
الحديقة :

— لا تغضب يا عم جاب الله .. ساعلمه كيف يتأدب فى بيوت
الناس .. انه لم يعد صغيرا .

ونظر إلى ابنه نظرة وعيد وأردف مهددا :

— وإذا كان يصر على أن يبقى صغيرا .. فساعيده إلى الكتاب .
ان الخطأ خطئى . لقد ظننته قد أضحى رجلا ، وأردت أن أعلمه الصنعة
منذ الآن . ارتد السطيح وساعدنى فى دفع العربية أيها الأحمق .

وارتدى « سيد » السطيح ، ثم أخذ فى دفع العربية مع أبيه
إلى داخل الحديقة وسارا بها فى ممر بين الأشجار حتى وصلت إلى
الحوض الرخامى فحمل الرجل القرب وأفرغها الواحدة بعد الأخرى
داخل الحوض بعد أن سد البالوعة التى تفرغ المياه فى القنوات ..
وأخيرا امتلأ الحوض وأفرغت القرب .

وإدار المعلم « شوشة » العربية ودفعها إلى الخارج وحيأ « عم
جاب الله » مودعا :

— لا مؤاخذة يا عم جاب الله .. لن يعود الولد لمثلها مرة أخرى ..
سأحضر الدور الأخرى فى الضحا إن شاء الله .

وعاد « المعلم شوشة » إلى الحنفية مرة أخرى ليعيد ملء القرب
.. وسار « سيد » بجواره ، وهو ينظر إليه من آن لآخر نظرة فاحصة
محاو لا أن يستشف بها دخیلة نفسه .

اتراه حقا غاضبا عليه ؟ .. أمن أجل جوانة أو جوافتين يغضب
عليه ؟ لا .. لا .. أنه لا شك يدعى الغضب كعادته .. وهو كذلك
لن يعيده إلى الكتاب .

الكتاب .. لعنة الله عليه وعلى أهله أجمعين .. انه لن يطبق
لذهاب إليه والرسف فى أغلاله بعد أن تذوق حلاوة الحرية والانطلاق .
لقد علمه أبوه الصنعة ووضع فى مصاف الرجال ، وهو لن يتنازل
عن مركزه بحال من الأحوال .. كانت القرية تثقل عليه فى أول الأمر ..

أما الآن فقد تعود حملها ، ولم تعد تثقل على ظهره . . حقيقة أنه يستيقظ مبكرا كل يوم ، ولكن الكتاب أيضا كان يضطره إلى مثل هذا التبكير ، فارق بين تبكير وتبكير ، فيها مضى كان تبكير إلى السجن ، أما الآن فتبكر إلى الحرية . أنه يرتدى السطيح ويحمل القرية الفارغة ويتجه مع أبيه إلى الحنفية ، فلا يكاد يملأ القرية حتى ينطلق بها إلى السراية ، وانطلاقه وحيدا في مثل هذا الوقت المبكر كان حلها طالما دأب نفسه .

إن الجوافة والبلح ، وتكمية العنب ، كلها قد أضحت تحت أمره ، كان فيما مضى يتطلع إليها وهو واقف بجوار أبيه يرتبها خلال ملء الحوض وبمنفسه ألف حسرة . . كان « عم جاب الله » يعطف عليه أحيانا ببعض « السقط » ، ولكن « سيد » لم يكن ممن يرضون بالحبيثة . . ويقنعون بالسقط . . بل كانت بنفسه لهفة على أن يشب على التكمية ويقفز فوق شجرة الجوافة ويتسلق النخلة . . تلك كانت أميته التي طالما تاق إليها .

ولقد حققها الله له أخيرا عندما قرر أبوه ذات يوم أن يخرج من الكتاب ، وأن يبدأ تدريبه العملي باصطحابه معه في جولاته الساقية التي يوزع خلالها المياه على دور درب السماكين . . ومنعطاته . . ثم بدأ بعد ذلك يوكل إليه بعض الأعمال المستقلة . . كان أولها وأهمها سقيا شجرة الترحنة في السراية الكبيرة .

ولم يحاول أن يسأل عن السر في إسناد هذه العملية بالذات إليه ، بل حمد الله في سره . . ولم يحاول أن يبدي اغتباطا ظاهرا ، خشية أن يفضح أبوه أمره ويكشف نواياه .

واليوم — وقد فضحه عم جاب الله — لا يدري ماذا يخبىء له القدر .

على أية حال لا يظن القدر يخبىء له خيرا ، فأقل ما يجزيه به أبوه — إن لم يعده إلى الكتاب — هو أن يحرمه من سقيا الترحنة ، وبالتالي من دخول الحديقة وحيدا .

لعن الله الطمع .. لقد أخرجت آدم من الجنة تفاحة ، وأخرجته هو من حديقة السراية .. جوافاية .

ووصلت العربية المحملة بالقرب الفارغة إلى الحنفية ، وصاح « ثوشة » بالمعلم « على دنجل » .. المترع فى كشكه وراء الحنفية :
— الدور الثانى يا معلم .

— اصبر قليلا حتى املا هذه الصفائح .
وكانت بضع نساء قد وقفن أمام الحنفية يحملن الصفائح الفارغة متوازنة على قمة رؤوسهن دون أن تسندها يد .

ووقف « ثوشة » يرقب المعلم « على » وهو يملأ الصفائح الواحدة بعد الأخرى ، وطافت برأسه بضعة خواطر ما لبث أن أجاب عليها بقوله « الحمد لله » .

أجل !! الحمد لله على كل حال .. لقد كان هذا المقعد وراء الحنفية أولى به هو .. لا « على دنجل » الذى لم يحمل فى حياته قرية ، ولم يملأ زيرا .. أنه لا يعرف عن صنعة السقاين ، أكثر مما يعرف هو عن القراءة والكتابة .. ولكنها حظوظ وقسم .. لقد أمضى حياته كلها « مطيباتى » يصفق بيديه ويهلل بحنجرته ، أن له فى الزفف والافراح ماضيا مجيدا ، فهو يجيد برم الشوارب ، وعوج اللاسة ، والرقص على الوحدة إذا ما استدعى الأمر ذلك ، ومع ذلك فلم يكد يخلو مقعد الحنفية من صاحبه « المعلم برعى » بعد موته حتى عينت الشركة « دنجل » مكانه ، وهو لا يعرف السطيح من القرية ، ولكنها الواسطة التى تذلل كل صعب ، والتى تجعل المطيباتى يستوى على عرش السقاين ، وتترك الوريث الشرعى يتجول بالقرب فى الحواري والأزقة والدروب .
واستعدل « دنجل » اللاسة على رأسه ، ويرم بأصابعه شاربه ، وصاح بصوت متهلل ، وهو يصفق بيديه :

— يا صباح الفل .

والنفت « ثوشة » ليرى صاحبة التحية ، ثم هز رأسه وتهتم لنفسه :

— طبعاً .. انها « عزيزة نوفل » لقد اضع الرجل كرامة المهنة ،
وغلب عليه طبع الطيباتى .. بمجرد ان رأى المرأة الرجراجة المتنتية ..
إن لعبه يكاد يسيل : وهو يملأ لها الصفيحة .. ويكاد يخترق بعينه
ثوبها المعلق على صدرها البارز المكتنز .

اهكذا يكون تصرف شيخ السقاين ؟ ! يجب ان يكون اثبت من ذلك
واكثر رزانة .. إن أمامه حشدا من النسوة والرجال ، ممن لا يخفى
عليهم أمر « عزيزة » وسمعتها وسيرتها .. انه سيسئ إلى السقاين
ويشين سمعتهم .. ولكن لا .. إن « دنجل » لن يكون سقا .. أبداً ..
فهو دخيل على المهنة .. ولا كل من جلس أمام الحنفية سقا .. « ولا كل
من ركب الحصان خيال » .

واخيرا انتهى ملء الصفائح ، وحل دور « شوشة » فى الماء ،
فنقدم إلى الحنفية فى عبوس ، وأخذ يملأ قربه .. الواحدة تلو الأخرى ،
حتى انتهى منها جميعا دون أن ينبس ببنت شفة .

ونقدم « سيد » بعد ذلك وملأ قربه الصغيرة . وصاح « شوشة » ،
وهو يدفع العربية أمامه ، وقد سار ابنه بجواره حاملا قربه :
— تمانيه وواحد صغيره .. الدور الثانى .

وتحرك ركب المياه و « سيد » لا يفتأ يرقب وجه أبيه العابس بين
آونة وأخرى .

لولا هذا العبوس والصمت لما كان هناك أب مثله ، ولكن حتى مع هذا
العبوس والصمت يراه خير أب .. بل خير إنسان .. لشد ما يعجب
به ويحترمه ويحبه .. وأكثر ما يقوى هذه المشاعر فى نفسه إحساسه
بأنها مشاعر متبادلة وبأن أباه أيضا يعجب به ويحبه ويحترمه .

أجل ! انه لا يعامله كما يعامل آباء الحارة أبناءهم .. فهو لا يسبه
ولا يخبره ، ولكنه يبين له الخطأ من الصواب ، ويشرح له ما خفى عنه
وينصحه ويرشده ، فإذا ما أخطأ .. وعو غالبا ما يخطئ .. لأن الخطأ
دائما أحب وأسهل من الصواب ، لانه فى رفق ، فإذا كرره ، وعو غالبا

ما يكرره ، زجره فى شدة .. فإذا لم يزجر أوقع عليه عقابا نفسانيا
.. كان يخاصه او يحرمه من بعض مزايا الرجولة التى كان يمنحها له ..
ولم يكن أقصى على نفسه من هذين العقابين .

وتوقفت العربية امام الدار الأولى .. دار « أم عبد الله » القائمة
فى مواجهة احدى الأزقة المسدودة التى يمتلئ بها الدرب .. وتقدم
« شوشة » إلى الباب الخشبى المفلق فدق « سقاطته » الحديدية بضع
دقات متوالية .. وبعد برهة سمع صوتا نسائيا من وراء الشبكة
الخشبية لنافذة سفلية تجاور الباب ، يصيح بلهجة ممدودة منغمة :
— مين ؟

وأجاب « شوشة » بصوته الأجش :

— السقا .

وعاد الصوت يصيح :

— يا واد يا عبد الله .. افتح لعبك شوشة .

وفتح الباب صبى صغير يناهز عمره عمر « سيد » ولم يكد يبصر
« سيد » وهو يتقدم أباه بالقربة حتى هتف به مرحبا :

— ازيك يا سيد .. تلعب بلئ ؟

وأجاب « سيد » فى لهجة الرجل الجاد :

— بلئ .. اصطبج وقول يا صبح .. وسع الطريق .

وتقدم « سيد » يعبر الفناء المظلم الصغير ، وصعد بضع درجات ،
ثم دلف من باب على يمين الداخل ولح « أم عبد الله » جالسة على
شلتة وأمامها « كنكة القهوة فوق وأبور السبرتو » فحياها بنفس اللهجة
الرزنية .. محاولا جهده أن يخشن من صوته :

— صباح الخير يا خالتى « أم عبد الله » .

— صباح الخير يا خويه .

وتبعه صوت أبيه قائلا بنفس اللهجة :

— صباح الخير يا خالتى « أم عبد الله » .

— خير عليك « يا معلم شوشه » .. عايزه قريه زياده فرغها
فى طشتت الغسيل ، واملا الصفيحه كمان .

واتجه « شوشة » يسارا فى صمت ، ودلف من باب المطبخ وعبر
الدهليز المظلم المفضى إلى الحمام .. ويحاسة التوجيه .. — إذ كان
النظر متعذرا تمامًا — أخذ فى ملء الأزيار والصفائح والطشت وغيرها
من مستودعات المياه الخالية .

ووضع « سيد » قريته فى أول شت صادفه ، ثم استدار إلى
الخارج ، وفى الفناء لقي « عبد الله » مرة أخرى .

وعاد « عبد الله » يسأله فى إصرار :

— تلعب بلى ؟

— العيب .

— امتى ؟

— بعد التشطيب .

— يعنى بعد الضهر ؟

— أبوه !

— طيب .. أكون أنا جيت من الكتاب .

— نتقابل فين ؟

— عند السبيل .

وكان أبوه قد انتهى من تفريغ القرية ، فتبعه إلى الخارج وسار
يدفع معه العربة إلى بقية الدور .

وانتهى الدور الثانى ، ولم يعد « شوشة » بعده إلى الحنفية ليبدأ
الدور الثالث ، بل اتجه إلى نهاية الدرب ، ثم دلف يمينه وأوقف العربة
بجوار الرصيف بعد بضع خطوات ودخل دكانا وضعت على واجهته
لافتة كبيرة .. كتب عليها « غول الأمرا » .

كان مدخل الدكان قد سد معظمه بهنضدة طويلة .. وضع عليها
قدر نحاسى أحمر لامع ، وفى أسفله دروة صفراء سوداء ، حجبت وأبورت

الغاز الذى أخذ يئز بشدة ، ومن فوهة القدر تصاعد بخار أبيض ..
ووراء المنضدة وقف « عم سلامة » يكبشته ذات اليد الخشبية الطويلة .. وهو لا يكف لحظة عن الدنينة .. ويجوار القدر قد وضعت
قصعتان ، بإحداهما سلطة توطة ، وبالأخرى سلطة لبن ، وبجوارهما
صينية نحاسية صفراء غرشت بعروق البقدونس ورصت فوقها الطعمية
الساخنة ، وأمام المنضدة وخارج الحائوت وضع قفص رصت عليه
الأرغفة .

وراء « عم سلامة » وقف « زكى الحلق » صبيه ، وقد أخذ يدفع
بيده أسطوانة وأبور الغاز الكبير المتصلة بالوابور بأنبوية رفيعة ..
طويلة ، وفوق الوابور استقرت طاسة كبيرة مليئة بالزيت ، قد طفت
فوقه أقراص الطعمية .

وقلب « زكى » الأقراص ، ثم رفع الناضج منها فوضعه فى مصفاة
من الصاج بأسفلها طبق لتلقى الزيت المتساقط من أقراص الطعمية :
وبين آونة وأخرى يتلفت « عم سلامة » لينقل محتويات المصفاة إلى
الصينية التى أمامه المفروضة بالبقدونس .

وبجوار « زكى » من الداخل وقف « حريشة » يجهز المواد الأولية
ويخراط البصل والكراث فوق الفول المنقوع مع بقايا العيش المكسر ، ثم
بصب الخليط فى الجرن الحجري المثبت فى أحد الأركان. ويرفع القائم
الحديدى فيدفعه فى جوف الجرن ، ثم يأخذ فى طحن الخليط .. محركا
اليد فى جوف الجرن بحركة دائرية طاحنا الخليط بين حديد اليد وحجر
الجرن .

هذا هو « مطعم الأمرا » وتلك هى محتويات مطعم الأمرا .. عدا
بضع مناضد خشبية تناثرت داخل الدكان جلس عليها .. جزء من
الأمرا أنفسهم .. أما الجزء الآخر فقد ضاق به المكان فتربع فى الهواء
الطلق على حجر الرصيف .

و « عم سلامة » قد سبق الأمريكان فى ابتكار طريقة « ساعد نفسك »
فلينس لديه جرسون يقوم بالخدمة ، بل هو يلزم زبائنه من الأمرا بالتوجه

إلى صينية متسعة رصت عليها الأطباق فيأخذ كل منهم ما يلزمه منها ويتقدم إلى « سلامة » فينقده الثمن ويأخذ منه ما يريد ويحمل طعامه إلى المنضدة أو على قارعة الطريق ، فإذا ما انتهى من الأكل كان عليه أن يتقدم إلى الحوض ليفسل الأطباق ويضعها مكانها قبل أن ينصرف .

ووزع « شوشة » التحيات يميناً ويساراً على الجالسين ، وكان جلهم معرفة وأصدقاء . . فعلى باب الدكان كان يستقر « محمود مسطرين البنا » الذى كان يأبى الجلوس على المناضد لاعتقاده أن « عم سلامة » بضع رسم جلوس عليها بخصم جزء من الفول ، فهو لا يشك أن كمية الفول المغرونة لزبائن الرصيف أكثر من تلك المغرونة لزبائن المنضدة ولذا فقد طلق المنضدة ثلاثاً .

وبجواره . . على الرصيف أيضاً . . يجلس « حسين القرداتى » ومعه سلامة (القرد) وزكية (المعزة) وكان دخول الدكان محرماً عليهم اتقاء ما يثيرونه من مشاكل بين الزبائن لاسيما وأنه لم يكن هناك كثير استلطاف بين « سلامة القرد » و « سلامة الرجل » ، وقد حاول « عم سلامة » كثيراً أن يقطع « حسين » بتغيير اسم قرده منعاً للاهانات التى تحدث له نتيجة الخلط بين الاسمين ، ولكن « حسين » لم يقتنع بتاتا ، وقال له فى دهش : أنه لا يستطيع أن يتصور كيف يكون (قرده) أى شيء غير « سلامة » ، وأن خيراً له إذا كان متضرراً من تشابه الأسماء أن يغير اسمه هو . !

وفى داخل الدكان كان يجلس « على الحمى المبيض » و « محمود الخشت الجزار » و « زكى زين الخضرى » وثلة أخرى من جيران « شوشة » فى درب عجور .

وتقدم كل من « شوشة » و « سيد » فأخذ طيقاً واتجه به إلى « عم سلامة » ، ودون أن ينبس « شوشة » ببنت شفة ملاً له « سلامة » طبقه فولاً ، ثم رش عليه بعض الزيت من إحدى الزجاجات الموضوعة بجواره ، وغرف له فوق الفول بعضاً من « سلطة القوطه » ووضع

له نصف ليمونة ثم سلطه الطبق فعاد به إلى منضدته بعد أن تناول رغيفا وجلس يأكل بطريقته العبوس الصامتة .

وجاء دور « سيد » ، وقبل أن يمد يده بالطبق صاح بعم سلامة :
— الفول كويس ؟

— ورد .

— مستوى ؟

— زبده .

— طيب هات طعميه .

ويبدأ « عم سلامة » فى عد الطعمية ، ولكن « سيد » يراجع نفسه بعد لحظة ويصيح بالرجل :

— والا أقول لك .. هات فول .

ويعيد الرجل الطعمية إلى الصينية فى صبر واثابة ، ويبدأ فى غرف الفول ، ثم يهم بوضع الزيت عندما يصيح به « سيد » :

— لا .. زيت حار وحياة أبوك .

— عينيه يا معلم سيد .

ويشعر « سيد » بكثير من الفخر وهو يسمع الرجل يناديه « معلم » ويشد السطيح الجلد على جسده ويصلح حمالات القربة الفارغة .

فإذا ما انتهى « سلامة » من وضع الزيت وهم بوضع سلطة القوطة صاح « سيد » :

— لا .. سلطة لبن أنا ما أحبش سلطة القوطة .

— أمرك .

ويضع « سلامة » سلطة اللبن وهو يذكر أن الشقى الصغير قال له بالأمس وهو يهم بوضع سلطة اللبن عكس ما قال اليوم وأنها مسألة إمارة لا أقل ولا أكثر .

وبعد أن وضع له السلطة ونصف الليمونة أمسك « سيد » بالطبق والرغيف وهمس بصوت أقل تواضعا :

— ادبنى طعميايه بتى . .

وضحك « عم سلامة » وناولوه « الطعمية » فدفع بها فى فمه
واكلها قبل أن يراه أبوه . . لقد كان يعلم جيدا أن أباه لا يقر هذه
الطريقة ، ولكنه يحب الطعمية ويحب الفول ، وهو يرى أن أباه دائما
يختار صنفا واحدا من هذه الأصناف ، ويكره أن يكلفه أكثر مما يحتل .

ويذهب « سيد » للأكل ، ويواصل « سلامة » عمله وهو يترنح
طريا بين آونة وأخرى بجسده السمين الأبيض ، وشاربه الكثيف المتهدل
على ثفتيه وعينيه المنبعجتين « المبكرة » وأجفانه المسبلة ، والفوطة
البيضاء الملوثة بهاء الفول والزيت والطماطم مرسلة على صدره وبطنه ،
والطاقية البيضاء غاطسة حتى أذنيه .

وانتهى « شوشة » وابنه من الأكل وغسل كل منهما يديه وطبقه
وأعاده إلى موضعه على صينية الأطباق ، وتبل أن يغادر الدكان صاح
« سيد » فى صوت الرجال مخاطبا « حريشة » و « زكى الحدق » صبي
« عم سلامة » :

— عنكم يا رجاله !

وأجابه الصبيان فى صوت واحد :

— عشت يابو السيد .

ثم عاد يهمس فى صوت خافت لا يسمعه سواهما :

— النهارده بعد الظهر عند السبيل .

وسأله « حريشة » وهو يدير اليد فى الجرن :

— فيه إيه ؟

وأجاب سيد باختصار :

— بلى .

واعترض « زكى » وهو مستتر فى قلى الطعمية :

— مانفیش معاه ولا بليه .

— أسلفك .

وأسرع بلحاق أبيه خارج الدكان وهو يصيح :

— سلامه .. أمك فى العش والاطارت ؟
واحمر وجه « عم سلامة » السمين الأبيض وبدأ عليه الغضب ،
والتفت « شوشة » إلى ابنه ناهرا : ولكن « سيد » هز كتفيه وأردف
يقول فى غير اكتراث :

— قصدى .. سلامه القرد .

وضحك « حسين » القرداتى وقرع الرق فى مرح ومجون ، ونظر
إلى « سيد » بعينه الواحدة الباقية به :

— رد على أخوك يا سلامه .

وبعد فترة قصيرة أردف يقول لسيد مقهقها :

— بيقول لك .. أبوك السقا مات .

وهم « سيد » بأن يجيب .. ولكن أباه جذبته من يده ناهرا ، ولكنه
رفض أن يخرج من المعركة منهزما ، فصاح وهو يهرول وراء أبيه :
— أمك تمشى ع الحيط .. يحموا أبوك فى كككه .

وصاح حسين مقهقها :

— قديمة .

وعاد « سيد » يجيبه وهو مستمر فى هرولته :

— ويعنى أبوك السقامات .. جديدة .. يابن القديمة .

وضج الجالسون فى المطعم بالضحك ، وتعلت كلمات الاعجاب
بسيد من كل جانب .

ووصل « شوشة » بعربته حتى وصل إلى الحنفية ، وملأ الدور
الثالث ، وحاول « سيد » أن يملأ قربه ، ولكن أباه قال له فى لهجة
مقتضبة :

— كفايه دورين .

كان « شوشة » يتبع فى تدريب ابنه برنامجا موضوعا .. بدأه
باصطحابه جالسا على العربة بجوار القرب . وبعد بضعة أيام أمره
بالسير بجواره ، وبعد بضعة أيام أخر أمره بدفع العربة منه .. ثم
بدأ يحمله القربة الصغيرة فارغة وبعد بضعة أيام ملأها له وتركه

يفرغها فى أول بيت ، وبعد ذلك اصطحبه إلى « السراية الكبيرة » وأمره
ببستى التمرحنة .. كواجب يومى مستمر .. ثم أضاف إليه بعد بضعة
أيام آخر دورا ثانيا فى بيت « أم عبد الله » .. وهكذا كان يتدرج به
فى التدريب .

وكان الدور الثالث سيفرغ فى السراية .

ولم تكد العربة تصل إلى بابها حتى أمر « شوشة » ابنه بالوقوف
فى الخارج .

ووقف « سيد » أمام الباب ، وهو يهز رأسه أسفا .

اهكذا قد حرم عليه الدخول إلى الجنة .. وله ؟ .. من أجل
جوانية لا هنا ولا هناك ؟

لا . لا . يجب أن يعطيه أبوه فرصة أخرى . هذا ظلم .

وعندما انتهى أبوه من تفريغ القرب فى الداخل وخرج يدفع العربة
من الباب الكبير .. رفع إليه « سيد » رأسه متسائلا :

— لماذا لم تدعنى أدخل معك ؟

— لأنك لا تؤتمن على الدخول ،

— كيف ؟

— ألا تدري كيف ؟ !

— لا ...

— لأنك سرقت الجوانه من الشجرة ، وأول رأسمال السقا .. هى

الأمانه .

— ولكن ما فعلته ليست سرقة .

— ما هى السرقة إذا ؟

— هى أن تأخذ ما للمحتاج لغير المحتاج .

— ما شئ الله .. من قال لك هذا ؟

— شئ بالعقل .

— السرقة هى أن تأخذ ما ليس لك .

— من قال هذا ؟

— ربنا .

— لا اظن ربنا يقول هذا !

— استغفر !

— أستغفر الله العظيم .. ولكى مع ذلك امر على انه لا يقول

هذا .

— ماذا يقول إذا ؟

— أعتقد أن اخذ ما للغير إذا كنا فى حاجة إليه أكثر منه لا تعتبر

سرقة .. انها مساعدة منا لله فى توزيع نعمه .. وإقرار عدالته ..

فنحن فى الواقع لا نأخذ ما للغير ، ولكننا نأخذ ما لله الفائض عن حاجة

الغير ، انها معاونة لله لا أكثر ولا أقل .. أفيفضب ذلك الله ؟

— الله ليس فى حاجة إلى معاونة احد .. وهو ادرى بتوزيع ماله

على عبده ، ونحن أعجز عن أن نحكم على حاجات سوانا .. إن فينا

من الأنانية ما يعيننا إلا عن حاجتنا .. فما من بشر يحس بحاجة غيره ..

وما من بشر يحس بالفائض عن حاجته .. فهو أبدا فى حاجة ، وغيره

فى غير حاجة .

— على أية حال لا اظن أهل السراية فى حاجة ماسة إلى

الجوانية التى كنت ساكلها .

— ولا أنت أيضا فى حاجة ماسة إليها ، ولكن المسألة أن الله وهبها

لهم ولم يهبها لك .. ولكل ما وهبه الله .. وواجبنا فى هذه الحياة هو

أن نخلص فى عملنا ، ونتقبل بعين قريرة نتيجة هذا العمل .

— وهذا ما كنت اتو به فعلا ، لقد أخلصت فى الصعود على

الشجرة ، وأؤكد لك أنه لم يكن بالعمل الهين ، بل كان يحتاج إلى جهد

كبير ، وكنت اتوى قبول الجوانية .. نتيجة هذا العمل .. بعين

قريرة ، ولكن لم يحدث قسمة .

ولم يستطع الأب العبوس أن يمنع ضحكته وقال لابنه :

— نتيجة هذا العمل .. كان يجب ان تكون دق عنقك فهذا ليس عمالك الطبيعى ، بل هو عمل شرير خرجت به عن جادة الصواب .

— على اية حال .. هذه هى المرة الاولى ، ويجب ان اعطى فرصة اخرى .

— حسن .. سأعطيك فرصة اخرى .. ستستمر على سسقى التمرحنة .

واحس « سيد » بالغبطة تملأ جوانحه .. وشعر بامتنان كبير لشجرة التمرحنة .. انها فى حد ذاتها لا شئ ، لانها لا تجديه نفعا ، فهو لا يهتم كثيرا بالتمرحنة ، ولا بالورد أو الفل أو غيره من الاشياء التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

ولكن اباه يوليها اهتماما خاصا .: فهو لم يتركها مرة واحدة بلا سقيا .. وقد كانت سقياها اول واجب كلفه به ، وأول امتحان لرجولته ، واختبار لمقدرته .. وكانما يود أن يفرس فى قلبه نفس اهتمامه بها ورعايته لها .

ولقد نجح « المعلم ثبوشة » إلى حد ما فى غرضه ، إذ بدأ « سيد » يعتبر الشجرة ذات مركز خاص ، ويضعها فى مصاف الشجر المثمر من امثال الجوافة ، والعنب ، والرمان .. قد تكون حقا غير ذات نفع مباشر له .. ولكنه كان يراها السبيل إلى بغيته .. لقد كانت بالنسبة إليه مفتاح الجنة .

حيا الله التمرحنة ، وشجرة التمرحنة وساقى التمرحنة .

الفصل الثاني

هى قبضة زمزم

انتصف النهار ، وانتهى « المعلم شوشة » من توزيع المياه على درب السماكين ، وأحس « سيد » بحركة فى أمعائه ، وهى أول بوادر الجوع ، وبداية النداءات المطالبة بالطعام فى بطنه .

ورفع رأسه إلى أبيه مترجما حركة أمعائه سؤاله على سبيل التذكير والاطمئنان :

— احنا رايعين نتقدى ؟

وأجابه الرجل بإيماءة من رأسه كأنها يبتاع الكلام .

ويحه . . لم لا يتكلم ؟ إن « سيد » فى حاجة إلى الدردشة ، والأخذ والعطا فى مسألة الأكل من باب التصبير ، وتهذئة الأمعاء .

ولم يحتمل « سيد » الصمت . . كان لسانه يتململ فى فمه . . كان ما سلب من نشاط لسان أبيه وضع فى لسانه .

ومرة أخرى رفع رأسه إلى أبيه ، وهما يدفعان العربة أمامهما ، وعاد يسأل :

— حانتقدى إيه ؟

— إيه رأيك أنت ؟

سؤال طيب . . انه خير وشيلة لفتح باب الدردشة . . وانطلق

« سيد » يقول بحماس :

— عندنا ثلاث غدوات : الأولى فى مطعم الأمرا ، سمك مقلى ..
أو كسبريه بالطماطم والبقدونس والبصل .. والغدوة الثانية فى مسقط
« خالتي زمزم » طبق فته بشرية الكوارع .. وكوارع إذا امكن ..
أو لحمة رأس ومبار .

وصمبت « سيد » برهة ليزدرد ريقه ، ونظر إلى أبيه من جانب عينيه
ليرى وقع حديثه عليه ومدى استعداده لقبوله ، ولكنه لم يستطع أن
بمستبين من وجهه الجامد العبوس شيئا فعاد يتهم حديثه قائلا :

— أما الغدوة الثالثة ففى مكان الأسطى مخير .. مكرونة بالصلصة
هايله ، وكشرى بجبته ، عجيب .. وكبده بالشطيطه مدهشه .
وتطلع « سيد » مرة أخرى إلى وجه أبيه ، عله يجد صدق لرغباته ،
ولكنه لم ير سوى العبوس والجمود .

وأخيرا لم يجد بدا من سؤاله ، فهتف صائحا فى حماس :

— أيه رايك ؟

— احنا حناكل جبنة وبطيخ مع سنك « أم آمنة » فى البيت عشان
هيه قالت لى من كام يوم إن نفسها فى أكلة جبنة وبطيخ .

جبنة وبطيخ ! لشد ما جاء الجواب مخيبا لآماله .. لقد كان فى
واد وأبوه فى واد آخر .. كان فى وادى الكسبرية ، وغتة الكوارع ،
وكبدة الشطيطه .. وكان أبوه فى وادى الجبنة والبطيخ .. وشتان
بين الواديين .

« ست أم آمنة » نفسها فى الجبنة والبطيخ ؟ ! وما ذنبه هو ؟
لناكل هى جبنة وبطيخا ، أو جبنة وشما ، أو جبنة وزفتا .

وزفر « سيد » من أنفه زفرة شديدة ، وهما يقتربان من درب عجور
.. ولاحت لعينه لافتة ، فوق حاتوت على ناصية العرب كتب عليها
« مسقط الحاجة زمزم » وأسفلها كتب « ادخلوها بسلام آمنين » ،
وأسفل اللافتة استقرت « الحاجة زمزم » على دكة خشبية فى مدخل

الحيات ، وعلى سيمائها ما يناقض الآية المكتوبة على اللافتة ،
او ما يشعر بفرط حاجة الداخل إليها .

لم يكن يبدو على « الحاجة زمزم » ما يوحي بسلام ولا امن ..
كانت امرأة شر بكل ما فى معنى الكلمة .

استقرت « الحاجة زمزم » متربعة على الدكة ، وتهذلت من حولها
كل اللحم المحيطة بها .. وقد بدت طيات فوق طيات ، كل طية تستقر
متبدلة فوق الطية التى اسفلها ، وهى فى جلستها على شكل هرم تتكون
قاعدته من الارداق والأنخاذ ، والسيقان ، وقد انبعجت أطرافها ،
وبرزت إلى الخارج من فرط الضغوط بين الشحوم ، وبين خشب الدكة
نتيجة لثقل الجسد الواقع على القاعدة .

والطبقة الثانية التى تلى القاعدة تتكون من بطنها ، ومن محيط
الشحم الملتف حول خصرها ، وهذه الطبقة فى ذاتها مكونة من بضع
طيات متعرجة متتالية كانها الصاج المعرج ولكنه صاج لين طرى .

والطبقة الثالثة التى تلى طبقة البطن تتكون من صدرها وشحم
ظهرها الذى يظهر ببروز وراء قفاها وتحت ابطيها كأنه سنام الجمل ،
وهذه الطبقة ليست متصلة المحيط ، بل تتكون من ثلاث كتل رئيسية هى
الثديان وسنام الظهر وشحم الابطين .

وعلى قمة الهرم تستقر الرقبة والرأس ، وفوق ذلك كله تبسّدو
« الأمطة » الحمراء تعصب الرأس ، وكأنها علم أحمر ينذر بالخطر الكامن
اسفله .

ذلك هو الوصف العام « للحاجة زمزم » باعتبارها هيئة طبيعية
مستقرة فى باب المدخل ، فإذا حاولنا أن ندخل فى التفاصيل لفت نظرنا
فى القاعدة قدمان مخضبتان بالحناء قد أحاط بهما خلخالان وبدت قاع
القدم مشتقة أشبه بالخف لم يجد معها دعك باللوفة أو صقل بالحجر ..
فإذا كانت لدينا الجراءة فى أن نحاول أن نكشف عما فوق الخلخال
وجدنا أطراف سروال شيت أحمر يبدو « مكشكشا » من أسفل الجلباب
الأسود الذى يستر الهيئة الهرمية الشحمية . فإذا تركنا المساقين —

اذ لا اظننا بمستطيعين الكشف عن أبعد من ذلك — وصعدنا فوق درجات الهرم وجدنا فتحة الجلباب تتسع حول العنق وفوق الصدر ويستقر غوتها كردان ذهبى تتدلى منه سلاسل وشرائيب ذهبية ، وفى الرسفين قد صفت الأساور والنوايش ، وبدا ظاهر اليد أخضر من كثرة ما نقش من وشم عليه .

أما الوجه ففيه أثر من جمال بائد .. أثر باهت شاحب يشير إلى أنه هنا كانت امرأة .. كما تشير بقايا الطلل من حجارة منهرة إلى أنه هنا كان إيوان .

ونما تحاول مصلحة الآثار تجديد الأطلال بخلقتها من جديد ووضع حجر جديد مكان كل حجر بال .. فقد حاولت « الحاجة زمزم » أن تفعل بوجهها ما تفعل المصلحة بأطلالها . فكان الأسنان المتساقطة قد وضعت طاقما جديدا ، ومكان الرموش الهاوية والأجنان المقروحة قد خطت بالكحل خطا أسود عريضا ، ومكان الحواجب المتأكلة قد رسمت حواجب جديدة ، واسفل المنديل الأحمر الذى عصبت به رأسها اطلت ضفيرتان مستعارتان غليظتان سوداوان .

و « الحاجة زمزم » تابى إلا أن تجعل من جمالها مفخرة ، رغم أن لديها من المواهب ما تستطيع الفخر به غير ذلك الجمال الضائع الموهوم .. لديها المسط ، ولديها الخلاخيل والأساور ، والبيت الملك ، كل ذلك بهيئ لها ثراء ، تستطيع أن تفاخر به أهل الحى .. ولديها السطوة والسلطان والفتونة . فهى يحمد الله — فى « درب عجور » كما كان الحجاج بين أهل الكوفة لا يتعق لها بالثنان ولا يغمز جانبها كتغماز اللتين ، ولديها لسانها .. الطويل السليط المؤذى .. الذى تستطيع أن تناضل به أمة من اللثام والسفلة فتقهرها .

لديها كل تلك المواهب ، ومع ذلك فهى تصر على التعلق بالجمال الزائل وهى تابى إلا أن تحتل فى درب عجور مركز « فتاة الحى » بالدراع ، فهى تهاجم كل امرأة جبيلة .. لم تنج من لسانها واحدة ، ومن

لم تجد بها عيبا انتهت بها بأنها عاهر .

كانت « الحاجة زمزم » ترن حوالى مائة وخمسين كيلو ، منها مائة كيلو أناتية ، فقد كانت ذاتها هى محور كل حركة وكل فكرة وكل تصرف يصدر عنها .. وكان يبدو كأن كتل الشحم التى تراكت على جسدها قد اختلط فيها الشحم بمواد متفجرة .. فهى أبدا تفرقع بالسباب والشتم وتفيض بالمرارة والحقد .

هى حائرة بين رغبتها فى تصيد الإعجاب بشخصها ، وبين اطلاق شرورها وأحقادها التى تفيض بها نفسها .. لا تكاد تتصنع الرقة والدلال حتى تغلب عليها سلاطة لسانها وسفالة خلقها ورغبتها الكامنة فى الشر والأذى .. فهى ترق للثوى فى مواجهته فلا يكاد يوليها ظهرا حتى تنهشه بلسانها .. أما الضعيف فتقرغ فيه أحقادها غائبا وحاضرا .

تلك كانت « الحاجة زمزم » ، خالة « المعلم شوشة » السقا ، والزوجة السابقة « لإبراهيم الفرارجى » الذى قد فر منها فرارا وترك لها الحى بأكله .. بعد أن سودت عيشه وأزهقت أنفاسه ، وتزوج من « حسنة » المسكينة بائعة الفول النابت .

وكادت المرأة تجن عندما هجرها الرجل لا لحبها له .. بل لحبها لنفسها .. فقد كانت تجد فى نفسها شيئا ممتازا عن بقية النساء .. وكانت تأبى أن تقارن نفسها بسواها ، وكانت لا تكف عن تعداد محاسنها والتنقيب عن معائب الغير .. فكيف بها وهى ترى زوجها يفر منها ويفضل عليها أقبح نساء الحى وأوضعهن .

كانت صدمة قاتلة لها زادت من حقدها ومراتها .. فأصبحت مخلوقة لا تطاق .. تعاكس ذباب وجهها ، وتشاكس طوب الأرض .

وكانت « زمزم » تحس بعد هجر زوجها أن الدنيا تناصبها العداء .. فنأصبت الدنيا العداء ، ووقفت تناضل فى الحياة وحدها بلا زوج ولا ابن ، ولكنها كانت صلبة العود شديدة المراس .. فاستطاعت أن تصمد ..

واتسع مسطها وربحت تجارتها وأضحت ذات ثراء لم يبلغه أحد من أهل الحى .

وكان « سيد » يرى أباه شديد النفور من « الحاجة زمزم » ، رغم ما كانت تبديه له « الحاجة » من مودة ظاهرة ، ورغم ادعائها أنه ابنها ، وأن « سيد » ابن ابنها .

وكان « سيد » يكره نفور أبيه من « الحاجة » فهو يراها ذات نفع إذ أنها لا تفتأ تطلع عليه المنح بين آونة وأخرى ، ما بين قطع المبار والملايم التى تنفحه بها بين آونة وأخرى .

كان « شوشة » يكره منحها ، فقد يعلم أن « زمزم » لا يمكن أن تمنح بقصد المنح ، وأنها لا تدفع إلا لتأخذ أكثر مما تدفع ، وبالفعل صدق ظنه . . إذ تبين له أنها تريد أن توطد الصلة وترفع الكلفة حتى يحل إليها المياه مجانا فى سبيل أكلة بين آن وآخر وبضعة ملايم تمنحها لابنه .

لقد كانت تقول انها أمه وأنه ابنها . . لأنها كانت تعلم أن الابن لا يعطى أمه المياه بالثمن ، ولكن « شوشة » لم يخدع بالعطف الظاهر وأصر على التبعاد عنها وحرّم على ابنه أن يأخذ منها مليما واحدا ، وفى المرات القلائل حين كان يهفو إلى أكلة لحمة راس ، كان يصر على دفع ثمنها على « داير مليم » .

وعندما وصلت العربية بحذاء الجانوت تمهل « شوشة » قليلا وبدا كأن فكرة طازئة طافت بذهنه .

ودعا « سيد » ربه أن يهدى أباه ويدخله المسط ، ورفع راسه إلى السماء وتمتم بصوت خافت :

— لحمة راس . . وقتة كوارع يارب . . اللهم أبعد عنا الجبنة والبطيخ .

وفى نفس الوقت انطلقت صيحة من كوم الشحم الرابض على الدكة :
— اتفضل يا معلم شوشة . . اهلا وسهلا .

ولم يدر « سيد » ما الذى غير رأى أبيه فجأة ، أهى دعوته إلى

الله ؟ أم دعوة الحاجة زمزم له ؟ فقد توقف الرجل وترك العربية بجوار الرصيف ، وأمسك بيده ، واتجه إلى المسقط .

ولم تكن بالطبع إحدى الدعوتين هى التى غيرت رايه ، بل كانت فكرة خطرت له عندما تذكر مماثلة « الحاجة زمزم » فى دفع القرب المتأخرة : وعزمه على أن يأخذ الثمن فة وكوارع ولحمة رأس حتى لا يعطيها فرصة الاحتيال عليه .

واستمرت المرأة فى ترحيبها :

— أهلا وسهلا بالمعلمين .

وأحس « سيد » بنشوة وهو يخاطب بصيغة الجمع مع أبيه ، ورد على تحية « الحاجة » بخير منها قائلا فى لهجته الرجالية :

— أهلا وسهلا بشيخة المعلمات ، وفتوة الحسينية .

وفجأة تناولت « الحاجة » حجرا من كوم حجارة وضع بجوارها ، ورفعت يدها ثم قذفته بشدة فمر فوق رأس « سيد » كالصاروخ ، واستقر على رأس كلب يهم بالاقتراب من المسقط ، وحمد الصبى ربه أنه لم يكون المتصود بالجحر .. فقد ظن وهى ترفع يدها بالحجر فجأة أن وصفه لها « بشيخة » قد أغضبها ، وأنها فهمته بمعنى الكبير فى السن .. لا الكبير فى المقام .

وعدا الكلب يعوى هاربا من المنطقة الحرام .. ورفعت « الحاجة » يدها عن كوم من الأسلحة الخفيفة ، سلاح الكلاب ، والتقطت ، وما إليها من أطفال الحى الاشتياء الذين يحولهم أحيانا معاكستها . وقبضت بيدها على السلاح الثقيل .. سلاح الزبائن العصاة ، الذين يساومون فى الدفع أو يماطلون فيه وهو « شومة ثقيلة » .. تقرر بها « الدكة » بين آن وآخر على سبيل الإنذار والتحذير .

ودخل « شوشة وابنه » يخوضان فى كوم العظام المتراكم على مدخل المسقط ، والمحرم — بلا ريب — على الكلاب والتقطت .. وحييا « جاد » صبى « الحاجة زمزم » والمتولى شئون المسقط ، وهو قزم معوج

الساقين ، بارز الذقن لا يقل شرا وسفالة عن معلمته .. وهو المخلوق الوحيد الذين يمكن أن يحتملها ويداوم على العمل معها ، فقد استطاع أن يصمد فى العمل معها قرابة الخمسة عشر عاما منذ أن كان صبيا فى الثانية عشرة . وقد تبدل جميع عمال المسقط عداه ، إذ كان يربطه بالحاجة رابطة متينة من سوء الخلق والكره المتبادل جعل كليهما لا يستغنى عن الآخر .

كان « جاد » يتخيل رأسها فى كل رأس يشجه ، ولسانها فى كل لسان يقطعه ، وكان يشعر بلذة من عملية الشج والقطع ، ويدعو الله فى كل ضربة ساطور .. أن يضعها أمامه فوق « الأرملة » ويمكنه من زمارة رقبتها .

وكانت « الحاجة » بدورها تتخيله فى كل كلب عاو هسبت رأسه . وفى كل زبون مضروب حطمت ضلوعه ، وكانت تدعو الله أن يريها « جادا » كومة من العظام ، كذلك الكوم المستقر أمام مدخل الحانوت .

وهكذا كان يجمعهما — غير حاجة كل منهما إلى الآخر — شعور من الحقد والبغضاء .. كان كل منهما ينميه فى الآخر ويبقيه دائم اليقظة .. فكما يشعر بعض الفنانين برغبة دائمة فى الحب ، وحاجة إلى ما يوقظ حسه ، ويرهف مشاعره .. كانت « زمزم » و « جاد » يشعران برغبة دائمة فى البغض وحاجة إلى ما يوقظ حقدهما ، ويؤجج غضبهما . لقد كان كلاهما فنانا فى الشر ، عبقريا فى الأذى .

ووقف « جاد » وراء القزان الكبير الذى يتصاعد منه البخار .. يفكه السفلى العريض ، وحقنه البارز ، وحواجه الثقيلة ، وأنفه المعوج الشبيه بالمنقار .. وقد بدا شديد الشبه بالثياطين والزبانية .. ثم أخذ يجهز بعض الطلبات على الأرملة الخشبية ووضعها فى الأطباق الصغيرة .. ودفع بها إلى صنى وقف ينتظر بجواره ، وقد بدا صورة طبق الأصل منه وهو ابنه « حنفى » الذى يعاونه فى خدمة الزبائن . ولم يكن الحانوت مزحما ، فقد خلا إلا من بضعة زبائن تناثروا

فى الأركان وأقبل كل منهم يتناول طعامه فى سكون عدا واحد بدا وجهه غريبا على « شوشة » وابنه « سيد » .

كان الزيتون الجديد كهلا يرتدى جلبابا من « الدمور » المخطط ، وجاكتة قديمة ، نحت يافتها وكيعاتها وأطراف أكمامها ، وبرزت البطانة من عدة مواضع ممزقة فيها ، وفى قدميه حذاء بال أجرى ، لا يعرف له لون ، قد جدد نعله بقطعة من كاوتش سيارة ، وربط إحدى فرديته بقطعة من الدوبارة ، وتدلّى لسان الأخرى من الفتحة الخالية من الرباط ، وارتدى جورب صوف كاكى طويل من جوارب السلطة ، قد تهدل من ساقيه الرفيعتين المساوين ونزل فوق الحذاء .

والرجل على كبره يبدو لطيف الملامح ، بشوش الوجه ، تهدل شاربه الأبيض على شفتيه فأخفى العليا ، وأبرز السفلى وتناثرت الشعيرات حول فمّه ورقبته . . فكست وجهه شبه وبرة بيضاء .

ومع كل مظاهر البهولة البادية على الرجل نجد الطربوش الأسود الزيتى المنهار الجوانب ، المندوف الزر ، قد استقر على حاجبيه الأيسر على ميل شديد ، كاد يختل معه توازنه . . مؤكدا أن صاحبنا ما زال محتفظا بعباقة معنوية شديدة . . وأنه رغم أن طاقته المادية عاجزة قد باعدت بينه وبين الفخامة والأبهة بعد السماء عن الأرض . . إلا أنه أصر على ألا يخلد . . وأن يستعمل من وسائل الأتاقة والعباقة ما أبقاه له الذى أخنى عليه كما أخنى على لبد . . فأمال الطربوش على حاجبيه . . ووضع فم السيجارة بالعقب فى جانب فمه .

ذلك هو « شحاتة أفندى » كما أبصره « شوشة » وابنه « سيد » . . ليس به من مظاهر الأفندية غير الطربوش والجاكتة ، بادى الانسجام والسرور . . لا يكف عن التلفت يمنة ويسرة . . حتى يستقر بصره على الهرم الأكبر الجالس على الحكمة . . تعرف على قمته « الأمطة » الحمراء .

ولا يكاد بصره يستقر على وجه « الحاجة زمزم » . . ذى التجاعيد

والهضاب والوهاد .. ولا تكاد تلتقى الأعين حتى تتحرك حواجبه مرتفعة منخفضة بطريقة آلية .

وهكذا يتضح من حركة « شحاتة أفندى » .. أنه يصوب سهام غزله إلى الهرم الشحمى .. بادئا بتلعيب حواجبه .. متابعاً هجومه الصامت بهجوم ناطق ، قائلاً وهو يمصص بشفتيه .. ويهز رأسه فى شبه أسف وطرب :

— « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالثنى » .

ويبدو واضحاً أن هجومه قد أصاب الهدف ، وهو لابد أن يصيبه .
نقد كان الهدف — من ناحية الحجم — أضخم من أن يخطئه مصوب ولو كان أعمى . ومن ناحية الحساسية كان الهدف نفسه يتصيد كل هجوم أيا كان نوعه .. فإذا كان هجوم غزل ، فليس أحق به منها .. لأنها — كما تعتقد فى نفسها — أجمل أهل الحى .. وإذا كان هجوم عراق .. « فادها وأدود » .. لأنها أيضاً أقوى أهل الحى ذراعاً ، وأطولهم لساناً .
وظهر تأثير هجمات « شحاتة أفندى » على الهرم الأكبر .. عندما بدأ الهرم الأكبر يتمايل ويهتز طرباً ، ثم يطلق ضحكة ناعمة نسبياً ، ويهز رأسه المعصوب بعلامة الخطر ، وينشد مترنماً : « يا نور العيون آنست » .

وصلت الأغنية إلى أذن « شحاتة أفندى » فاعتبرها بمثابة تحية له ورد على غزله ، واستسلام لهجومه ، فاطلق القذيفة الثانية فى صورة أغنية أخرى ، متابعاً نجاحه صائحاً ، وهو يهز رأسه طرباً « يامر انت راحشنى وروحى فيك » .

وهكذا استمر الغزل فى صورة اغنيات .. يتبادلها الطرفان ، حتى وقف « حنفى » بطبق لحة الرأس والعيش والطرشى ووضعها على المنضدة أمام « شحاتة أفندى » .

وكف « شحاتة أفندى » عن الغزل مرة واحدة ، لا تلعب حواجب ،

ولا إنشاد أغاني ، ولا طرب ، ولا هز رأس ، وحلق في الأطباق حلقة
نهم مسغب .. لم يذق طعاما منذ أسبوع . وانصرف بكليته إلى الصبي
حنفى ، معرضا تماما عن « الحاجة زمزم » منكرا إياها كل الإنكار ،
كان لم يكن يناديه منذ لحظة : « ياما انت واحشنى وروحي فيك » ..
وكأنما كان هذا القول موجها إلى كرشة الخروف .. لا إلى كرشة
« الحاجة زمزم » .

واقبل « شحاتة أفندى » يفحص الطبق .. ويقلب الكرشة والمبار
.. وقطع لحمة الرأس .. وهم « حنفى » بالانصراف عندما صاح به
« شحاتة » فى لهجة أمرة :

— اسمع يا ...

— محسوبك حنفى .

— اسمع يا حنفى .. عايز جوهره .. ونص مخ مع نص لسان ..
بس كده خليه يوضبهم على كيفك .. وهات كمان شوية شوربه .

وبدا الدهش على « حنفى » إذ لم تكن الطلبات لتتناسب مع مظهر
صاحبنا .. وبدا عليه التشكك فى جدية طلب الرجل وفى استطاعته
دفع ثمنه .

وأدرك « شحاتة » معنى نظرة الصبي فقال من باب التطمين
والتأكيد :

— هات .. هات .. مافيش فرق بينى وبين الحاجه ، ما بين
الخيرين حساب .

ورفع « حنفى » كتفيه كأنما يقول « وأنا مالى .. انت اللى حتاكل ،
وانت اللى حتدفع » .

ووصل إلى مسامع « شوشة » قول الرجل « ما بين الخيرين
حساب » ، فلم يشك فى أن الرجل لم يعرف « الحاجة زمزم » جيدا ..
وأنه خدع باستسلامها لغزله ، وإلا لما أدخلها فى زمرة الخيرين .
وحمل « حنفى » طبق الفتة وطبق الشورية والكوارع إلى شوشة

وابنه ، ثم عاد ليحمل بقية الطلبات إلى شحاتة أفندى .

وانهمك الكل فى الأكل فلم يسمع منهم صوت ولالقى أحد منهم بالا لأحد . . كان الاهتمام كله مركزا بين الفم والأطباق ، وكان « سيد » متلهفا على فتة الكوارع فهو يحبها وقد مضى عليه بضعة أشهر دون أن يتذوقها ، فاللقاء بينهما على وحشة وطول فرقة .

وكان « سيد » ما فتى يراقب جاد فى عملية الفت ، وتمزيق العيش ووضعه فى الطبق ، وكان يود لو ينهض لمساعدته ، ثم أخذ يراقب الشورية والبخار يتصاعد منها وهى تهبط فوق العيش فتلين صلابته وتذكر صرح لقماته ، وهكذا لا يلبث خليط العيش والشورية حتى يستحيل إلى كتلة طرية متماسكة كمصدر العذراء . . ليونة وسخونة ، ويبدأ بعد ذلك ، فرش الرز ، واللثيم « جاد » يأبى إلا أن يرقق طبقة الفرش كأنها ينزعها من جلده . . رغم أن « سيد » يحب كثيرا الرز المفروش على الفتة . . ولكن منذ متى كان « جاد » يأبه لرغبات « سيد » أو أكثر من « سيد » ؟ أنه مسافل لثيم كابنه « حنفى » . . ويجيء دور الصلصة ، وإذا كان « جاد » يفرش الرز من جلده . . فهو يسكب الصلصة من دمائه . . إنه لا يكاد يضع المغرفة فى الحلة حتى يخرجها ، ثم يدور بها حول الطبق وبحذاء حافته من الداخل دون أن يسكب منها شيئا كأنها هى عملية تشميم لا أكثر ولا أقل .

ولا يستطيع « سيد » أن يكتم غيظه ، وهو يرى أن المسألة أخطر من أن يسكت عليها فيصيح بجاد :

— عايز صلصه يا عم جاد . . الريحه مش كفايه .

ولا يجد « عم جاد » بدا من أن يسكب بضع قطرات من « الكبشة » ، وهو ينظر إلى « سيد » فى حنق ولسان حاله يقول « بالسّم الهارى » . . ويبتسم « سيد » وكأنه يجيبه « ولو » .

ويغفل « سيد وأبوه » بالكوارع عن « شحاتة أفندى » ، كما غفل « شحاتة أفندى » بلحمة الرأس والجوهره واللسان عن « الحاجة

زمزم « ، وعن الدنيا بأكملها ، وبكاد بنسيائه كلية حتى يصل إلى أذانها ، وقد بلغا قاع سلطنة الفتة ، صوت هدير آت من مدخل الحانوت ، فتلفتا تجاه الصوت فى دهش فإذا « بالحاجة زمزم » تزار قائلة :

— يقول إليه ؟ على الحساب .. حساب مين يا عمر ؟ قول له بدفع بالتى هى أحسن .

وكان القول موجها إلى « حنفى » .. رغم أنه رج الدكان بأكملها وبخرق آذان الزبائن جميعا وجعلهم يتلفتون فى دهش ليتبينوا مصدر الزوبعة وليكتشفوا من هذا الذى جرؤ على الاصطدام بـ « الحاجة زمزم » .

وتحرك « حنفى » ليبلغ الرسالة لصاحبها .. رغم أنه لم يكن هناك شك فى أنها قد وصلت لا إلى صاحبها فقط بل إلى سكان الحى المجاور .

ويتتبع الزبائن « حنفى » بأبصارهم ليروا الضحية ، فإذا بهم يجدون الصبى قد وقف أمام الزبون الجديد « شحاتة أفندى » أو كما عرف بينهم بعد ذلك .. « شحاتة أفندى » الهلفوت .

وقف « حنفى » أمام « شحاتة » وقال له بهدوء :

— الحاجة بتقول لك ادفع بالتى هى أحسن .

وكان الطربوش أبرز مظاهر العياقة فى « شحاتة أفندى » قد غادر موضع الأناقة وانتقل من الحاجب إلى مؤخرة الرأس ، وكان « شحاتة » قد أتى على جميع ما فى الأطباق وأعلن بالتجشؤ عن مدى شبعه ورضائه .. وبدأ فى جلسته قريبا للغاية ، ولكنه لم يتمتع كثيرا برضائه وقرارته . فقد فاجأه الزئير الصادر من « الحاجة » عندما بلغها الصبى الرسالة .. لا سيما وأنه كان قد بدأ يستعد لمواصلة الغزل .

وبدا الارتباك على « شحاتة » ، وهو ينقل الطربوش بين حاجبيه ومؤخرة راسه ، ويضع ساقا على ساق ، ثم يخفضها ثانية ، ولكنه حاول التمالك وتقال للصبي فى صوت خفيض :
— روح انت .. انا حتفاهم معاها .

أجل .. انه لا شك سيستطيع التفاهم معاها .. فقد كانت تذوب رقة وهو يقول لها « ياما انت واحشنى » .. وأغلب الظن أن ما أثارها عليه ليس رغبته فى عدم الدفع ، بل انصرافه عنها إلى لحمة الرأس .. لعنة الله عليه .. كان يجب أن يكبح جماح نفسه ، وأن يتروى قليلا فلا يندفع إلى اللحمة مثل هذا الاندفاع ، ولكن .. لا بأس عليه .. سيعرف كيف يسترضيها ، ويدير رأسها ، ويأكل منها ، ويلين لسانها .. فى سبيل لحمة الرأس والمخ واللسان .. الذى أكله ، والذى ينوى أن يأكله بعد ذلك .. انها فرصة سانحة لا ينبغى أن يضيعها من يده مهما كان الأمر .

وبدا يعد فى ذهنه خطة الهجوم المضاد على الهرم الشحمى الأكبر .. ولكنه قبل أن يبدأ التفكير فوجيء بالزئير مرة أخرى ، وسمع المرأة تصيح بالصبي :

— قل له يدفع قبله .. لحسن أخرجه من الدكان ملط ، ياكل جوهره ولسان ، ومش عايز يدفع الحساب .. الأقرع التزهى ، والنبي أطلع حبابى عينيه ؟

وارتجف « شحاتة أفندى » فقد وجد أن المسألة أخطر بكثير مما كان يظن .. لشد ما خدع فى المرأة .. إذ ظنها مركبا سهلا ذلولا .

ولم ينتظر « شحاتة » حتى يبلغ « حنفى » الرسالة ، بل نهض متجها إلى « الحاجة زمزم » عله يستطيع تهدئتها والتفاهم معاها .

وبدا وجه « الحاجة » مريدا متجهما .. وقد انتخت أوداجها وزوت ما بين حاجبيها المرسومين وكشرت عن أثيابها الصناعية ، ولم يكذ « شحاتة أفندى » يقف أمامها وهو يحاول الابتسام حتى صاحت به :

— نتفاهم على إيه يا عומר ؟ .. إيدك على الحساب .. ادفع
تمن السم الهارى اللى كلته .

— صبرك على يا حاجه .. الدنيا مش حاتطير .. الناس لبعضها .

— الفلوس .. إيدك على الفلوس .

واستط فى يد « عم شحاتة » فقد خذلته المرأة تماماً وقلبت له
ظهر الجن .. ولم يكن قد دخل جيبه مليم واحد منذ بضعة أيام ، ولم يجد
هناك بدا من أن يقوم بهجوم غزلى خاطف عليه يستعيد به الموقف ، وبدأ
بطلق ما فى جيبته من سهام . فلجأ على هدير المرأة وزئيرها بحركة
سريعة من تلعب الحواجب ، وصاح منشدا فى طرب :

— « حبيبي قاعد ع الدهيبه ، ودراعه متختخ زى الليه » ..

ثم أعقبها بقوله التقليدى فى أسف :

— « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشي » .

وهنا انطلق « سيد » مقهقهها وصاح بأعلى صوت مجاوبا شحاتة
أفندى :

— « يا ميت ندامه على اللى كل ولا دفعشى » .

وفجأة وفى سرعة البرق .. بدأت الندامة .. ندامة « اللى كل
ولا دفعشى » .

لقد ارتفع نراع « الحبيب المتختخ اللى زى الليه » ثم هوى مطبقا
على جاكته « شحاتة أفندى » وجذبه بعنف تجاه الحبيب .. ليس الجالس
على الذهبية .. بل الجالس على الدكة أمام المسط .

ومزقت الجاكته وهوى « شحاتة أفندى » جاثيا أمام الدكة وأفلتت
يد الحبيب الجاكته : وأطبقت على زمارة رقبة صريح الهوى ولحمة
الرأس .

وبسرعة البرق تناولت « الحاجة » العصا بيدها الأخرى ثم رفعتها
إلى أعلى مهددة صائحة :

— الفلوس .

وصاح « شحاتة أفندى » فى نلة واستعطاف :

— حاضر .

— هانت .. قوام .

— صبرك على .

— طلع إيدك بالفلوس .

— نسيت المحفظة فى البيت .. ولا معيش ولا مليم .

وصرخت « الحاجة زمزم » فى وجهه وزادت الضبط على عنقه :

— نسيت المحفظة ! ؟ دا كلام ما بنطليش على .. حاخذ الهدمة اللى

عليك واخرجك بلبوس .

ثم صاحت :

— جاد ...

وبلغ النداء « جاد » وهو واقف أمام القزان يشاهد المنظر فى

شماعة وفرحة . فأسرع إلى الحاجة وهو يجيب فى طاعة :

— نعم يا معلمة .

— قلعه الجاكتة ، والجلابيه ، والجزمه ، وناوله .

ولم تكد « الحاجة » تنتهى من قولها حتى هجم « جاد » على

« شحاتة أفندى » الذى كان راكعا أمام الدكة وعنقه فى قبضة

« الحاجة » وطربوشه ملقى على الرصيف وعيناه محمقتان فى دهش

وذعر .

ونزع « جاد » الجاكتة — أو على الأصح — علاهيل الجاكتة بين

استغاثات « شحاتة » وزئير « زمزم » ، ثم مديده إلى نيل الجلاب وبهم

برفعه عندما نهض « شوشة » من مقعده فى غضب واندفع إلى

« جاد » بعد أن رآه ينفذ بالفعل حكم « الحاجة » بتعرية الرجل وصاح

فيه حائفا متحديا :

— إيه اللى بتعمله دا يا جدع انتة ؟

ولم يجب « جاد » بل نظر إلى « الحاجة » نظرة تساؤل كأنه يستشيرها فيما يفعل إزاء تدخل المعلم « شوشة » ، ثم حول عينيه من « الحاجة » إلى « شوشة » وبالعكس كأنها يقول له « كلمها هي » او « انتشطر عليها » .

وحاولت « الحاجة » ان تبذل جهدا كبيرا لكتم غيظها مفضلة أخذ « شوشة » بالحسنى فقد كانت مدينة له بثن القرب التي وردها خلال ضحكة سطحية كشفت عن طقم أسنانها وأبرزت تجاعيد وجهها ، وقالت مجيبة على سؤال « شوشة » بأقصى ما استطاعت من رقة :

— المنكوب ده ما دفنمش تمن اللي اتسببه .. طلب جوهره ومخ ولسان .. على الحساب .. تصدق إن الجربوع ده يكون له حساب .. داخنا لو بعناه بحاله ما يجيبش تمن اكله . لكن أنا حا اعرف ازاى اخليه يبطل النصب على الناس .

وقبل ان تسمع رد « شوشة » حولت الحديث إلى « جاد » قائلة :

— قلعه الجلابيه ، وخليه يمشى فى الشارع ملط .

واستمر « جاد » فى نزع الجلاب معتبرا ان المناقشة قد انتهت ، ولكن « شوشة » تقدم خطوة ثم قبض على رسغ « جاد » ولوى ذراعه إلى الخارج ثم دفعه بشدة دفعة جعلت « جاد » يصرخ من فرط الألم . ولم يكن « شوشة » ضخم الجسد أو بادی القوة ، ولكنه كان من النوع الذى يسمونه « عرق » .. كان نحيف الجسد ، ضامره ، ولكن عضلاته الضامرة كانت تبدو عندما تتصلب كأنها قطع الصلب ، وكان يتمتع بقوة كامنة وإقدام وجراة جعلته بين أهل الحى مرهوب الجانب وجعلت « جادا » يتنحى عن الميدان تاركا « شوشة » مع « زمزم » وجهها لوجهه .

وكان « سيد » فى هذه الآونة ما زال جالسا على مقعده منهمكا فى مصبصة بقية كارع ، ولكنه لم يكن يبصر دفعة أبيه لجاد ويوتن أن هذا لابد أن يكون بداية معركة حتى قفز من مقعده فى فرحة ظاهرة ، فقد

كان يتوق منذ مدة طويلة إلى أن يرى أباه فى معركة لا سيما مع هذا الحيوان اللئيم « جاد » ، وكان يتوقع أن تنيله مثل هذه المعركة مآربا طالما تلهف عليه وهو ضرب « الواد حنفى » ابن « جاد » الذى طالما اعتدى عليه بالسباب «حتما بأبيه و « بالحاجة زمزم » ، ولكنه فى المعركة يستطيع أن يتصيده وحده إذ لا شك أن جادا وزمزم سيكونان مشغولين عنه بأبيه .

ولكن لم يكن يجد « جاد » يتنحى حتى خاب أمله . إلا أنه عاد يرقب عينى « زمزم » فقد أضحى فى يدها الآن مفتاح الموقف إن شأنت أنهته بسلام ، وإن شأنت أعلنت القتال .

وبدا جليا أن « زمزم » لا تريد الدخول فى معركة مع « شوشة » ، فقد صمتت برهة ، وهى ما زالت مطبقة بيدها على زمارة رقبة « شحاتة أفندى » الذى بدأ يتطلع فى استغائة صامتة إلى منقذه الأكبر ، ثم أطلقت تنهيدة معناها : « اللهم طولك يا روح » ، ورفعت حاجبها الأيسر ، وهزت رأسها ببطء ، وتساعلت فى هدوء مصطنع :

— مالك يا سى شوشه .. حد داس لك على طرف ؟

— قبل كل حاجة سيبى الراجل ده .

— أسيبه ؟

— أيوه .. سيبيه !

— أنت تعرفه ؟ صاحبك ؟ قريبك ؟

.. قلت لك سيبيه !

وبدا الغضب يغلى فى صدر المرأة .. ولكنها بذلت جهدا كبيرا لكبت بوادره ، وقالت فى لهجة اقناع :

— أنا عارفاهم أكثر منك ، عارفه الصنف النصاب المحتال ده .

— اسمعى يا حاجة .. تعرفيه ما تعرفهش .. كلمه ورد غطاها

.. قلت لك سيبيه ، وحادفلك الحساب .

ودهشت المرأة ، وبدأت عليها إمارات الخذلان .. ولكنها لم تستطع أن تقول شيئاً .. فقد أسكتها « شوشة » برده .. حقيقة أنه سيحرمها من التمتع بإحدى عمليات الشر والأذى ، ولكنه سيدفع الثمن ، وهو الأهم .

وأفلتت من قبضتها رقبة الرجل .. فنهض « شحاتة أفندى » وهو يتحسس رقبة غير مصدق أنه نجا ، وأمسك بجacketه الممزقة ، ووضعها على كتفيه وتناول الطربوش الذى تدحرج فوق الرصيف ، فوضعه على مؤخرة رأسه ، ووقف يقلب البصر فى ذهول بين القضاء المستعجل والمعجزة الكبرى ، أو بين « زمزم » و « شوشة » .

وتكلمت المعجزة تخاطب القضاء فى لهجة مقتضبة حازمة :

— حسابه كام ؟

وتحول القضاء إلى صبيه « جاد » ملقيا نفس السؤال :

— حسابه كام ؟

— لسان وجوهره ومخ .. مخ بتلاته ابيض ، وجوهره بساغ ، ولسان بصاغ ، ورغيف بعشرين تعريفه ، وبعشرين تعريفه طرشى وسلاطه ، تبقى الحسبه كلها أربعة ساغ .

ولم يتمالك « شوشة » نفسه من الصياح فى دهشة ، وهو ينظر إلى « جاد » فى شك وريبة :

— أربعة ساغ !

— أبوه أربعة ساغ !

وتحول ببصره إلى « شحاتة أفندى » طالبا منه أن يكذب « جاد » . ولكن الرجل هز رأسه بالوافقة .. فعاد « شوشة » يسأله :

— انت كلت كل دا يا أخينا ؟ !! مخ ولسان وجوهره وطرشى

وسلطة ؟

— أبوه !

— ولا فيش معاك مليم واحد ؟

وهنا وجدت « زمزم » الفرصة سانحة للتدخل ، ومعاودة الهجوم على « شحاتة أفندى » بعد أن بدت علامات التراجع على « شوشة » فقالت ساخرة :

— اقرع ونزهى .. نصاب ابن نصاب . فاكرها ياغمه . قلت لك سيبولى وأنا أعرف أراى آخذ حتى معاه .

ثم أردفت مقلدة صوت « شوشة » بلهجة ساخرة :

— قلت لك سيبيه .. حاديلك الحساب .. ادفع كع .

اربعة قروش .. مرة واحدة ؟ !! إنه مبلغ ضخم .. وهو ضائع ضائع .. فهذا المغامر المجنون .. لا يبدو أنه يستطيع رده ، ولو بعد عشرات السنين .. بل حتى لو باع ملابسه كما كانت « الحاجة زمزم » تنوى أن تفعل فلن يوازى الثمن الدين .. فالجاكتة والطربوش والجلباب والجزمة .. وأيضا الفائلة واللباس — بفرض أنه سيبشى بلبوصا كما قالت « زمزم » — لن يستدر من أكرم بائع روبيابيكيا .. أكثر من قرشين ونصف .

ومع ذلك ، فرغم فداحة المبلغ ، والياس من استرداده لم يكن هناك وجه للتراجع .. فهو لم يُتعود أن يعطى كلمة وينقضها .. وهو لا يستطيع أن ينكص على عقبيه بعد ما أبداه من مظاهر الشهامة أمام شرذمة المحدثين فيه .. المراقبين للمعركة من أولها ، وكذلك لا يستطيع أن يعرض نفسه لشهامة « جاد » و « الحاجة زمزم » .

إذا لا مفر من تحمل الأربعة قروش .

ومضت فترة صمت كان الكل ينتظرون في تحفز قرار « شوشة » .. فشحاتة أفندى قد مد عنقه المعرق ، ورأه الأشيب الملقى عليه الطربوش المنهار .. ينتظر الحكم عليه في توصل ورجاء .. و « زمزم » تمسك « الشومة » وترفع يدها على أتم استعداد لاسترجاع « شحاتة أفندى » في قبضتها .. لتززع عنه ملابسه .. و « سيد » متأهب لخوض

غمار المعركة .. مسلط عينية على « حنفى » عدوه الالاد .. حتى إذا
ما أذن للمعركة انتقض عليه .

وأخيرا نطق شوشة بالحكم قائلا :

— حاديكى اللى اتنى عايزاه .. أربعه ساغ .. عشره ساغ ..
ريال .. جنيه .. أنا قلت كلمه وخلاص .. سيبى الراجل يروح لحاله .
وهزت « الحاجة زمزم » رأسها فى دهش .. وتفخت من أنفها نفخة
سخرية ، وقالت :

— اشبع به .. أهو عندك .. إيدك على الفلوس .

— تعالى نصفى الحساب سوا .. عندك ثلاثين قرش حساب ميه ..
كلت فى الجمعہ اللى فانت بتلات قروش .. والنهارده بتلاته ..
يبقى حسابى ستة ساغ .. حطى عليهم أربعه ساغ حساب الراجل ..
يبقى الكل عشره ساغ ، خديها من الثلاثين ، يبقى لى عندك ريال .

وعضت « زمزم » على شفتيها ، إذ ساءها أن تنتهى المسألة بمثل
هذه السهولة ، لا سيما وأنها كانت تعتبر حساب المياه حسابا بيتا لن
يستطيع « شوشة » استرداده .

ولم ينتظر « شوشة » ردا من زمزم ، بل مد يده صاحبها ابنه ،
دافعا عربته أمامه ، وأشار إلى « شحاتة أفندى » قائلا :
— يالله بنا .. السلام عليكم .

وسار الثلاثة مشيعين بنظرات الإعجاب من الزبائن ، وبهمهمة
الحقد والتهديد من « جاد » ، وبتمتعة الدعوات السيئة من « زمزم » ..
وابتعدوا عن الحانوت ، و « شحاتة أفندى » مطرق فى صمت ووجوم
وندم .. يحاول أن يلم أطراف فصاحته وشجاعته ليرد على جميل الرجل
الذى أنقذه من براثن المرأة سفاكة الدماء .

وأخيرا من الله عليه بالحديث فقال فى صوت خافت :

— عدم المؤاخذه يا معلم .. أنا فى غاية الممنونية والخلج .

— مافيش لزوم .

— سأرد لك الدين فى اقرب غرصة .. لقد طوقت عنقى ، أو على الأصح .. أفلت عنقى بجيبك الذى لن أنساه مدى الحياة .

— لا تتعب نفسك برد شيء ، ولكن خذها عظة .. لا تأكل فى مسمط « زمزم » إلا على قدر نقودك .. وإلا عرضت نفسك للتهلكة ، إن ما فعلته اليوم هو الجنون بعينه .. ما الذى جعلك تغامر بأن تأكل ما أكلت وليس فى جيبك مليم واحد ؟ هل حقا نسيت حافظة نقودك ؟

— طبعا لا .. ليس لدى حافظة نقود ، لأنه ليس لدى نقود ، فالنقود لا تكاد تستقر بين أصابعى إلا لحظات .

— إذا ما الذى جعلك تقدم على ما فعلت ؟

— حسن الظن .

— بمن ؟

— بالحاجة زمزم .

— كيف ؟

— هى التى أغرتنى بكل ما حدث ، هى السبب والله ، كنت أجلس على القهوة فى أمان الله ، وكنت أنوى أن أقضيها بأى شيء ، بطبق كشرى على الحساب ، بلقمة جبنة ، بلقمة حاف ، حتى مرت هى من أمام القهوة .

— هى ؟ من ؟

— الحاجة زمزم ، مرت على الرصيف تتهادى وترجح ، وتهسى ككل الشحم واللحم المتراسة على أرائفها ، وأنا أحب اللحم لا سيما ما تكمل منه فوق الأرداف . ومن أجل الأعمال التى أقوم بها خلال جلوسى على المقهى « البصيصة » ولذا لم تكد تخطر الحاجة حتى بدأت البصيصة .

— بصيصه ؟ .. للحاجة ؟ اليس عندك نظر ؟

— ايدا !! هذه هى المصيبة ، نظرى ضعيف جدا ، شيش بيش ،

لا اكاد اميز إلا الارداڤ المهتزة ، اتصدق انى بصبست ذات مره
« للشيخ منصور الفتى » ، وهو يتهادى أمام القهوه بجسده السمين
المربرب ؟ الست معذورا بعد ذلك إذا انا بصبست للحاجه زمزم ؟
إنها على الأقل ابراة .

— لا والله .. الشيخ منصور اهون ، اى رجل به أنوثة اكثر منها .
— صدقت ، ولكن انى لى أن أعرف ذلك ، لقد أبصرت الخطوط
والكحل فى وجهها وطيأت الشحم فى مؤخرتها ، فلم أتمالك من التصفيق
بيدى وتلميع الحواجب والصياح فى طرب « يا ميت ندامه على اللى
حب ولا طالشى » وهذه هى طريقتى الدائمة فى البصبصة وهى طريقة
مضمونة لا تخبى أبدا ، وبالفعل لم اكد أنتهى من الصياح حتى رنت من
« الحاجه » ضحكه طويلة وغمرت بعينيها وقالت « ولا طالش ليه ؟ » ..
وأنا فى البصبصة حاضر البديهة ، سريع الرد ، إذا لم تسعفنى أغنيه
جاهزه ، أطلقت من رأسى اى شىء موزون . وهكذا أجبتها بسرعة :

يا حلو هاجر وغايب تولى كيف اراضيك

تبعد وتهجر وتنسى تقوللى فين اراضيك

وضحكت المرأة مرة أخرى ، وقالت فى تفاخر « فى مسبط الحاجه
زمزم فى درب عجور على سن ورمح » مسبط !! هكذا مره واحده ،
لقد فرجت ، وكنت اظنها لا تنرج ، هذا والله صيد ثمين ، أكل وبصبصة .
ماذا يريد المرء أكثر من هذا ، وأى أكله .. أكله بشبعه ، لحمه رأس ،
ومبار ، ومخ ، و ... وانطلقت وراء المرأة أتابعها وأجيبها فى حماس
بأبلغ عبارات البصبصة ، « يا ميت زیده ، يا ميت قشطه ، هز يا وز »
وهكذا استمررت وراءها حتى بلغنا المسط ، فاستقرت على دكتها
واستقررت على مقعد أمام إحدى المناضد ، وتبادلنا الغزل ، غنوه منى
وغنوه منها ، واحسست كائن فى بيتى ، فلقد كانت طريقتها فى الجاوبه
تحمل أبلغ آيات الرضا والترحيب .. أبعد كل هذا تظننى أخشى فى
الأكل لومة لائم ؟

- طبعا لا .. لقد ظننت « تحت القبة شيخ » .
- واى قبه .. واى شيخ ! ؟ لقد خيل إلى أنى لو طلبت كرسيها
هى لما تأخرت .
- يا ساتر .. لا تذكرنى بكرسيها .
- وهكذا وضعت فى بطنى بطيخه صيفى .. وطلبت .. واكلت ،
ونجشأت .. وعند الحساب ...
- دفعت انا .. لا عليك .. تعيش وتلخد غيرها .
- تاخذ انت غيرها ، انا لم اخسر شيئا سوى الخضه ، ولكتك
انت الذى خسرت ، وهذا ما يؤسفنى اشد الأسف ، والمصيبة أنى لا أعرف
كيف أسدده لك .
- وضحك المعلم « شوشة » وأجاب برفق :
- قلت لك لا تحمل هما ، ما بين الخيرين حساب ، ولكن احذر من
أن تعاودها ، لا تدع الأرداف تجرك مرة أخرى إلى مثل هذا الكمين . هذه
المره انتهت سليمة ، ولكن فى المرة القادمة يعلم الله كيف تنتهى .
- على أية حال لن أنسى جميلك أبدا ، فلو صدق ظنى فى المرآة
الوحش ، فإنك قد أنقذت حياتى .
- وهنا كان الثلاثة قد وصلوا إلى الدرب الكائن به بيت « شوشة » ..
- فتوقف الرجل ومد يده إلى « شحاتة » مودعا ، وهو يقول :
- اتفضل معنا .. نسقيك قهوه .
- كفايه الغدا .. إن شاء الله مردوده ، وخسرك السابق ..
- السلام عليكم .
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .
- وقبل أن يدلف الرجل وابنه إلى داخل الدرب هتف الرجل :
- كده ننسى طلب مستك أم آمنه .
- الجبنه والبطيخ ؟

— أجل .. لقد شغلنا شحاته أفندى عنها .
 — أفندى ؟ أما زلت تصر على أنه أفندى ؟
 — الا يرتدى جاكته وطربوشا وجزمه ، لماذا لا يكون أفنديا ؟
 — إنه نصف أفندى ، فهو لا يرتدى بنطلونا !!
 — بناتقص البنطلون .. انه يبدو عليه آثار عز قديم .
 — أقسم انه ما رأى العز قط .. إنه فى أحسن حالاته .
 — دعنا منه .. هيا لنشتري البطيخ والجينه .
 وسار الاثنان بضغ خطوات حتى بلغا عربة البطيخ الواقفة على
 ناصية الدرب ، وحيا « شوشة » صاحبها قائلا :
 — السلام عليكم يا معلم أحمد ، نقى لى بطيخة على كيفك .
 وكان المعلم « أحمد » فى حالة هياج لا ينتهى منها أبدا .. ما دام
 واقفا على قدميه ، فهو يدور حول العربة ويربت على البطيخ الواحدة
 بعد الأخرى صائحا بأعلى صوته :
 — حمار وحلاوة يا حلو .. الى فضلوا .. ع السكين يا طيب .
 وقبل أن ينتهى « شوشة » من طلبه كان صاحبنا قد اطبق بكتلى
 يديه على بطيخة وحب فيها سكينه إلى النهاية ثم حركها محدثا شقا
 طويلا واخرج السكين وضغط على جانبى البطيخة محملا ببصره خلال
 الشق صارخا فى انتصار كأنه فتح عكا :
 — حصوه فى عين الى ما يصلى ع النبى .. البلدى يوكل حمار
 وحلاوه .
 كل هذا الضجيج و « شوشة » لم ير البطيخة ، ولم يعرف ما إذا
 كانت حمراء أم بيضاء .. ولكته من غرط صراخ الرجل وحماسته لم
 يشك فى أنها حمراء ، وهم بأن يأخذها .. ولكن « سيد » صاح
 بالرجل :
 — ضيبيها ..

وتردد الرجل برهة كأنها يخشى أن تكشفه عملية التضييب ، ولكن

تردده لم يطل . . وما لبث أن أمسك بالسكين فندفعه فى جوف البطيخة
محدثا ثلاثة شقوق أخرى كونت مع الشق الأول مريعا ثم رمى السكين
وقلب البطيخة فى كفه الأخرى جاعلا المربع أو التضبيبة إلى أسفل
حتى سقطت فى كفه ، فلم تكد تسقط حتى رفعها بكفه إلى أعلى واندفع
فى ضجيجيه المعهود :

— احنا بيعاين الحلو . . حمار وحلاوة يا طيب .

ثم أخفض يده بقلب البطيخة حتى حانت فمه وقضم منها قطعة . .
ثم اندفع يصيح مهللا كأنها لم يذق من قبل بطيخة :
— عندنا الشهد .

ثم أسرع بوضع القلب مكانه ماذا يده بالبطيخة إلى المعلم « شوشة »
قائلا :

— حلال عليك . . بالهنا والشفا .

حدث كل هذا بمنتهى السرعة وبين صراخ وضجيج لا يتركان لإنسان
فرصة النظر إلى البطيخة أو تبين لونها أو مذاقها . . بل يأخذها واثقا
من حمارها وحلاوتها بإيحاء من بائعها .

وتناول « شوشة » البطيخة متسائلا :
— بكام .

— خمسه ابيض .

— نص فرنك كفايه .

— والله يا معلم من أصحابها بالاربعة ابيض ، ونكسب فيها تعريفة . .
يبقوا خمسه ابيض .

ومد « شوشة » يده بالنصف فرنك فأخذه الرجل وهو يقول :

معلش . . المره الجايه نعوضها .

هكذا كان يقول كل مرة . . فهو لا يكسب أبدا . . ولكنه يعوضها فى
المره القادمة .

وبعد أن وضع « شوشة » البطيخة على العربة اتجه إلى « شيخه البقال » الكائن على الناصية الأخرى من الدرب وقد بدا الحانوت حاويا لكل شيء فهو بقال ومطعم وفكهسانى وحلوانى وخضرى وملحق به صالون حلاقة .

يبدو الحانوت بواجهته الحمراء القائمة أو التى كانت فيما مضى حمراء ثم كسا الزمن حمارها بطبقة سوداء من الأتربة والدخان والزيت والشحم .. وقد سدت واجهة الحانوت بمنضدة (بنك) مصفح بالصاج ووضعت عليه قدرة فول ورصت بجوارها الارغفة وبالداخل رصت علب السردين والقونة وقطع الصابون الأحمر والأبيض وعلب الزهرة وورق الملح وعلب الحلوى الصفيح ، وتوسطت الحانوت منضدة مقسمة إلى عيون وضع فى إحداها الحلاوة الطحينية وفى الباقى الجبنة البيضاء والزيتون والجبنة الرومى وأسفل المنضدة صفيحة بها طرشى أفرنجى وصفيحة بها زيت وبرميل خل ، وفى ركن الحانوت رصت بعض زكائب حوت مختلف البضائع كالزرز والعدس والملح الخشن ، وفى الخارج رصت بقية الزكائب وقد وضع بجوارها قفص عليه طبق به ليمون وكرات وفجل وقفص به بلح أمهات ، وعلى الحائط أسندت بضعة أعواد من القصب ، وفى الجانب الآخر من الحانوت صندوق كازوزة رصت الزجاجات فى أعلاه ووضعت الواح الثلج فى باطنه ، وعلى الرصيف بجوار صندوق الثلج استقر صالون الحلاقة مفترشا الأرض ، وقد جلس صاحبه الأسطى « عيد » مزين « درب عجور » النقالى .

والقى « شوشة » التحية على الجمع المحتشد أمام الحانوت :

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وتعالت التحيات المتناثرة من هنا وهناك :

— أهلا وسهلا .

— ازيك يا معلم شوو شه .

— فينك من زمان ! ؟

وبعد أن أجاب « شوو شه » و « سيد » بما تيسر من الردود قال « شوو شه » للمعلم شيحة :

— وحياتك تدينى حته جبنه حلوم بقرش .

وعقب « سيد » على قول أبيه :

— واتوصى . . دى لخالتك أم آمنه .

— واحنا لنا بركه إلا هى .

وتسلم « شوو شه » الجبنة فسلمها لسيد ، وسار الاثنان متجهين إلى البيت .

ماسورة معدنية موضوعة فى اعلاه وموصلة بين خارجه وداخله ،
يضع الشارب فمه عليها ويشفط فتندفع المياه فى فمه .

وثانى تلك المفريات شجرة التوت الضخمة القائمة بجوار السبيل
والمادة فروعها لا لتظلل السبيل وحده بل لتظلل الدرب بأجمعه .

والدرب لا يزيد على بضعة بيوت على اليمين واليسار وبيت فى
المواجهة يستقر أمامه السبيل والشجرة ، وسكان الدرب هم أنفسهم
أصحاب الحوانيت الكائنة فى خارج الدرب . مثل « الخشت الجزار » ،
و « زين الخضرى » ، و « شيجة البقال » ، و « عيد المزين » ، و « أحمد
الفكهانى » ، يزيد عليهم بضعة سكان آخرين من أصحاب الصنعة مثل
« محمود مسطرين » البناء ، و « على الحمى » المبيض ، وحسين
القرداتى ، وهم كلهم تلمهم أوامر الجيرة فتجعلهم أشبه بأسرة واحدة
يجمعها فى السكن درب القط ، وفى المائل مطعم الأبرأ أو « مهسط
زمر » ، وفى التسلية مقهى « قدورة » الكائن فى شارع البغالة .

وبيوت الدرب عتيقة رثة حطت عليها كف البلى والقدم ، فهى
مشقة الجدر مفتحة البياض ، يخال الناظر إليها أنها توشك أن تنقضى ،
والدرب لا يخلو من مظاهر القذارة والفقر التى اتسعت بها غيره من
الدروب فى تلك الأحياء الوطنية ، وإن كان يميزه عنها تلك الشجرة
والسبيل المستقران فى نهايته واللذان يخلعان عليه شيئا من الرونق
يمحو إلى حد ما أثر عروق الملوخية المتناثرة أمام إحدى دوره وبقايا
تصفية الطماطم من قشر وبذر وفضلات طعام وقشر بصل أمام الأخرى .

بوجه عام كان « درب القط » له رونقه الخاص لا سيما فى نفوس
« سيد » وأصحابه ، أما بيت « سيد » فهو لا يختلف كثيرا عن بقية بيوت
الدرب . . وكان يتكون من طابقين : الطابق الأول من الحجارة ، والثانى
من خشب البغدادلى الظاهر فى بعض نواحي الجدران فى المناطق
التي تساقط بياضها ، وباب البيت خشبى غليظ بنصنه الأعلى تضبان

الفصل الثالث

معركة فى درب القط

لنتتبع الرجل وابنه وهما فى طريقهما إلى البيت ولنتوقف برهة فى الدرب ولنتقم خلال ربوعه بجولة قصيرة . يقع البيت فى « درب القط » وهو درب صغير متفرع من « درب عجور » الرئيسى الكائن به « مسقط زمزم » و « جزارة الخشت » ، ومحل « زكى زين الخضرى » ، وصف من الحوانيت ينتهى ببقالة « شيحة » الواقعة على كلا الدريين « درب عجور » و « درب القط » . . وإن كان بابها الكائن على الدرب الأخير لا يفتح أبدا .

و « درب القط » درب ضيق يكاد السائر فيه يلمس أجانبه لو مد ذراعيه بحذاء كتفيه ، وهو غير مرصوف ، أرضه طينية محكوكة مرطوبة ، مسدودة الواجهة لا منفذ به ، فهو والأمر كذلك غير مطروق إلا لساكنيه أو للباة المتجولين الذين يدخلونه فيطلقون نداء أو ندائين مثل « حبشى يا ملوخيه » أو « لا تين ولا غنب زيك يا خسانى يا أمهات » ثم ينصرفون عنه إذا لم ينادهم أحد .

وهو أشبه بفناء خاص منه بطريق عام ، ويعتبر ملعبا لأهل الحى من الصبية ، فهو مأمون من العربات ، بعيد عن المارة ، وبه من المغريات ما يجعله مقصدهم وملجأهم .

وأول هذه المغريات وأهمها السبيل الحجرى الكائن فى الواجهة المسدودة ، وهو عبارة عن خزان من الحجر ذى صنوبر لا يزيد عن

حديدية ورائها ضلفة زجاجية كسرت وسقط عنها زجاجها منذ آمد بعيد ، والباب مفتوح على مصراعيه ، بلا أمل فى غلقه ، فقد تراكمت الأتربة حول أسفله حتى أضحى مدفونا فى الأرض ، ولم يعد يتبين حده السفلى فبدأ كجذع الشجرة نابتا من الأرض ، والباب لا لون له .. والواقع أن البيت كله .. بل الدرب كله لا لون له .. أو هو بلون الأرض إذا كان للأرض لون .

وعلى الباب والجدران كتب الصبية كل ما يخطر بذهنهم من الكتابة من هجاء ومديح وإعلانات وآيات قرآنية وأسماء وأغنيات ، وإن كانت الجمال الغالبة فى كل هذه الكتابات هى « سيد جدع » ، وواضح أن كاتبها لابد أن يكون « سيد » نفسه . وفى أعلى الباب ، وفى الناحية اليمنى منه وضع رقم البيت أو ما كان فيما مضى رقما ، ثم انمحي بفعل حجارة الصبية عند مبارياتهم فى التنشين وإصابة الرقم .

فإذا تجاوزنا الباب وجدنا فناء رحبا يعض الشئ أو رحبا بالنسبة لضيق الدار ، وصادفنا فى مواجهته ، ومن ناحية السلم عجوزا متشددة بالسواد تتربع على حجر مستطيل مطرقة فى وجوم وشروود ، وقد انكأت بخدها المجدع على راحة كفها اليسرى ومطبقة بمرفتها على ركبته وأمسكت بيدها عصا من الجريد تحركها يمنة ويسرة بين آونة وأخرى وأمامها فى منتصفه الفناء أوزتان تنقران بمنقارهما هنا وهناك ، وفى حديد الدرابزين ربطت « ماعزة » تطلق صيححتها الممدودة بين آونة وأخرى فتبدد سكون الفناء .

وسمعت العجوز وقع الأقدام وقرقرة العجل على الأرض ، فرفعت رأسها ، ثم حولته نحو الباب ، ولكن عينيها لم تثبتا على شئ بل أخذتا تترجرجان فى مثلتيها .
كانت العجوز ضريرة .

ومع ذلك فلم تكن تخطئ قط وقع أقدام رجليها ، كبيرهما وصغيرهما ، « شوشة » و « سيد » : زوج ابنتها ، وحفيدها .

ودفع « شوشة » العربية فى جانب الفنان واقترب من العجوز
« أم آمنة » منحيا الاوزتين جانبا وقال بلهجة رقيقة :

— العواف يا ام .. جبت لك الجبنة والبطيخ .

— يعافيك يا ابنى ، إن شاء الله ما اعدمكش . احضر الطبلية ؟ .

سست « أم على » مرات الحاج محمود عامله بصاره وقالت انها حاتبت
لنا طبق . اطلع يا سيد هاته .

— احنا كلنا ، سبقناك عند الحاجه زهزم .

— بالهنا والشفا . وتعبت نفسك ليه بالجبنه والبطيخ ؟ كنت اقضيها

باى حاجه ؟

— دى حاجه بسيطه يا ام آمنه .. تدخلى تاكلى جوّه ؟

— خلينى هنا فى الطراوه .

— هات الطبلية لستك يا سيد .

— وعلى إيه طبلية . ادينى لقمه فيها حته جبنة وشقة بطيخ .

وانبرى « سيد » إلى الداخل وبعد لحظة عاد بالطبلية فوضعها امام

جدته وفى نفس اللحظة سمع وقع اقدام « مبقاب » يقرع أرض السلم

الحجرى هابطا من الدور العلوى ، وما لبث القوم حتى أبصروا « زكية »

نبت « المعلم خشت » تنهادى حاملة « طبق البصارة » قائلة :

— العواف يا جماعه .. الطبق اهه يا خالتى الحاجه .

وأجابت أم آمنة شاكرة :

— كتر خيرك يا اختى . ليه التعب دا كله ، خلوه للعشا بقى .

وتساءلت زكية :

— ليه يا خاله ؟

— عمك شوشه وسيد اتغدو .

— طيب ما ننزل ناكل سوا .. ابويا متغدئ فى الدكان وأخويا فى

الكتاب .. مفيش غيرى اثنا وأمى .. اما أقول لها تنزل تفتح نفس

بعض .

ثم صاحبت تنادى أمها :

— أم .. أم .

وأجابتها « أم على » من أعلى السلم :

— إيه يا زكية ؟

— خالتي أم آمنه حتاكل لوحدها ما تجيبى الفدا وتنزلى ناكل معاها .

— طيب يا بنتى ، نازله حالا . حتى الطبق عندك وتعالى خدى

مقيت الحاجه .

وبعد لحظات كان السباط قد مد فى الفناء وقد التف حول الطبلية :

أم آمنه ، وأم على ، وزكية .

وكان الثلاثة حول الطبلية يمثلن الطليبة المصرية الأصلية والكرم

الطبيعى غير المفتعل ، كرم الفقير وجود بالقلة حتى يصير معدما .

كانت « أم على » زوجة « المعلم خشت » وابنتها « زكية » يعتبران

نفسيهما مسئولتين عن راحة « أم آمنه » .. كأنها أمهما . والواقع

أن العجوز الطيبة كانت تبدو وكأنها أم لكل من فى الدار ، بل كل من فى

الدرب ، فما سمعها أحد ذات مرة تغتاب إنسانا أو تعيب فى جار

أو جارة ، وما خرجت من فيها إلا الدعوة الصالحة ، أما دعوة السوء

فكانت تستبدل بها دائما قبل أن تغادر شفتيها « الله يسامحه » وكان

قلبها يعفو قبل أن تعفو شفتاها .

كانت العجوز حلوة الخديث ، لطيفة المعشر ، سديدة الراى ، مخلصه

النصح ، شديدة القناعة ، كانت تشعر بأن عماها عبء على من حولها

وهى التى تعودت دائما أن تحمل عبء الجميع ، ولذلك لم تكن تحاول

أن تطلب شيئا حتى لا تزيد من عبئها ، بل كانت تحاول أن تقوم بأقصى

ما تستطيع به من خدمات لمن حولها .

كان « سيد » أشد الناس حبا لها ، كما كانت هى تفضيه بأكبر قدر

من عطف قلبها الكبير ، وحب نفسها المعطوفة الحنون .

كانت هى لا تقتا نقدم إليه كوب اللبن الذى تحلبه من الماعزة ، وكان هو لا يفتأ يجمع لها قشر البطيخ من الدور الجاورة لتخرطه لأوزنيها ، وفى كل ليلة قبل أن يذهب للنوم ليرقد بين أحضانها .. كان يجلس بجوارها مصفيا لأقاصيصها الممتعة التى لا ينضب لها معين .

وكان كثيرا ما يحلو للصبي أن يقارن بينها وبين « الحاجة زمزم » .. بين النقيضين العجبيين . ويسائل نفسه : كيف يكون خالق الاثنين ربا واحدا ؟ كيف يكون صانع هذه الكتلة من الخبث والشر والاثنية والحق . هو نفسه خالق هذا الجدول المنعم بالطيبة والوفاء والتضحية وانكار الذات ؟

وما مائدة حج بيت الله لمثل الحاجة زمزم ؟ .. وإيهما أفضل : زمزم مع سبعين حجة أم أم آمنة بلا حجة واحدة ؟

وانتهى الثلاثة من الغداء وكان « شوشة » قد توشأ وصلى وتهدد على فراشه فى إحدى حجرات الدار الثلاث .

ورفعت « زكية » الطبلية ، وضعت بقايا الاكل ، امام الماعز والأوزتين .

وارتفع صوت « سيد » من الداخل متسائلا :

— يام .. انت شيلتى كيس البلى من تحت المخده ؟

وأجابه صوت أم آمنة .

— شوفه عندك تحت المرتبه يمكن اكون حظيته بعد ما نفضت

المخدات .

وعاد الصوت يجيب ضاحكا :

— أهوه .. لقيته .. خضتىنى يا شيخه .. افكرته ضاع بكنته

حاتبتى حكايه ، وأنا ناوى النهارده الشولهم كلمهم .

— أنا جببتلك نيكل يعجبك قوى من محمد بتاع الروبابيكيا .

— هوا نين ؟

واقبل « سيد » يعدو فى لهفة مكررا :

— فین هوا ؟

— أهو .. إيه رايك بقى ؟

— يا سلام يام ! مدهش .. انت لازم كان أصلك زمان لعبسة

بلى .

وجلست النساء الثلاث فى الفناء تتجاذبن الحديث والأقاصيص .

واستلقى « شوشة » فى فراشه فى الحجرة المعتمة محدقا فى

السقف ذى العروق الخشبية الهابطة من المنتصف تحت ثقل السقف

والإعياء من مر الزمن . وأخذ ينقل بصره بين العروق الخشبية والجدران

الحجرية المشققة ، وقد شرد ذهنه فى حساب القرب التى وزعها ..

خمس وأربعون فى السراية . اثنتا عشرة عند أم عبد الله .. خمس عشرة

فى بيت الحكيم .. وعشر فى بيت السبكنى .. وثلاثون فى المطعم ..

و .. و .. وأغمض عينيه وراح فى إغفاءة .

وفى الوقت نفسه كان « سيد » قد أخرج البلى من تحت المرتبة

وفرشه فوقها وجلس يحصيه واحدة واحدة .. لقد كسب فى أسبوع

ما يقرب من مائتى بلية .. كان كل ما يملك عشر بليات ، والآن قد

أضحى معه ما يزيد على الثلاثمائة .. واليوم إن شاء الله سيزيدهم

إلى أربعمائة .. فهذا النيكل الذى احضرته له « أم آمنة » من بائع

الروبايكيا سيقتش جيدا .. ستكون اليوم معركة كبرى ، ولكن الخوف

من الا يقبلوا هذا النيكل . على أى حال لديه نيكل آخر أصغر منه ..

اين هو ؟ لقد وضعه فى الكيس .

وصاح « سيد » مناديا بأعلى صوت :

— أم .

وأجابته أم آمنة مهدئة :

— وطى صوتك يا سيد لحسن أبوك زمانه نام .

واقبل عليها « سيد » يسألها بصوت منخفض :

- فين النيكل القديم ؟
 — وعايظه ليه القديم ؟
 — يمكن ما يرضوش اللعب بده .
 — ليه ؟ ماله ؟
 — كبير قوى .
 — القديم خذه الراجل .
 — يا نهار اسود .. وايه العمل ؟
 — ولا اسود ولا ابيض ، استنى لبكره وانا اجيبهولك منه ..
 أهو بيفوت كل يوم .
 — استنى لبكره .. انتى مجنونه ؟ اللعب النهارده .. الساعه
 اربعه .. انتى فاكراها إيه ؟
 — وانا ايش عرفنى ان اللعب النهارده .. وانهم مش حايرضوا
 بده ؟ انت مش قتللى انك نفسك فى نيكل كبير ؟
 — آه .. لكن ما هو الخوف لا ما يرضوش بيه ..
 — يمكن يرضوا .. على العموم خش دور فى صندوق الكراكيب
 اللى جنب القرب القديمه والسطايح يمكن تلاقى نيكل والا بنوره .
 وعدا « سيد » إلى صندوق الكراكيب والذى جبيع فيه « شوشة »
 القرب القديمه وبعض انتقاض وأشياء لا نفع لها .
 وبعد برهة انطلق « سيد » من الحجرة المتربة المظلمة وهو يصيح
 فرحا :
- لقيتها .. بنوره مدهشه .. فاكركه ؟ مش كنت قلت لك من
 شهرين كذا ان بنوره ضاعت منى .. أهى هى دى .
 — الحمد لله .. هدى بالك ؟
 — انا خارج بقى .
 — يابنى اتعد استريح .. استهدى شويه ، دا العفريت بيتيلوا ..
 — وانا عفريت ؟

— العن .. اتعد الدنيا حر .. لما الشمس تهدا شويه .. دا المثل
قال اتغدوا واتهدوا .

— أيوه اتعدى طول النهار انتى قولى لنا فى أمثال .. فيه حاجه
اسمها اتفدى واتهدى .

وانطلق « سيد » من باب الدار إلى السبيل والتوته .

وكان أول ما فعله هو أن مد فمه على البوز المعدنى وأخذ يشفط حتى
اندفع الماء فى فمه فأخذ يتسلى بالشرب . وتلفت حوله علّه يجد أحد
الصبية من الصحاب قد أتى .. فلما لم يجد أحدا بدأ يتسلى بتسلى
التوته ، وفيما هو يجلس على أحد فروعها لمح « ددق الحمى » ابن
المعلم « على الحمى المبيض » وهو يحمل طبقا من العسل والطحينة
ويتجه إلى بيته ، فاطلق صغيرا طويلا بوضع مسابتيه فوق لسانه المثنى
داخل فمه .

وعرف ددق الصغير فتوقف والتفت تجاه السبيل ولما لم يجد أحدا
هم بمتابعة السير ولكن سيدا صاح به ضاحكا :

— أنا هنا يا ترل .. فوق الشجرة .. رايح فين ؟

— حاودى العسل والطحينة البيت .

— طيب وديهم وتعالى قوام وما تنساش البلى بتاعك .

— حمامه .

ولم يكذب « ددق » فى قوله « حمامة » فما نظن الحمامة كانت
تستطيع التخلص من طبق العسل والطحينة والعودة إلى « سيد بمثل
هذه السرعة .

وكان أول ما فعل سيد هو أن أبرز النيكل الجديد فاذنبا إياه فى
الهواء بإعجاب متناه ثم تلقفه بحركة ماهرة قائلا :

— شفت ده ؟

— إيه ده ؟ .. حاتلعب بيه ؟

— أيوه .

— ليه ؟ هيه فته ؟

— ماله ؟ ملمبش بيه ليه ؟

— ابتى العب بيه لوحك .. ده نيكل .. والا جله حديد ؟ !
لا يا عم يفتح الله .. أنا مروح أودى البلى بتاعى أنا مش مستغنى عن
نفسى .

— اتعد ما تبقاش مره .

— لا يا عم .. اذا جت لحد النيكل بتاعك .. أنا مره وابن مره
كما .. اوعى خلينى أروح .

— طيب اتعد بس خلينا نتكلم .. هى الدنيا طارت .. بلاش النيكل
اللى مخوفك ده .. إيه رأيك فى البنوره دى ؟ تنفع والا لا ؟
— أيوه كده .. معقول .

— طيب وإذا لعبنا شركا ينفع النيكل والا ينفعشى ؟

— ينفع أوى .

— طيب لما أطلعه قدام زكى وحريشه وعبد الله وبيت الولاد ..
ابقى اسكت انت .. واحنا نلعب شركا .. بس اسمع اما اقول لك ...
وقطع عليهما حديثهما صفير صادر من ناحية الدرب ، ثم صوت
رغيح حاد يصيح قائلا بلهجة طويلة منغمة :

— سيد يا ويكا .

وانطلق صفير « سيد » مجاوبا الصفير وعلا صوته مجاوبا النداء
صائحا :

— حريشه يا ويكا .

وأقبل « حريشة » يعدو ويقفز من أول الدرب حتى وصل إلى
السبيل فجلس على الحجر الذى افترشه زميلاه . وكان أول ما قاله
« سيد » هو سؤاله :

— فين زكى أمال ؟

— فى الدكان .

- ليه ؟ .
- المعلم سلامه ما رضيش يسيبه .
- وانت جيت ازاي ؟
- قاللى روح هات بقرش كرات فخذت بعضى وثنى جاى على هنا .
- والكرات ؟ .
- بعد اللعب يحلها ربنا .. امال فمين الباقى .. فمين عبد الله المعيرجى وعلى الخشت ؟
- زمانهم جابين .. لسه مخرجوش من الكتاب .. شفت النيكل ده ؟
- وقذف النيكل فى الهواء ، وصاح حريشة مستكرا :
- يا خبرك اسود .. ده نيكل ده ؟ . دا لو شافه المعلم سلامه يدق بيه الطعميه .
- يعنى ما ينفعش ؟
- ينفع والا ما ينفعش ، انا مالى يا عم .. انا معايش ولا بليه .
- امال جى تنيله ايه ؟
- انا مش قلت لك الصبح .. قلت حا اسلفك .
- وتردهم امتى ؟
- اما ربنا يعطينا .
- وامتى ربنا حا يعطيك ؟
- اسأله .. اهو قدامك . .
- اسأله انت .
- وانا مالى .. هوا انا اللى حاخذ البلى ؟ .. اللى حايبعتوا —
- إذا بيعت — ابقى خده .
- طيب بلاش غلبه .. خد .. ادى خمسه .. عشره .. خمستاشر ..
- عشرين .. كفاياك كده ؟
- هات كفا عشره .

— وادى كمان عشره .. إيه رايك بقى ؟ ! تخلىنى اللعب بالنيكل ده ؟
— ليه ؟ مجنون ؟ اضيع البلى بتاعى ؟ شوف لك نيكل غير
والا أروح .

— أما ضلالى .. احنا مش اتفقنا ان انا اسلفك واللعب بالنيكل
اللى يعجبنى ؟

— ما اتفقناش ولا حاجه .

— تنفع البنوره دى ؟

— أهى تمشى .. ياللا بينا .

— استنى شويه أما ييجى الباقى .. وهوا دا بيتى لعب ده ..
لما اكسب التلاتين بليه اللى انا مديهم لك ، والتلاتين بليه اللى حيلة
الواد دقدق ، استنى لما ييجى الخشت والمعيرجى دول تلاقىهم متريشين .
وحالتهم نجف .

وقبل أن يجيبه حريشة .. ظهر على الخشت ومحمود زين ومحمد
مسطرين ، وقد اتقبلوا من باب الدرب يعدون بالجلاليب والصنادل
والطرابيش ، وقد أمسك كل منهم لوحه الصفيح بيده .. ولم يك
يراهم سيد حتى قفز واثبا وصاح فيهم :

— ياللا يا وله منك له قوام ، احنا مش فاضيين لكم .

ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان زين ومسطرين قد قذفوا بلوحيهما
وطربوشيهما ، وخلصا صندليهما ، واتقبلا يعدوان وكل منهما يشخشيخ
بكوم البلى فى جيب الجلاب .

وهكذا أنظمت عقد الصبية : سيد ، ودقدق ، وحريشة ، ومحمود ،
ومحمد ، ولم يبق سوى على الخشت الذى طالعت غيبته فى الدار ،
وعبد الله المعيرجى الذى لم يبد بعد فى الدرب .

وانطلق « سيد » يستعجل « الخشت » وكان يقطن فى نفس دارهم
فى الطابق الاعلى ، ولم يكذب يبلغ الفناء ، حتى سمع صوت صياح « على »
وهو يقول فى عناد :

- حاخده .
- إياك .
- والنبي لانا واخده .
- يا واد سيبه . ابوك ما عندوش غيره ويمكن يحتاجه في مشوار كده والا كده .
- ده مقطوع .. ومهر يد .
- اديني قولتك سيبه ، وخلص .. اما اشوف حاتسمع الكلام والا لا .. حاكم انت ما تجيش بالذوق أبدا .
- ايه هوا ده .. هوا انتي كل حاجه لا لا .. والله لانا واخده ، واعملى اللى عمليه .
- والنبي لو خدته لانزل أعجك ، اديني قولتك أهو ، امشى انجر .. هوا انت كل يوم لك هليله ؟ ! لازم تفرج علينا الجيران وجيران الجيران ، هوا ما فيش في الحته اولاد غيرك ؟ ياخى جاتك ناييه .
- حاخده .
- برضك بتقول حاخده ؟
- أمال اللعب بايه ؟
- أنت مش اببارح لسه واخذ واحده ؟
- عملتها وضاعت .
- وعلى كده لازم لك كل يوم فردة ، تعملها وتضيمها .
- ووقف « سيد » يستمع إلى المناقشة ، وقد ضاق صدره ، وأخيرا جذب « على » من يده وصاح به :
- ياللا يا أخى بلاش تضيع وقت .
- اسكت انت ، لازم آخدها .
- ايه هيه دى لازم تاخدها ؟

— بقول لها حاخذ فردة شراب من بتوع أبويه ، عشان أعمل كوره شراب ، مسخسراها قيه .

— يا أخى مش وقته ، احنا مش حانلعب كوره النهارده حانلعب بلى .

— لا .. انا حانلعب كوره .

— يا على يا خويه ، ما تبقاش زى الشريك المخالف .. احنا كلنا حانلعب بلى .

— انا حانلعب كوره .

— وحدك ؟

— وحدى .

— ما تبقاش تلم ، خلى لعب الكوره لبكره ، ما جبكش النهارده .

ولم يجبه الخشت ، بل عاد يصيح بآله :

— اهدفى الشراب يا ام .

وأجابت آله ، وقد نفد صبرها :

— يا واد اسكت بقى وجعت دماغى ، امشى بالنى هى أحسن .

امشى لآحسن أنزل أنصصك ، اصحى لو مسكتك مش حاتمستك عافيه .

— اهدفى الشراب يا ام .

وهنا سمع وقع أقدام « ام على » تهبط منقضة .. وكانت « ام

آمنة » تدجلست فى الفناء تنصت إلى المعركة .. وشمت من وقع أقدام

« ام على » بآادر خطر ، فلم تجد بدا من التدخل فصاحت بعلى :

— تعالى ياخويا خذ فردة شراب عندى آهى .

ثم نزعته من إحدى ساقىها فردة شراب .. كانت تقيها الروماتزم ،

وقالت لآم على :

— مذهبى لزوم يا ام على .. اتصرى الشر ، كلهم كده دماغهم

نأشفه .

وأخذ « على » فردة الشراب وانطلق يعبو من البيت هاربا .

ووصل الاثنان « على » و « سيد » إلى السبيل حيث بقية الثلاثة .
وصاح على :

— عايزين شوية شراميطة نحشى بيها الشراب .
وصاح « سيد » وقد نفذ صبره :

— يا على يا خويه مافيش لزوم النهارده للكوره دى !
— يا أخى انت مالك ومالى .. إذا كنت عايز تلعب بلى اللعب وحدك ..
انا حالعب كوره .. من فيكو يحب يلعب كوره معايا ؟
وانقسم الجمع قسمين : دقدق وحريشة فى جانب سيد ، ومسطرين
وزين فى جانب الخشت .

وزاد حنق سيد فقد وجد أن الجانب السمين الذى به كل الفائدة
فى لعب البلى قد انحاز إلى على ، وأنه لو استمر فى عناده فلن يكون هناك
فائدة فى اللعب ، وأن أقصى ما يمكن أن يريجه هو الثلاثون بلية التى
يملكها دقدق الغلبان .

ووجد أن اللين والرفق أجدى عليه ، فقال لعلى فى رقة ظاهرة :
— يا سيدى ما تزعلش بدل ما نقسم البلد نصين نمشى رايك ورأى
.. نلعب كلنا كوره سوى وبعد ما نخلص من الكوره نلعب كلنا بلى .
— أبوه كده .. مستعد .. يا الله نعمل الكوره .
— اصبر شويه وأنا أجيبك شويه شراميطة .

وانطلق يعدو إلى البيت فوجد أباه قد ارتدى جلبابه النظيف وهم
بالخروج لقضاء بعض المصالح والجلوس على مقهى قدوره .
ولحه أبوه وهو يحمل بعض الخرق فصاح به :
— على فين ؟ . حاتعمل آيه بدول ؟
— حاعمل كوره شراب .

ثم انطلق إلى السبيل .
وكان « سيد » ماهرًا فى كل شيء .. ويدخل ضمن نطاق مهارته
.. صنع الكور الشراب .

ودفع الخرق فى قاع الجورب ودكها جيدا ثم ربط الجورب. وقلبه حولها وأخذ يقرعها فى حجر السبيل حتى تزداد صلابة ونكا. وعاد يربط الجورب مرة أخرى ويقلبه. واستمر يضرب ويربط ويقلب حتى انتهى من عمل كرة كبيرة مستديرة صلبة ولم يبق سوى تخطيط حافة الجورب من أجنباه .

وتطوع « نددق » بسرقة إبرة وخيط ، وانتهت العملية وبدأ الاستعداد للعب .

وصاح « سيد » متسائلا :

— حا تلعبوا بالرجل والا بالايدي ؟

وصاحت الأصوات .. بردود متناقضة « بالرجل » .. « بالايدي » ، « بالرجل » ، « بالايدي » .

ولكن « سيد » كان ينتظر القول الفصل من صاحب القول الفصل وهو « على الخشت » .. فقد صمم على احترامه ومداراته حتى يزج به فى لعب البلى ويربح منه ما تيسر ربحه .

وقال « على الخشت » فى ثقة واعتداد :

— بالايدي .

— يالله نقسمها .

وصاح نددق :

— « سيد » تصاد على .

ولكن « سيد » لم يكن يود أن يدخل فى خصومة مع « على » قبل البدء فى لعب البلى ، ولذا فقد فضل أن يكون فى جانبه رغم رغبته الدائمة فى تحديه .

وقبل « على » التحدى وقال :

— نط تصادى .

ولكن « سيد » قال متخابئا :

— لا يا عم .. شوف واحد قدك ينط تصادك .

وسر « على » من هذا التراجع ، وصاح متفاخرا متحديا :

— ما فيش فيكو جدع ينط تصادى ؟

وقفز « ددقدق » أمام « الخشت » صائحا :

— ليه جعيص ؟ . انا تصادك .

ووقف كل منهما تجاه الآخر ثم أخذا يقتربان ببطء وقد وضع كل منهما قدمه أمام الأخرى ، وظلا يقتربان بالتناوب ، ولصق كعب قدمه فى أصابع الأخرى ، وظلا يقتربان حتى انتهت المسافة بينهما ، وكان « ددقدق » آخر من وضع قدمه فصاح :

— انا حاختر .

— اختر .

— اخترت سيد .

قالها بفوز وظفر ، ولكن « سيد » وجد أنه سيمصبح بهذا الاختيار
الغبي خصما لعلى ، وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

فصاح بددقدق ناهرا :

— شوف لك واحد تاتى .. بلاش مرازيه .

وفوجئ بددقدق برفض سيد زمالته فصاح به فى غضب :

— عنك ما جيت .. يعنى القليعه .. اخترت زين .

وصاح على :

— اخترت سيد .

وابنسم « سيد » مرحبا :

وصاح ددقدق :

— اخترت حريشه .

— اخترت مسطرين .

ولم تكد التقسيمة تنتهى حتى سمع فى أول الدرب صفير طويل ،
وبعد لحظة ظهر عبد الله المعيرجى يعدو بأقصى سرعة ، وهو يصيح
باللهجة ذات اللحن والنغم :

— سيد يا ويكا .. حريشه يا ويكا .. خشت يا ويكا .. الخ .
وبعد لحظة كان يقف بينهم لاهنا ، وهو يهز البلى فى جيبه قائلا :
— مين يلعب ؟
وقال له سيد :

— احنا حانلعب كوره شويه وبعدين نلعب بلى .

— زى بعضه .. اللعب معاكم .

— بس مالکش محل .. عشان احنا قسمنها ثلاثه قصاد ثلاثه .

— لكن انا لازم اللعب .

— شوف لك زميل .

— واجيبه منين ؟

وضاق صدر « سيد » فصاح به :

— ياتشوف لك زميل يا تتنيل تقعد لغاية ما نخلص .

— اتنيل انت .

واو كان « سيد » فى غير هذه الظروف لما تردد فى ضربه ، ولكنه

كان يريد ان ينتهى لعب الكرة على اية حال حتى يبدأ لعب البلى ،

ولذا فقد كظم غيظه وقال له فى رفق :

— الله يسامحك ، خش اللعب بدالى ، انا مش حالعب .

وتأثر « عبد الله » برد « سيد » فقال له :

— ما ترعلش يا سيد . اللعب انت .. انا حاستنى .

— لا والله لانت اللى لاعب .

— مش ممكن .. انا حاتمعد اتفرج .

وبدا اللعب بعد ان انتقوا قطعة حجر صغيرة وضعوها على جانبها

لتكون « ميس » وكان « تيم » سيد وعلى هو « التيم » الذى سيقف

بجوار الميس وليبدأ اللعب .

وامسك على الكرة وصاح : « اول سنو » ثم رفع الكرة بيده

اليسرى الى أعلى وضرب إلى الامام باليمين .

وكانت الضربة عالية فتلقفها « حريشة » قبل أن تسقط إلى الأرض
وصاح : ههلا !
— انزل .

ونظر « سيد » إليه فى غيظ ، ثم قال لعلى مؤنبا :
— ما كائن حقا تضربها علىوى كده .
ونزل « تيم » سيد ليتلقف الكرة ووقف « تيم » حريشة بجوار الميس ،
ثم بدأ حريشة الضرب صائحا :
— اول سنو .

واندفعت الكرة متحرجة على الأرض حتى لا تعطى « التيم »
الآخر فرصة لتلقفها ، وأمسك على بالكرة يصوبها نحو الميس ولكنها
أخطاته ممرت بجوار الحجر دون أن تصيبه .
واستمر « تيم » حريشة فى اللعب : تانيه سنو .. تالته سنو ..
اول شككا .. تانيه شككا .. تالته شككا .

كل ذلك و « على » يستولى على الكرة ، يدفعها كل مرة نحو
« الميس » فتخطئه حتى بلغ « التيم » اول حقو .. ثم اول ودنو ..
واول كحكو .. وهنا لم يطق « سيد » صبرا فقد كادت القلبة تتم وثال
لعلى له رفق :

— ادينى الكوره اضربها المره دى .
واعطاه « على » الكرة ، ولم يحاول « سيد » أن يخرجها بتان حتى
يضمن الاصابة ، بل أمسك بها ، ثم قذفها بعنف قذفة عالية جعلت الكرة
تهبط على الميس باصابة مباشرة أطارته من موضعه .
وهكذا قلب انتصار « تيم » حريشة إلى هزيمة ، واحتل « تيم »
سيد مرة أخرى « الميس » .

وبدا « سيد » اللعب بسرعة ، ونى بضع دقائق كان قد وصل
إلى « كحكو » ، وانتهى الدور بنصر تام .
وصاح سيد :

— بالله بينا على البلى . ارسم الترنجيلة يا حريشه .
وأسرع « حريشة » بقطعة حجر ، فخط بها « الترنجيلة » فى
الأرض راسما مثلثا متساوى الأضلاع .. وعلى بعد بضعة خطوات
منه رسم « اللين » أى الخط الذى يبدعون منه اللعب .
ووقف الجميع حول « الترنجيلة » وصاح سيد :
— تلعبوا كام ؟
وأحاه على الخشت :
— خمسة .. خمسة .
— وجب .. خمسة خمسة .
وأخرج خمس بليات من الكيس فوضعها داخل « الترنجيلة » ،
وحذا الباتى حذوه فامتلا المثلث بالبلى . ثم بدعوا يقذف كل منهم النيكل ،
وهو واقف بجوار « الترنجيلة » فى اتجاه « اللين » ليروا من منهم
اقرب إلى « اللين » حتى يكون البادىء باللعب .
وعندما حل دور « سيد » قذف النيكل الكبير ببساطة فى اتجاه
« اللين » ونظر خلسة إلى زملائه ليرى تأثيره عليهم ، ولكنه لم يكن
فى حاجة إلى هذه النظرة فقد صاح « على » نائرا :
— إيه ده ؟ حاتلعب بييه ؟ .. ليه ؟ .. كروديات ؟ .. شسيل
النيكل ده .
وبهدوء أجاب سيد :
— طيب ما تزعلش .. حاشيله ، حتك على .. حالعب بالبنوره ،
مبسوط يا عم ؟
ثم اتجه إلى اللين فتناول النيكل وقذف البنورة بدله .
وكان « حريشة » أقربهم إلى اللين فوقف بجواره وبدأ التصويب
إلى « الترنجيلة » ، ولكن النيكل مر بجوار حافتها دون أن يصيب شيئا
من البلى .

وتلاه على الخشت ، ثم زين ومسطرين . وحل الدور على « سيد » .
وقبل أن يقذف بالبنورة صاح فى ثقة واعتداد :

— عليك وعلى البلى .

وانبرى له « على » معترضا :

— ما بينا من قتل .

— كله لك ، وكله ليه .

— ما قولتش م الأول ليه ؟

— ادينى يقول لك اهو .

— لا ياعم .. ما بينا من قتل .

وتدخل « حريشة » قائلا فى ضجر .

— يا أخى سييه .. يعنى نشانجى القلعه ، حايقنتك وهو على

اللين ؟

واقتنع « على » فقال لسيد فى سخرية :

— طب لعب يا روح امك .. اما نشوف شطارتك ، الظاهر انك

مستغنى عن بنورتك ، إن شاء الله حادثشها لك ، عليك وعلى البلى

آل !! طب اللعب أما نشوف .

ويبدو أن من الخير قبل أن نستمر فى وصف المباراة أن نوضح للقارئ

(الذى قد بعد العهد بينه وبين لعب البلى أو قد يكون أرسقراطيا لم

يلعبه أصلا) بعض التعبيرات التى قد تستعصى على فهمه .

فـ « القتل » معناه أن يصوب اللاعب نيكله أو بنورته إلى بنورة الآخر

فإذا أصابته أخرج من اللعب خاسرا نصيبه من البلى ، و « كله لك

وكله ليه » معناه أن اللاعب مفتوح للاعب أن يلعب كيفما شاء ، و « نوكله

ليك ونوكله ليه » معناه اللعب مقيد .

وامسك « سيد » بالبنورة فى يده وفتح فيها وصمت لحظة بدا

خلالها كأنها يقرأ الفاتحة ، ثم أغمض إحدى عينيه وقذف بنورته بتؤدة

غصارت فى الجو فى خط مقوس ثم هبطت مستقرة بالضبط فوق نيكل
« على الخشت » ، دون غيره من بقع الأرض الفسيحة المتسعة .

وسادت الدهشة الصبية ، ووقف « سيد » وقد علت شفثيه
ابتسامة كبرياء استقرت فى جانب شفثيه ، وبعد فترة صمت قصيرة
ترك للزملاء خلالها فرصة الدهش والوجوم والتمعن صاح بأعلى
صوته :

— حلو . . كده النشان . . شيل النيكل بتاعك ياروح امك .

وفى صمت انحنى « على » فأخذ نيكله وانسحب وهو يضغط على
أسنانه من الغيظ وصاح فى استهتار :

— سعلش يا زهر .

— واجابه سيد :

— والا عليه .

وكان على « سيد » ان يتم لعبه وان يظل يلعب حتى يخطئ فيتبعه
لاعب آخر ، فأمسك بالبنورة وقذفها بتؤدة داخل « الترنجيلة » فأخرجت
خمس بليات ، ثم عاد وقذفها مرة أخرى فأخرجت ستة ، وظل يقذفها
المرّة بعد المرّة حتى أفرغها عن آخرها ، ثم قال متسائلا :

— تلعبوا كام ؟

وصاح « على الخشت » مندفعاً :

— عشرة عشرة .

— عشرة عشرة ؟ وجب .

ولم يعترض أحد وأخذ كل منهم يضع بلياته العشر فى الترنجيلة .

وتكررت العملية ، وكان « على » هو الذى سيلعب أولاً فى هذه

المرّة ، فوقف يقلد سيداً قائلاً :

— عليك وعلى البلى .

وصاح به حريشة :

— يا أخى العب أنت على البلى كهايه .

وقذف « على » النيكل فاصطدم بالأرض . ثم ظل يتدحرج حتى
استقر داخل الترنجيلة .

وهلل « سيد » مصفقا بيديه صائحا :

— اطلع بره يا روح ستك ، بقول لك غشيم ومتعافى .

وصاح « على » حائقا :

— تكس ليه .

— نو تكس ليك .

— لا تكس ليه .

— يعنى إيه تكس ليك ؟ هوا فيه تكس وانت جوا الترنجيلة ..

شيل النيكل بتاعك وبلاش غلبه .

— مانيش شایل النيكل ، بلاش غلبه انت .

— شيل بقول لك أحسن لك .

— مانيش شایل .. اما اشوف حاتعمل ايه ؟

— حاتعمل ايه ؟ طب خد .

وهجم « سيد » على الترنجيلة فامسك بنيكل « على » .. ثم

تذف به بأقصى قوته وصاح بعلى :

— روح بقى دور عليه .

وانطلق « على » يعدو لا ليبحت عن النيكل ، بل ليهجم على

الترنجيلة فيأخذ كل ما بها من بلى ، ثم يعدو فارا به .

ولكن قبل أن ينطلق « على » بالبلى وهو فى قبضة يديه ، اندفع

« سيد » ماذا قدمه .. فاعترض بها طريق الآخر .. محاولا « شنكلته » .

وانلحت الشنكله ، وهوى « على » مندفعاً إلى الأرض ، فarda

ذراعيه ، وتبعثرت البليات ، وانطلق صراخ « على » من جراء الصدمة

يدوى فى الدرب ، وما لبث حتى نهض متحاملا على نفسه متأهبا للدخول

فى معركة مع « سيد » .

وعلت قهقهة الصبية عند وقوع « على » ، ووقفوا يمنون أنفسهم

بمعركة وشيكة الوقوع .. ووقف « سيد » متحفزا منتظرا ما ينوي « على » فعله رداً على المقلب الذى أعطاه إياه .

وهجم « على » والسباب يتطاير من فمه ، ودفع بقبضة يمينه فى وجه « سيد » فأصابت أنفه .. وأحس من الإصابة بألم شديد ودمعت عيناه ، حتى لم يعد يرى ما أمامه .
وضحك الصبية وهللا ، وصاح زين :
— ادبلو .. كما واحده .

ورجع « على » يده ليحقق طلب « زين » ويعطى له كمان « واحده » ، ولكن قبل أن تصل إلى أنف سيد .. كان سيد قد هبط برأسه إلى أسفل متجنباً الخربة ، وفى نفس الوقت مد ساقه وراء ساقيه ، ثم دفعه بيده فى صدره دفعة شديدة .

كانت حركة بارعة من سيد إذ كان يجيد ضرب المقلب وكان المفروض أن يهوى « على » إلى الأرض فيقفز سيد فوقه ويكيل له الضربات ، ولقد هوى فعلا ، ولكن قبل أن يصل إلى الأرض مد يده بسرعة فتشبث بفتحة جلباب سيد .. فلم يكذب يهوى إلا وجلباب سيد مشتوق نصفين .
وفزع سيد من تمزيق جلبابه ، ومما يمكن أن يقوله له أبوه لو أبصره على تلك الحالة ، والهاه التفكير فى جلبابه الممزق عن متابعة نجاحه ، والارتقاء على خصمه ، وأعطاه بذلك فرصة للنهوض ، ولإعادة الإمساك بخناته .

وزاد حقن « سيد » وثأرت، ثأثرته ، وهو يرى « على » يعاود الهجوم عليه بعد أن مزق جلبابه .. ومد يمينه فأمسك برقبة « على » .. ثم رجع برأسه للخلف قليلا ، وفى لمح البصر دفعها للأمام مصوبا جبينه إلى أنف « على » .. كانت « روسية » محكمة ، صفت لها أيدى الصبية المشاهدين طربا .

ولكن الخصمين لم يصبهما منها أى طرب .. فلما « على » فقد أحس برأسه تلف وبعينيه تغيبان فلم يكن لديه قطعا أى فرصة للطرب .

أما سيد .. والذي كان يجب أن ينتشى بضربة النصر القاضية ففسد
نظر إلى خصمه مذعورا إذ أبصر بالدماء تسيل من أنفه متساقطة على
شفتيه .

ولم يكد « على » يحس بالسائل الساخن فوق شفتيه حتى مد
أصابعه ليتبين ماهيته ثم انطلقت منه صرخة مدوية .. فقد أفرعه منظر
الدماء أكثر مما أفرعه ألم الضربة ، وصاح بأعلى صوته :
— يابن الكلب .. كده عورتى ؟

ووجد الصبية أن الموقف قد تطور ولم يعد يحتل الضحك وأن
عليهم أن يفعلوا شيئا .. فاندفع « حريشة » ممسكا بيد « على »
وصاح :

— تعال عند السبيل لما أطس لك وشك بشوية ميه .

وصاح زين وهو يلحق بهما :

— ما تخافشى يا على .. دى نصده .. أنا أول أبارح اتفصحت
زيها وما جراليش حاجه .

وتطاير من نفس « سيد » كل إحساس بالعداوة وحل محله
شعور بالعطف على خصمه والخوف من أن يكون أصابه مكروه .

ونسى « سيد » جلبابه ، ونسى البلى ، ونسى كل شيء إلا أصابه
« على » وأمسك بيده يدعو به تجاه السبيل .

ولم تكن هناك من وسيلة للحصول على مياه السبيل إلا بالشفط ،
فمد « سيد » فمه إلى الماسورة وأخذ يستدر المياه بفيه ثم يدفع بها
فى وجه « على » حتى أغرقه .

وتدخل « زين » باعتباره مجريا للحالة وقال صائحا :

— اتعد على الحجر وميل راسك لورا .

وعمل « على » بالنصيحة ، ولم يكن يملك إلا أن يعمل بها ، فقد
كان فى حالة من « الخضة » جعلته يطيع كل قول له .

واحاط الصبية بزميلهم الجريح يزودونه بالمياه ويالنصائح حتى انقطع سيل الدم .

وصاح حريشة ضاحكا :

— خلاص يا جماعه ما تخافوش ، دى حاجه بسيطه .. دى عين وصابتنا .. انا طول النهار وعيني بترف .. الحمد لله اللى جت على كده .. خدت الشر وراحت .. روسيه تقوت ولا حد يموت .

وقال زين :

— بس خلاص .. صافيه لبن .. كل واحد يبوس راس التانى ..
ياللا يا جماعه داحنا اخوات .

وتقدم « سيد » باعتباره صاحب آخر اعتداء وأمسك برأس « على » وقبل شعره المبتل وقال فى ندم :

— معلش يا على .. حقك على .

وقام « على » فأمسك برأس « سيد » وقبلها وعيناه مغرورتان بالدموع :

— الحق على أنا يا سيد .. انا اللى غلطان .. معلش آدى راسك .

وهكذا تصافى الصبيان .. وعادت المياه إلى مجاريها . إلا من أمر واحد بقى جاثما على قلب سيد وهو جلبابه الممزق .

كيف يذهب به إلى البيت ؟

وصاح مسطرين :

— ولا يهكم .. الابره اللى خيطنا بيها الكوره آهى موجوده ..
وانا اجيب لك فتله حالا .. حماه .

وبعد لحظات كان « سيد » قد خلع جلبابه وجلس « مسطرين » على حافة الحجر يرتق موضع التمزيق وحوله الصبية يرتقبونه حتى انتهى .

وكانت الشمس قد هبطت وراء الأفق والظلام قد بدأ يتسلل إلى
الدرب ، وقال عبد الله المعيرجى :

— يا الله بينا يا جماعه الدنيا ليلت .

وتجاوبت الردود : « يا الله » .. « يا الله بينا » ..

وقال سيد :

— حد فيكو يحب يتسلى بالقتله وأخنا ماشيين ؟

وسأله حريشة :

— بكام ؟

— الشبر ببليه والقتله باتنين .

— يا الله .

وقذف سيد بنورته صائحا :

— العب .

وأخذ كل منهم يتناوب تصويب نيكله على نيكل الآخر وهم سائرون
حتى دخل كل منهم داره فى الدرب ، ولم يبق سوى حريشة وعبد
الله .. فسار عبد الله إلى بيته فى درب السماكين .. وتذكر حريشة
الكرات فأنطلق يعدو لشرائه وحمله إلى الدكان .

الفصل الرابع

مطروود من الجنة

دخل كل من سيد وعلى إلى البيت وقبل أن يجتازا عتبة الباب همس سيد متسائلا :

— مش حاجيب سيره ؟

وأجاب « على » مطمئنا وهو يرفع كتفيه :

— ولا كان حصل حاجه .

ولكنه استدرك متسائلا في شك :

— ولكن الجلابيه بتاعتك .. حاتقول عليها إيه ؟

— أقول !! . أقول انها اتشبكت في مسمار .. أقول أي حاجه

.. على العموم هي متخيطه كويس ، وما افتسكش حد حاشونها

الليلة دى .. أنا حاخش انام قبل ما ييجى أبويا وبالنهار يبقى يحلها ربنا .

وكان الفناء قد أناره بصيص من ضوء فانوس معلق في بير السلم ، وقد خلا من قاطنة النهار ورفاتها .. الأوتين والمساءزة التي ساقتها « أم آمنة » إلى متور داخل البيت بمساعدة زكية بنت الخشت التي تعودت مساعدتها في قضاء حاجاتها وفي تنظيف الدار ، وكانت العجوز تعتبرها كابنتها .

وفى الفناء افترق الصبيان الصديقان متحابين كأن لم يتعاركا
أو يتضاربا أو يمزق أحدهما ثياب الآخر أو يريق دمه .

صعد على فى السلم وهو يترنم بقوله « يا حليله يا بليله » .
واختفى شبحه الصغير بين لفات الدرج ، واجتاز سيد باب الشقة
المغلق نصف اغلاقه بعد أن دفعه بقدمه وهو يهز كيس البلى ويطوحه
إلى الأمام وللخلف ثم وقف فى قاعة ضيقة مربعة رصنت أرضها ببلاط
معصرانى مشقق مقلتل فى مستوى أرض الفناء .

ولم يكن بالقاعة من الأثاث سوى أريكة منهارة الجوانب ، مبقورة
البطن ، سوداء كالحة ، ومنضدة خشبية وضع عليها مصباح غاز
(نمرة ٥) بدد ضوءه ظلمة القاعة وتسلسل من الأبواب المحيطة بها إلى
الحجرات المنضية إليها . وعلق على الجدران بضع لافتات حوت آيات
قرآنية : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس
والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا
إليه راجعون) و (الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

ووقف « سيد » فى القاعة ، وأرهف سمعه ، وتلفت يمنة ويسرة ،
يستطلع مكان جدته « أم آمنة » . ثم دفع سبابتيه فى فمه وصفر
صغيره الطويل وصاح صيحته الندائية المعتادة :

— أم آمنة .. يا ويكا .

وانتظر أن تجيبه « أم آمنة » لتدله على مكانها ولكنه لم يسمع لها
صوتا .. فأتجه إلى يمينه ودف من الباب فوجد العجوز راكعة على
حصيرة الصلاة وهى تنهى صلاتها متلفتة يمنة ويسرة قائلة فى صوت
خفيض :

— السلام عليكم .. السلام عليكم .

وأجابها « سيد » كان التحية ملقاة إليه :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، انت بتكفرى عن ذنوبك
والا إيه ؟ دى كانت ذنوب إيه دى كلها .. دانت لازم كنت شقيه أوى ؟
ونهضت العجوز متحاملة وهى تطوى الحصيرة .. ولاحت على
شفيتها ابتسامة وهى تجيبه :

— يعنى يا مفزوح مش حاتبطل حكاية يا ويكا دى .. هو انا برضه
اسمى ويكا .. والصفير بالليل .. ما تعرفش انه حرام ويطلع
التعابين ؟

وكانت كلمة « مفزوح » هى اقصى ما يحوى قاموس « أم آمنة »
من الفاظ السباب ، وكانت غالبا ما توجهه إليه عندما يمعن فى المزاح
معيها ، وهى تقصد به التدليل أكثر مما تقصد به السباب .
وأجاب سيد فى رنة أسف مصطنعة :

— انت زعلتى يا ستى .. حقك على .. هاتى إيدك لما أبوسها .
واقترب منها فتناول يدها ولكن العجوز ضمته إليها وانحنى حتى
مسست وجنته بشفتيها وقالت ضاحكة :

— حد يزعل منك يا سيد الرجاله .. عايز تتعشى إيه ؟

— عندك إيه ؟

— عندنا طبق بصاره من خالك أم على ، وعندنا جبنه وبطيخ .

— بصاره عليها تقليه ؟

— أيوه عليها .

— أنا ما حبش التقليه .

— أشل لك التقلية على جنب .

— ولا حبش البصاره كمان .

— طب كل جبنه وبطيخ .

— ما فيش حاجه تانيه ؟

— حاجه تانيه زى إيه .. طبيخ ؟

— لا .

— أعمل لك سخينه ؟ إنده تركيه تولعلى الوابور واقعد اعملها لك ؟ .. والا ابعت أجيب لك منهم شوية دقيق واعمل لك عصيدة ؟
— عايز زيتون .

— طول عمرك زى الشريك المخالف .. أقول لك يمين تقول شمال ، أقول لك أبيض تقول اسود .. خد آدى قرش تعريفه هات بيه اللي أنت عايزه .

ثم مدت يدها على صدرها فأخرجت منديلا صرت به بضعة قروش وفكته وأعطته منه قرشا فتناوله الصبى وانطلق يعدو إلى باب الدرب حتى وصل إلى شريحة البقال فصاح به :

— خذ يا عم شيحه .. هات بتلاته مليم زيتون وبليم كرملة وبليم لب .

وهم شيحه بتعبئة الزيتون عندما صاح به سيد :
— والا أقول لك .. كفايه بنكلة زيتون وهات بليم سودانى وبليم كرملة وبليم لب .

ولم يكد شيحه يمد يده لتعبئة الزيتون فى القرطاس حتى صاح به :
— اسمع يا معلم شيحه .. بكم عود القصب ؟
وأشار بيده إلى لبشة قصب مستندة إلى جانب الحانوت فأجاب شيحه وهو يتنهد فى ضيق :
— بنكله .

— مافيش عود بليم ؟
— فيه .

— طب هات بليم زيتون وعود قصب بليم وبليم لب وبليم سودانى وبليم كرملة .

— مافيش بليم زيتون .
— يعنى إيه مافيش بليم زيتون ؟
— مافيش بليم زيتون .. يعنى ماتباعش بليم زيتون .

— وعلشان إيه ما تبعش بلميم زتون .. ما دام بتبيع بنكله ..
لازم تبيع بلميم ؟ . اتسم نص أبو نكله بيقى بلميم .. ما خدتش حساب
عمره ؟

— يا بنى ما تفلأنيش .. قلت لك ما بيعش بلميم يعنى ما بيعش
بلميم ، عاجبك والا لا ؟

— طب ما تتأمرش كده .. بلاش زتون .. هات مصاصه .

وبدا شiche فى تعبئة القراطيس الصغيرة من اللب والسودانى
والكرملة والمصاصة وبراغيت الست ، ثم ناول سيد عود قصب صغير
ثلاثة أرباعه زعزوعة ، وانطلق سيد يعدو بمشترياته إلى الدار .
وصاح بجذته وهو يتقدم فى الفناء :

— ستى أم آمنه .

وكانت « أم آمنة » تجلس على شلثة على الأرض فى القاعة
الضيقة امام الأريكة المنهارة .

وكانت مستندة بخدها إلى كفتها كعادتها ، وكانت تبدو دائماً كأنها
غريقة فى بحر من التفكير الحزين ، لا يرفعها منه سوى صوت حفيدها
سيد .. فهو وحده القادر على ادخال الطرب إلى نفسها واشاعة
الخبور فى وجهها .

وأجابت الصبى :

— أيوه يا سيد .

— شايه جيت إيه ؟

— جيت إيه ؟

— حاخليكى تاكلى وتمصى وتقرقرى وتبدغى وتلحسى كه ده بقرش
ابيض .

— ايه .. ايه .. ايه ؟ . قول تانى اعمل ايه واعمل ايه ؟

— خدى عندك .. حاتكلى بول مسودانى .. وتمصى قصب ،

وتقرقزى لب ، وتندغى كرمه ، وتلحسى مصاصه كل ده بقرش ابيض .. يا بلاش .

— ايه اصله ده ؟ ايه الكلام الفارغ اللى بتقوله ده ؟ انت جبت الزنون اللى حاتمعى بيه والا لا ؟
— طبعا لا .

— امال حاتمعى ايه ؟

— عندك ايه ؟

— احنا حانعيده تاتى ، انا مش قلت لك عندى بصاره وجبنه وبطيخ .. قلت ما جبهمش ، ورحت عشان تشتري زتون ؟
— معلش حاتمعى اى حاجه .. مش مهم .. بصاره .. جبنه .. اى حاجه .

— الهى يعدلها لك .. ما كتبت وفرت القرش .. والا كنت جبت حاجه تربى عليك ، وانت عامل زى عصا عيص النقاريه .. حد فى الدنيا يقول كده ، تروح تترك القرش فى حبة كلام فارغ ، حبة حاجات لا راحت ولا جت .. لكن الحق على . انا برضه الغلطانه اللى طاوعتك واديتك القرش .

— دأ ما كانش قرش ده النى حاتمعى تبستفنى عليه .

— قلبى عليك .

— خلاص بقى .. حصل خير .. تاخدى شوية لب .. والا مصاصه ؟

— اللى يفرقه العويل يسفه .. اشبع به انت .. اياك يقضى

كرشك .

— ماقولنا خلاص بقى ما تزعليش ، هه وادى راسك :

وهجم عليها فطبع قبلة على راسها الابيض المغطى بطرحة سوداء ، وضحكت المعجوز .. وكان الصبى الصغير واثقا من النتيجة .. كان يعرف انها — على حد قوله — ديته بومه .

وقالت المعجوز :

— استنى بقى .. ما تسدش نفسك بالحاجات دى قبل ما تتعشى .
— مش مهم العشا .

— مش مهم ازاي ؟ . عايز تنام على لحم بطنك .. لازم تتعشى ،
قوم هات طبق البصارة والجبنه والبطيخ من المطبخ وهات الطبلية عشان
تتعشى مع بعض .

وقبل أن يتحرك « سيد » سمع وقع أقدام أبيه تطرق أرض الفناء
.. فتوقف فى محله .. منتظرا دخوله فى شىء من اللهفة .

لقد أتى مبكرا .. وهو لا يكلف نفسه مشقة العودة مبكرا من
القهوة .. إلا إذا كان قد قبض نقودا مكنته من أن يحضر معه شيئا
مثرحا .

ودخل المعلم « شوشة » مرتديا الجلباب البلدى المخطط ، واللبدة
السمراء ، والبلغة القاسى الصفراء .. وفى يده لفافة تحوى الشىء
المرح .

والقى شوشة تحيته المقتضبة :

— مساء الخير يالأم .

وأجابت أم أمته فى صوتها الحنون :

— خير عليك يابنى .. أحضر لك تتعشى ؟

— اتعشيت .

ولم ينتظر سيد بقية الحديث ، بل مد يده فتناول اللفافة من أبيه
فى صمت بعد أن أدرك بعينه الثاقبتين ما يمكن أن تحويه .

كانت لفافة من الورق الأبيض الخشن .. تناثرت عليها بقع لامعة
شفافة .. هى آثار سمن نضح من الداخل .

« كفتة » ؟ . لا .. فالرائحة لم تنح .. انه يميز رائحة الكفتة
ولو كانت على باب الدرب .

« بسبوسة » ؟ . لا .. فهى لا تنضح مثل هذا النضحان ، إن
الورقة تكاد تكون مغرقة بالسمن .

« فطير » ؟ أجل ! أجل !

وصدق ظنه .. إذ لم يكد يتناول اللفافة من أبيه .. حتى قال :

— دول فطيرتين لك انت وسنك .. واحده بالزيت ، وواحده

بالسمن .. والسكر ملفوف فى ورقه لوحده .. حاسب ينكب منك .

واخذ « سيد » فى فتح الورقة ، وقد جلس على الشلطة بجوار

العجوز .. وبدأ عليه الفرحه .. انه كان فى اشد اللهفة إلى

الفطيرة .

بارك الله فى أبيه .. فهو دائما يحضر الشئ المطلوب فى الوقت

المناسب .

وبدا الفطير لامعا متوردا . وازدرد الصبى لعبه وهو يقول

لجدته :

— أنا حاخذ أم زيت ؟

— خذ اللى تعجبك .

— انهى أم زيت بابا ؟

— اللى فوق .

ورفع سيد الفطيرة « أم زيت » وقد فاحت منها رائحة شهية ،

وبدت تحتها « أم سمن » أشهى وأروع ، فأخذ يقارن بعين لهنى بين

الاثنين وقال لجدته محاولا كسب الوقت حتى يعطى لنفسه فرصة

الاختيار :

— تحبى أم سمن ؟

— كله كويس .. اللى يعجبك خذه .

وبدا عليه التردد ، وكان عليه أن يبت بسرعة .. فهو لا يقوى على

الانتظار كثيرا ، وأخيرا مد يده بالفطيرة العليا للعجوز قائلا :

— خدى أم زيت .. وأنا حاخذ أم سمن .. أحط لك عليها

سكر ؟

— حظ .

ورش عليها بعض السكر ومد يده بها ، ولكنه سحب يده فجأة
فى منتصف الطريق قائلاً :

— والا أقول لك .. أنا حاخذ أم زيت .

وضحكت العجوز وقالت :

— رينا ما يحير مؤمن .

واحس بشيء من الخجل لتردده وحيرته . فرفع يده بالفطيرة قائلاً

فى حزم :

— خلاص خدى دى .. أنا حاخذ أم سمن .

وامسكت العجوز بالفطيرة فى يدها وتناولت منها قضمة جعلت تلوكها

ببطء فى فمها ، وأنشعب سيد أظافره فى فطيرته وأطبق فيها أسنانه ،

وأخذ يقضم منها بنهم وسرعة ، وعندما أتى على معظمها ولم يبق منها

سوى قطعة تبلغ الربع ، صاح بالعجوز :

— مش عايزه تدوتى الفطيرة أم سمن ؟ تاخدى حتة ، وتجيى

حتة ؟

وكانت العجوز لم تاكل سوى قطعة صغيرة لا تزيد عن الربع ..

ولم يكن هناك شك فى أن بطنها فى الاكل كان بطناً مقصوداً ، وأنها

تستعد للخطبة التى كانت تعلم سلفاً أن حفيدها سيدبرها فى نفسه .

ومد سيد يده بربع الفطيرة التى معه ، وأخذ منها ثلاثة أرباع

الفطيرة وبدأ يقضمها .. ولحاه أبوه وهو فى طريقه إلى دورة المياه

ليتوضأ ، فصاح به مؤثباً :

— أنا قلت لك ايه يا سيد ؟ مش كل واحد فطيره ؟

-- وأنا مالى .. ما هى اللى عايزه تبادل .

وضحكت الجدة وقالت لشوئمة :

— يا خويه سييه .. دا اللى فى بطنه بيشتبعنى أكثر من اللى فى

بطنى .

وكانت العجوز صادقة فى قولها مخلصة .. فما أشبعها شيء

كاللقمة التى يأكلها حفيدها .. كانت تشعر فى نفسها أنها لو أصيبت
بمراجعة فى قفرة فليس أسهل عليها من أن تقطع جسدها قطعة قطعة
كى تطعمه له .

ليس هناك فى الدنيا أحب إليها منه ، ومن أبيه .

لقد كانت كل الأسباب تدعوها لحب أبيه ، كان رجلا قويم الخلق ،
حنونا طيبا صادقا وفيما .. لا تجد به عيبا ولا هنة .. هذا ما كان
يحبها فى أبيه .. أما ما كان يحبها فيه هو ، فلا شيء .. كانت تحبه
بلا تفكير ، ولا بحث ، ولا استقصاء .. كانت تحبه كما هو ، بشقاوته
وعفرتته ، وخفة دمه ، وبكل تفاصيله ودقائقه ، وشروره وذنوبه .

وانتهى سيد من أكل الفطيرة والنصف .. وانتهت العجوز من
أكل نصف الفطيرة .. وانتهى شوشة من الوضوء ، وخلا بنفسه فى
حجرتة يؤدى فريضة الصلاة .

وبدا سيد يتعاب ، وقال لجذته :

— مش حاننام ؟

— مش حاتاكل حاجه من اللى انت جاييها دى ؟

— لا خليها للصبح .

— ولا عايز بصاره ولا جنبه ولا شقة بطيخ ؟

— لا شبعنا خلاص .

— طيب قوم عشان تغسل ايديك وتنشطف .

— إيديه نضيفه .

— والزيت بتاع الفطير ؟

— مسحته فى الجلابيه .

— أيوه عشان تيجى التعابين تشمك .. أنا مش بطلتك الوساخه

دى .. قوم أشطفك وأغير لك الجلابيه .

— يا سلام عليكى يا ستى لما تضايقينى بقى .. هوه كل يوم

التشطيف ده .. زهقتينى .. دى حاجه تطلع الروح .. بقى لى كام
سنه باغسل ايديه ووشى .. يعنى كان فايدته إيه ؟
— قوم فز .. هوه كل ليله لازم تقول الموال ده ، مش ممكن تتشطف
من سكات ؟

ولم يجد سيد بدا من النهوض ، لا سيما بعد ان نهضت جدته متحاملة
على نفسها .

وسارت العجوز إلى دورة المياه ، دون حاجة إلى ان يقودها
الصبي ، فقد كانت تسير بحاسة التوجيه فى انحاء الدار كأنها مبصرة .
وصاح بها سيد وهو يتبعها :

— انسبقتنى لما أجيب اللببه .

— مفبش لزوم ، خليفها عندك .

— أنا مش شايف حاجه .

— مفبش لازمه تشوف .. أنا شايفه كل حاجه .. قرب هنا .

ولت العجوز اطراف ثيابها وجلست على مقعد خشبى واطىء
صغير امام صفيحة بها مياه ، وكانت دورة المياه لا تزيد على طرقتين
إحداهما مرحاض وحمام والاخرى مطبخ وكان ليلهما نهار ونهارهما
ليل ، فما كان الضوء يعرف مسيله إليهما إلا من نافذة عالية تطل على
المنور ذات قضبان حديدية كأنها نوافذ السجون ، وكان بياض الجدران
منهارا من نضح المياه ، وقد ظهر شق متعرج واضح عميق فى الجدار
المواجه للباب كأنه هابط من عل نتيجة لمياه دائمة النز فى الطابق
العلوى .

وصاحت العجوز بسيد وهى تبدأ اشق عملية تقوم بها فى يومها :

— اقلع الجلابيه .

— انتبى حاتمينى ؟

— لا حاشطفك .

— حاتفسلى راسى بالصابون ؟

- أيوه .
- عثمان ايه ؟ . انتى مش غاسلاها اول امبارح .. هى سوره .. كل يوم غسيل غسيل .. دى لو كانت دماغى حجر كانت باشت .
- قرب يا بنى بلاش مناكفه .
- حاقرب .. بس بلاش الصابونه .
- هو الصابون بيقرصك ؟
- ما بيقرصنيش .. لكن بيخس فى عنيه .
- ابقى غمض عنيك .. وهو ما يخشش .
- بغمض ، وبرضه بيخس .
- غمضهم كويس .
- بغمضهم قوى .
- خلاص يبقى مش حايشش .
- برضة بيخس .
- قرب بقى يا خويه الله يهديك ، فلقتنى ونبحت حسى ...
- وبدا يقرن حديثه ببكاء مصطنع :
- هو إيه اصله ده ؟ .. كل يوم صابون صابون .. أنا عارف ربنا عمل الصابون دا ليه ؟ .. عثمان يخس فى عين الواحد .. ده حتى ظلم .
- ظلم .. ظلم .. بس قرب .. ناولنى إيدك .
- ومد سيد يده فاطبقت يدها وجذبتة نحوها فأجلسته قائلة فى غيظ :
- اتعد هنا .. قرب رأسك من الصفيحه ..
- وقبل أن يمد سيد رأسه من الصفيحه لمح الصابونة موضوعة على الأرض بجوار المقعد الذى تجلس عليه فمد يده فى حذر وأمسك بها فأخفاها وراء ظهره .
- وملأت العجوز الكوز من الصفيحه ثم صبتة .. فوق رأس سيد ،
- ثم مدت يدها لتحسس الصابونة فى الموضع الذى تعودت أن تضعها

فيه بجوار المقعد ، ولكنها لم تجدها .. وظلت تتحسس برهة هنا وهناك ، ولم تلبث حتى أدركت ما حدث فأهست أذن الصبي بين سبابتها وإيهامها ، وقالت مهددة :

— هات الصابونه .

— صابونة إيه ؟

— هات الصابونه بالتى هى احسن .

وأجاب سيد فى عناد :

— ما شفتش صابون .

وضغطت بأصبعيها على أذنه .. نصاح :

— آى .. آى .

— هات لحسن أنده لأبوك يدشدشك .. انت عارف لما يهسك

ما يخليش فيك نفس .

— خدى أه .. اشبعى بيها .

وقبل أن تضع الصابونه على رأسه بدأ فى البكاء المصطنع وأخذت

تدعك رأسه ، وهى تقول :

— بس بقى بلاش زن .. اسكت بقى .

وبدأت تدعك وجهه فأغمض عينيه بشدة .. وبعد طول دعك

صبت المياه على رأسه لازالة الصابون ..

وسألها فى خلال « زنه » :

— خلاص ؟ . افتح عينيه ؟

— استنى شويه .

— استنى إيه ؟

— حاغسلها لك دور تانى .. دى عليها راقات طين .. ولا اللى

بيمشى على رأسه مش على رجليه .

— دور تانى ؟ إيه هو الظلم ده .. هى أمك كانت بتغسل لك رأسك

دورين ؟

— وأنا كنت أوسخ نفسي زيك كده ؟

وأخيرا انتهى دور الرأس وبدأ دور الساقين والذراعين وكانت المهمة أسهل كثيرا إذ لم يكن بها ما يفضبه .

وأخيرا انتهى التشطيف ، وارتدى سيد جلبابا نظيفاً ، وكان هذا هو أهم ما فى الأمر . . إذ تخلص مؤقنا من جلبابه الممزق المرتوق الذى يحمل آثار المعركة بينه وبين « على الخشت » ثم سار بجوار العجوز إلى حجرتهما .

وكانت الشقة تتكون من ثلاث حجرات ضيقة مظلمة رطبة مرصوفة كالقاعة بالبلاط المعصرانى ذى القلائل والشقوق ، فى كل منها نافذة ذات قضبان حديدية ، وكان شوشة ينام فى إحداها على فراش خشبى تعلوه مرتبة رقيقة ويوجد فى ركن الحجرة مشجب علق عليه بعض ملابس ، وفى الركن الآخر دولاى صغير وضع فيه البقية الباقية منها .

وكانت العجوز والصبى ينلمان فى الحجرة المجاورة فوق مرتبة وضعت على الأرض واستبدل بالمشجب فيها حبل دق بين الجدارين فى إحدى الزوايا ونشرت عليه بضعة أثواب للعجوز والصبى ووضع فى أحد الأركان طشت وأبريق كانت تستعمله العجوز للوضوء والغسيل .

أما الحجرة الثالثة فلم تحو غير صندوق الكراكيب ، وكانت تكاد لا تفتح إلا عندما يحلو لسيد العبث فى أناقضها عله يعثر على شيء ينفعه فى لعبه .

ونظر سيد خلال باب حجرة أبيه فوجده جالسا جلسته المعتادة فوق فراشه الملاصق للنافذة متكئا بيمرقه على حافته مستندا بذقنه إلى كفه متطلعا ببصره إلى السماء أو إلى الشريط البادى منها أعلى حافة النافذة وأعلى حافة الدور المقابلة فى الدرب الذى يظهر كأنه سقف فوق الدرب ، وكان يمسك بيسراه سيجارة يقربها من شفقيه بين أوتة

واخرى ليمتص دخانها فيملا به صدره ، ثم يدفعه فى نفس طويل وزفرة حارة .

تلك كانت جلسة ابيه الدائمة كل ليلة قيل أن يتهدد فى فراشه ويغمض عينيه ، وهى شديدة الشبه بجلسة جدته كلما خلت بنفسها من حيث الإطراء والوجوم والسرخان والشروذ وإمارات الحزن التى ترتسم على وجهى كل منهما .

كان كلاهما يسير فى تيار الحياة فلا يكاد يتوقف به التيار حتى يرسب إلى اغوار عميقة من الحزن والتفكير .. كانا شديدي الشبه إذا ما خلا كل منهما بنفسه .. صلاة .. واطراق .. وحزن .. وتطلع إلى السماء .. كأنما تجمع بين ذهنيهما فكرة واحدة .

ولكن سيد لم يحاول أن يبحث ما وراء ذلك ... ولا اهتم بأن يسأل عن سبب ذلك الهبوط إلى القاع إذا ما توقف بهما تيار الحياة .. لأنه لم يكن لديه وقت للتفكير فى ذلك ، ولأن تيار الحياة لم يتوقف به قط .. فهو لا يكاد يكف عن الحركة .. فإذا كف جسده عن الحركة فإن ذهنه يواصل نفس الحركة .. بلى .. وكرة شراب .. وحريشة وشجرة الجوانة .. و... و .. مما لا يتركه إلا وقد استسلم إلى الرقاد .

ورفع رأسه محولا بصره من ابيه المتطلع إلى السماء من وراء قضبان النافذة إلى جدته التى تتلمس طريقها إلى فراشها .. مناديا :

— ستى .

— هه .

— مش حاتحكلى حدوته ؟

— حاحكيك بس ...

— بس إيه ؟

— تبطل الزن لما اغسلك راسك بالصابون ؟

— هو انتى لسه حاتغسليلى راسى بالصابون تاتى ؟

— قصدى المره الجايه .

— يا ستى يحلها ربنا لما تيجى المره الجايه .. انتى يعنى مستعجله قوى .. على العموم .. انا مش حاوسخ راسى أبدا عشان اريح قلبك .

— يعنى برضك ناوى تزن ؟

— طب مش حازن .. حاتحكيلى بقى ؟

— ايوه .. كده .. لما تبقى ولد طيب وابن حلال .. وأمير ..

ونستحى من سكات ولا تتخافتش مع ولاد الجيران .. ولا توسخشى هدومك ولا تقطعهشى أقوم أحبك واحكيلك اللى انت عايزه .

« ولا تقطعهشى !! » هنا بيت القصيد .. ترى متى ستكتشف تمزيق الجلباب ؟ طبعا عند الغسيل !! ولكن ماذا تراها ستفعل ؟ . ستناديه « يا مفضوح » وتقرص له أذنه ؟ .. هذا أقصى ما ستفعله .. انها متسامحة كريمة .. وهى لا شك لن تبلغ أباه .

دار بخلده كل هذا بسرعة وانتهى بطمأنه نفسه واجابها قائلا :

— حاتحكيلى إيه ؟

— اللى انت عايزه .

— قولى انت .

— أحكيلك « خششبان أعمى طرشى ما بينضرشى » ؟

— لا .. انتى لسه حاكياها امبارح .

— أحكيلك « يا حوريه الرغيف وراس البوريه » ؟

— لا .. دى زهقت منها .

— أقول لك يا سيدى لما انت .. حدوته كسبره ؟

— ايوه .. قوليلها لى دى .. بقى لى زمان ما سمعتهاش .

— طب يا الله بينا .

وهبطت المعجوز إلى الفراش الأرضى وتمددت على جنبها الايمن وفردت ذراعها فتوسده العصبى وقبل أن تبدأ القص ضمته إلى صدرها

واخذت تتحسس رأسه وتقاطيع وجهه برفق وحنان ، وقال هو بصبر
ناقد :

— يا الله بقى احكى .

— كان ياما كان يا سعد يا اكرام .. ما يتم الحديث إلا بفكر
النبي عليه الصلاة والسلام .
— عليه الصلاة والسلام .
— كان فيه يا سيدى ...

وبدأت « الحدوتة » والصبى ينصت ، وأنفاسه تتصاعد فى هدوء ،
وصدره يعلو ويهبط ببطء ، ولم يطل الحديث بالعجوز حتى أحست بيد
الصبى التى أحاطت بها قد تراخت وراح هو فى سبات هادئ عميق ..
يريح به جسدا أنهكه طول السير واللعب وحمل القرب والعراك .
وضمته العجوز إلى صدرها وعادت مرة أخرى تتحسسه كما يتحسس
البخيل كنزه ، وطال بها الشرود والتفكير قبل أن يبسط عليها النوم
سلطانه ، وأخيرا أغفى كل من فى البيت ، وانحصرت كل مظاهر الحياة
فيه فى أنفاس تتردد فى سكون .

كان الأب أول من استيقظ ، وكان ضوء الفجر ينساب من النوافذ
رماديا باهتا قد اختلطت ببياضه رواسب الظلمسات .. ثم أخذت
الرواسب تصفو شيئا فشيئا .. حتى أضحت الخيوط الهابطة إلى
الدار بيضاء صافية .. وانتهى الأب من وضوئه وصلاته وارتدى جلباب
العمل والسطيح واللبدة ، ثم دلف إلى حجرة العجوز ونادى الصبى
بصوت رقيق :

— سيد .. سيد ..

واستيقظت العجوز قبل أن يستيقظ الصبى وهتفت بالأب :

— ياابنى لسه بدرى اوى .. خليه ينعس شويه .

وكانت « أم آمنة » تعارض الأب فى محاولة دفع الصبى إلى العمل
وفى محاولة ابلاغه مبلغ « الرجالة » أو كما يقول شوشة : « توديكه » . .
وكانت ترى أن هذا شيء مبكر جدا ، وأن عود الصبى لم يصلب بعد .

ولكن شوشة لم يكن يلتقى إليها يالا . . كان كلاهما يحب الصبى ،
ولكن بطريقته الخاصة . . الجدة : تود ألا يفارق أحضانها ، فهي تخشى
عليه من كل شيء ، وتكره له كل جهد وتريد الترفق به كل الترفق . . أما
الأب . . فكان يريد أن يسبق الزمن فى خلقه وتكوينه . . يريد أن يفض
عينيه ، فيراه رجلا . . وكما كانت العجوز يمتعه أن تضمه إلى
أحضانها ، كان هو يمتعه أن يرى الصغير ، وقد ارتدى السطيح وحمل
القربة وسار بخطوات رزينة ثابتة يفرغها فى المكان المطلوب .

وهكذا طلبت أم آمنة من شوشة أن يتركه ينعس قليلا ولكنه لم
يستمع لها ، بل استمر ينادى الصبى ولكن بلهجة أشد :
— سيد . . سيد . . اصحى يا وله .

وفتح سيد عينيه ، ولم يكذبصر أباه ويسمع صوته ، حتى قفز
واقفا بعينين مغمضتين وهو يقول :
— أبوه يابا ، حاضر أهو يابا .

كان سيد يعرف أنه يستيقظ على عمل يلذ له . . ولو كان يعرف
أنه يستيقظ للذهاب إلى الكتاب ، لتمطى وتناعب . . وتطلب المزيد من
النداء والزجر والنهر . . أما لبس السطيح وحمل القربة ، والذهاب
إلى السراية وسقى التمرحنة . . وما بعد ذلك من أعمال جليلة ممتعة ،
فقد كان عملا يستحق أن يقفز من الفراش ، وأن يضحى من أجله
بأحلى نومة .

واسرع سيد يغسل وجهه ، أو على الأصح يبل وجهه باطراف
أصابعه ، ثم ارتدى السطيح ، وسار يهرول وراء أبيه ، وقبل أن يعبر
الباب صاحت أم آمنة :

— ما تتغذوش بره ، انا حاطبخ لكم .

ووقف « شوشة » فى مكانه ، ثم عاد القهقري ، وأخرج حافظته وأخرج منها قطعة ذات الخمسة ثروش ووضعها فى كف العجوز فى صمت .

واجابت المرأة :

— انا معايا غلوس .

— معلش ، خلى دى معاكى ، يمكن تعوزى حاجه .. تحبى ابعت لك حاجه ؟

— لا .. زكيه بتشتري اللى انا عايزاه ، مع الحاجه اللى بتشتريها . ولم تكن زكية تشتري فقط ، بل كانت ، كما سبق القول تؤدى للعجوز كل ما يمنعها بصرها الخابى من أدائه .

وأخرج الرجل وابنه يتواثب حوله ، وسار الاثنان يدفعان امامهما العربية المحملة بالقرب الفارغة ، عابرين الدرب متجهين سويا إلى كشك الصنبور فى أول درب السماكين .

ووصلا إلى الكشك .. ولكنه كان مغلقا .. فالمعلم لم يصل بعد .. وكان فى انتظاره امرأتان بصفيحتيهما .. وعبد العزيز السقا بقرينه . ووقف شوشة العربية بجوار الرصيف ، وانكأ عليها منتظرا فى صبر وغيظ مكظوم ، والتى تحية مقتضبة إلى الثلة المنتظرة قائلا :
— صباح الخير .

وردوا عليه التحية ، وبدأ على عبد العزيز أنه يريد تسلية نفسه بالثرثرة ، فبدأ الحديث قائلا :

— المعلم على لازم راحت عليه نومه .

واجابت إحدى المراتين :

— ويسيب مصالح الناس متعطله كده ؟ وهى دى تبقى اصول ؟
احنا وانا شغل .

وعلقت الأخرى بقولها :

— ودى لطعة إيه ياختى دى ، هوا احنا قاضيين له ؟

ورغم أن شوشة كان أكثرهم غيظا ، إلا أنه كان شديد السيطرة على لسانه ، فلم يفه بكلمة ضجر ، أو تعليق سوء ، بل اكتفى بأن أطلق تنهيدة طويلة .

ولكن ابنه لم يكن كذلك .. لقد كان كل ما فيه طليقا متحررا ، لا سيما لسانه ، فصاح مشتركا فى الحديث .. نيابة عن أبيه :

— لازم كان سهران فى زفه .. مش مطياتى ؟

وقهقه عبد العزيز .. وضحكت المراتان .. وكنتم شوشة ضحكته ، وقال لابنه ناهرا :

— اقصر لسانك ولا تداخلش فى اللي مالکش فيه .

— ودا كمان مالياش فيه ؟ أنا مش سقا زى زيكم ؟ هى دى مش عطله ؟ واحنا وانا مصالح ناس .. حد قال يجيوا مطياتى يعملوه باش سقا .. ويمسكوه خنفيه ؟ . دا حقهم يمسكوه رق .. يرقصوه عشره . وقاطعه أبوه بصيحة ناهرا :

— بس يا واد بلاش قلة أدب ، قلت لك اقصر لسانك يعنى اقصر لسانك .

ولم يجد سيد بدا من الصمت على مضض ، وعاد يلعب بقدميه فى مجرى المياه المنحدر إلى البالوعة .

وبعد برهة أقبل « على دنجل » ، أحمر العينين .. منتفخ الأجفان ، مهدل الثارب ، وألقى تحية متجهمة على الجميع فأجابوه بأكثر منها تجهما .. واتخذ مكانه على المقعد فى الكشك وراء الصنبور .

وملأت المراتان .. ثم ملأ عبد العزيز .. وقال شوشة مخاطبا ابنه :

— قرب خد قربتك واملا .

فلما ملأ سيد قربته أردف قائلا :

— اسبقنى على السرايه .. وفتح عينيك كويس .. خلى عينك
فى راسك .

وكان تحذيرا ثقيلا لم يتعلمه سيد بسهولة .. بل اعتبره نذير سوء ،
ولكنه لم يملك إلا أن يجيب :

— حاضر .

وسار سيد بحمله الصغير ، محنى القامة ، مبتل الثوب ، تشوب
سعادته المطلقة صدى انذار ابيه وتحذيره إياه بأن يضع عقله فى
رأسه .

— ماذا يقصد أبوه بأن يضع عقله فى رأسه ؟ . ايعنى الا يمد
يده إلى شىء من الثمار ؟

سخافة ! . إن هذا هو بالضبط عدم وضع العقل فى الرأس ..
إنه الجنون بعينه .. أن يذهب إلى حديقة السراى ولا يمد يده إلى
ثمارها ؟ . ولو كان ينوى أن يفعل ذلك .. لكان أجدر به أن يجنب نفسه
كل هذه المشقة .. مشقة الصحيان المبكر ، وحمله القربة ، والعدو
وراءه فى الطرقات .

أجل ! إذا كان أبوه يظن انه ترير بكل هذا من أجل خاطر عيون
التمرحنة .. فهو ، ولا مؤاخذة ، مغفل كبير .

ولكنه يربأ بأبيه أن يكون كذلك ، إنه لا شك يقصد بقوله له
« خلى عقلك فى راسك » ، الا يرتكب حقا كالذى ارتكبه بالأمس ..
فلا يتسلق شجرة . ولا يكسر فرعاً ، ولا يقع من الشجرة على رقبة
« عم جانب الله » فيقصفها .

هذا بالطبع ما يقصده أبوه .. ومعه حق .. فمن الغباء ان يرتكب
جناية قتل من أجل جوافية .. أو بلحاية ، أو حتى قشطاية .

يجب أن يضع عقله فى رأسه .. فلا يتهور .. بل يأخذ ما يشاء
من الثمار بالتى هى أحسن .

وهكذا أسر سيد انذار ابنه .. وازاح بذلك التفسير العبد الذى
اثقل ضميره ، وأقبل على باب السراى وسعادته مطلقة لا تشويها
شنائية من خوف أو شك ، وأطل ببصره من باب السراى فليح عم جاب
الله مغرقا فى صلاته .. وكان أكثر ما يحبب سيد فى الله هو أمره
عبيده بالصلاة .. وتحديدده لهم قبلة تربطهم باتجاه معين لا يتحولون
عنها . فلولا هذا ما استطاع أن يتسلل بسهولة من وراء « عم جاب
الله » الراكع أمام القبلة ، المعطى ظهره للباب ، المنهك فى الركوع
والسجود ، والقراءة والتهمة .

وهكذا دلف سيد إلى الداخل فى سكون .. حامدا الله شاكرا عبده
المطيع جاب الله .. واتجه فى صمت وسكون إلى شجرة التمرحنة
مصوبيا فوهة القرية إلى الحفرة المحيطة بها ، وترك المياه تنحدر إليها
حتى نفذ كل ما فى القرية فخلعها عنه ووضعها على الأرض وخلق السطوح
ووضعه بجوارها حتى يتحرر من قيودها وتخف حركته .

إن إمامه مسحة من الوقت يستطيع أن يتمتع خلالها بالحقيقة ،
فأبوه ما زال يبال بنية القرب ، وسيمر فى طريقه على بضعة بيوت قبل
أن يصل إلى السراية .. أما عبد الله المطيع المدعو جاب الله .. فسيظل
مقيدا نفسه إلى القبلة إذ ليس هناك ما يدعو إلى حله .. فهو لم يحس
بدخوله .. وهو لا شك مطمئن ، أربعة وعشرين قيراطا .

ونظر حوله يفحص الحقيقة بعينه ليرتب فى ذهنه خطة موضوعة
للاستمتاع بها .. فرفع بصره على الفسقية ولما يزل بها بعض المياه التى
لم تتصرف بعد فى مجارى الأشجار فعزم على أن ينتهزها فرصة ويلقى
بنفسه فيها .

وشمر الجلباب حتى أرجل سرواله القصير واضعا ذيله فى

« عبه » .. ثم قفز إلى الفسقية وأخذ يعدو فيها ضاحكا ضاربا المساء بساقيه ، محدثا عاصفة من الرشاش أغرقت بقية جلبابه ، منشدا أحب الأغنيات إلى نفسه « حالى يا حالى .. بس ان مريت .. ع الدقه والفول ابو زيت » .

وهكذا استمر يعدو ويرقص ، متمما بقية الأغنية صائحا : « مر على الباشسجان وغمزنى بعلبة دخان » .

ولمح فى وقفته شجرة لوف ، تتسلق جذع إحدى النخلات وابصر بين اوراقها الخضراء العريضة ، وزهرها الأصفر كوزا كبيرا من اللوف فى متناول اليد .

ودون ان يفكر ماذا يمكن ان يصنع بالكوز قفز من الفسقية ووثب نحو النخلة ، وفى لمح البصر كان قد نزع الكوز من موضعه وأخذ يتسلى بتقشير ولوث نفسه بمائه اللزج وما عثم حتى قذف به إلى الأرض وراء النخلة .

مغفل !! ما هكذا يضيع الوقت فى الحديقة ؟ . إن أباه قد نصحه بأن يضع عقله فى رأسه ، وما فعله نموذج لتصرف رأس بلا عقل .

وعاد يتلفت إلى الأشجار فوجد الأرض تحت شجرة الجوافة ملأى بالثمار .. نتناول واحدة . ثم تناول ثانية وثالثة .. وما لبث حتى أحس بالشبع .

لقد اتبع قول أبيه ، إنه لم يتسلق الشجرة ، ولم يقصف رقبة عم جاب الله .. ولكنه شبع .. فماذا يفعل بعد ذلك ؟

ليأكل بلحا .. ولكن النخلة ليس تحتها شيء .

ورفع بصره إلى أعلى فإذا بأربع سباطات حملت بالثمر الأحمر ، وقد تهدلت متاثلة حول جذع النخلة .

وأخذ سيد يفكر بسرعة .

إذا وضع عقله فى رأسه كما قال أبوه .. فعليه ان ينتظر تحت النخلة حتى يمن الله عليه ببليحة أو بلحتين تسقطهما حداة أو غراب أو نسمة من ريح .. ومن يدرى أن الحداة والغراب والنسمة سيهديهم الله إلى إسقاط البلح قبل حضور أبيه أو قبل انتهاء جاب الله من صلاته .

أما إذا لم يضع عقله فى رأسه فعليه أن يتسلق النخلة .. وفى هذه المرة .. إذا سقط .. ستدق عنقه هو .. بدل عنق جاب الله .
واخذ يقيس النخلة ببصره وقد أصابته حيرة شديدة .

أيصعد النخلة .. أم لا يصعدا ؟ يصعد أم لا ؟ . يصعد أم لا .

إن اللوعة ستساعده ، ولكن من يدرى أنها لن تتهاوى تحت ذراعيه .. لا .. لا .. إنه لن يغامر بتسلقها ، ولكنه مع ذلك يريد بلحا .

وبرق فى ذهنه خاطر ، يغنيه عن المغامرة وينيله مأربه .

لم لا يقوم هو مقام الغراب أو الحداة أو النسمة ؟ . أنه يستطيع بحجر أن يسقط أضعاف ما يسقطه ثلاثتهم معا دون حاجة منه إلى تسلق النخلة ، وإخراج عقله من رأسه .

وتلفت حوله فوجد بجوارا لفسقية حجرا صغيرا .

هذا حجر مضبوط .. ان الله موفقه هذا الصباح .. صلاة عم جاب الله ، والمياه فى الفسقية ، والجوافة جاهزة تحت الشجرة ، والحجر جاهز تحت النخلة .. كل هذا توفيق من عند الله .. أو الشيطان .

وقذف بالحجر بأقصى ما لديه من قوة ، واندفع الحجر من يده مرتفعا إلى قمة النخلة ، متجنباً الجذع ، والسباطات ، والزعف ، ماراً بجوار كل ذلك فى دائرة ، عبر بها قمة النخلة مندفعاً من الناحية الأخرى تجاه البيت ، تاركاً كل واجهة البيت الحجرية ، رافضاً أن يستقر إلا على

زجاج إحدى النوافذ ، وسقط الزجاج مهشما محدثا صوتا مريعا ، ونفى
نفس اللحظة هب « جاب الله » من صلاته مندفعا إلى الداخل ،
ووراء المعلم شوشة حاملا قريته ، ونظر « سيد » إلى النافذة المتهاوية
فى يأس ، ونظر إلى السطيح والقربة ثم اندفع يعدو تجاه الباب هاربا
بأقصى سرعة ، وصاح به أبوه فى دهشة :

— على فمين ؟

وأجابه « سيد » وهو يعدو :

— على الكتاب .

بيدى لا بيد عمرو .

الفضائل الخمسين

فى الكتاب

اندفع « سيد » يعدو كالمجنون فلم يتوقف إلا أمام دارهم فى درب القط ، وعدا فى الفناء مرتميا فى أحضان جدته « أم أمنة » وهو يلهث من فرط التعب .

وصاحت به العجوز متسائلة فى دهشة وفزع :

— مالك ؟ . حصل إيه كنى الله الشر ؟

واستمر « سيد » يلهث دون أن يجيب ، وعادت أم أمنة تستحثه بسؤالها :

— مالك ؟ بطحت حد ؟

— يا ريت .

— قتلت قتيل ؟

— أبدا .. كسرت لوح قزاز فى السرايه ؟

— يا ندامه .. وايه اللى يخليك تقل عقلك وتكسر اللوح ..

انتخبطت فيه ؟

— أبدا دا فى تانى دور .. وأنا كنت فى الجنينه بسقى التمرحنه .

— وايش جاب التمرحنه للقزاز اللى فى تانى دور ؟

— اللى حصل .. أنا واقف كده تحت النخلة لقيت طوبه راحت خبطه

فى الشباك دشدشته .

- ومين اللى حدف الطوبه ؟
- انا عارف بقى .. الله اعلم .
- كان فيه حد غيرك فى الجنينه ؟
- لا .. عم جاب الله كان بيصلى فى البوابة .
- يعنى انت اللى حدفتها ؟
- ما عرفش .. انا لقيت الطوبه جت فى إيدى من غير ما احس .. حببت ابعدھا عنى .. رحى حادفھا بعيد . عليت لفوق .. لفوق .. عدت النخله ، ولقت ، ومالقيتش حتته تنزل عليها فى الدنيا الواسعه دى .. غير لوح القزاز .. اعمل لها إيه ؟
- مالهاش حق .. كان حقها نزلت تانى ترف على دماغك .. عشان تبطلك الشقاوه وتكسیر شبابيك الناس .
- وهوا انا كان قصدى ؟
- نهايته .. ويعدين عملت إيه ؟
- ولا بعدين ولا قبلين .. حطيت دبلى فى سنانى وقلت يا فكك ، والا حاستنى لما آخذ العلقه ؟ . انا عارف انها حاترسى فى الآخر على إنى أروح الكتاب .. قلت يا واد خدھا من قصيرھا وروح من نفسك .. فين الصندوق والطربوش واللوح الصفيح ؟ ...
- أهم مطرح ما بترميھم .. يعنى حايروحوأ فين ؟ .. انا لا بعرف اقرا ولا اكتب .
- انا حاططھم على الصحاره اللى فى اودة الكراكيب .
- أهم لازم هناك ما حدش شالھم .
- وقفز سيد من احضائها مندفعاً إلى الصحارة .. فلم يجد عليها شيئاً ، وتذكر انه فتح الصحارة عندما كان يبحث عن البنورة ، وتذكر ان عدة الكتاب لا بد أن تكون قد سقطت عن غطاء الصندوق فوقعت فى المسافة بين الصندوق والحائط فصعد فوق الصندوق ومد ذراعه يتحسس الحيز الضيق فاصطدم بالطربوش وأخرجه وقد تكور وتطبقت

جوانبه وانهارت اركانها وعلته الأثرية ، وخيمت عليه العناكب ، ثم عاد يتحسس بذراعه مرة أخرى فاصطدم باللوح الصفيح . . . أما الصندوق فوجدته مختفيا فى ركن الحجرة تحت إحدى القرب القديمة .

وأخذ يستعدّل الطربوش وينقر قرصه بأصبعه ثم يمسحه بطرف كفه ، فلما عاد إلى أصله وضعه على مؤخرة رأسه وأخذ يلبس الصندوق ، وأمسك اللوح بيده وصاح بجذته :

— أنا ماشى .

— استنى لا تقطر .

— عندك إيه ؟ اظن حاتقولى طبق البصارة ، والجبنه والبطيخ ؟ .

لا يا ستى يفتح الله . . حد الله بينى وبين البصاره بتاعتك . . أنا ماشى .

— أمال حتاكل إيه ؟

— أكل اللى أكله . . معاكى فلوس ؟

— معايه . . عايز كام ؟

— هاتى قرش ساغ . . افطر بتعريفه وأتغدى بتعريفه .

— آدى قرش ساغ أهو . . بس اشترى حاجه تبرى عليك . . مش

تروح تبعزقه فى الكناسه اللى انت بتشتريها حمص ولب وكرمله . . الحاجه اللى اشتريتها بالليل أهى قاعده زى ما هى ما حدش داقها .

— خليها لما ارجع . . أنا ماشى .

— مع السلامه . . حاسب على نفسك ، وامشى على الرصيف ،

وخذ بالك وانت بتعدى الشارع . . روح ربنا يهديك ويحبب خلقه فيك

. . روح ربنا يجعل السعد فى قدمك ويبيتيك ويهنيك . . يا سيد يابن

شوشه .

وانطلق « سيد » قبل أن يسمع بقية الدعوات . . إذ كان يحفظها

عن ظهر قلب . . كما كان يحفظ دعوات السوء التى تفيض بها جنبة

خالته « الحاجة زمزم » ، وكان يسائل نفسه أحيانا : هل يسمع الله

فى عليائه مثل هذه الدعوات ؟ .. وهل يفكر فى الاستجابة إليها
أحياناً ؟ .. من يدري ؟ .. على أنه يجب أن يكون على حذر من دعوات
زمزم .. فلو فكر الله مرة فى الاستجابة إليها لأودت بالمصاب بها إلى
أسفل سافلين .

ولم يكد يتجاوز الباب حتى سمع وقع أقدام تهبط السلم ، ثم سمع
صوتا يناديه فى دهشة :

— سيد .. رايح فين ؟

وتلفت وراءه فأبصر « على الخشت » هابطاً فى طريقه إلى
الكتاب .

وتوقف فى مكانه وأجاب فى لهجة لا تخلو من مرارة :

— رايح للفقر الأزلى .. رايح للشيخ كفته بتاعكم .. الواحد
امتكر إن ربنا تاب عليه .. لكن معلش .. أهم يومين وينقضوا .
وعاد « على » يسأله فى دهشة فرحة :

— صحيح رايح الكتاب ؟

— أيوه رايح الكتاب .. إيه ؟ عجيبة ؟ . والا بعد ما شاب ودوه
الكتاب ؟ . بلاش ما روحش ؟

— ما تروحش ازاي . أنا فرحان عشان حاتروح سوا .

وسار الاثنان فى الدرب وقد وضع كل منهما يده على كتف الآخر
وامسك بالأخرى اللوح الصفيح ، وزاد على اللوح الصفيح الذى يحمله
« على » لفافة ربطت بمنديل محلاوى .

ونظر إليها « سيد » وقال متسائلاً :

— دى إيه دى يا واد يا على ؟

— اكل .

— فطار والا غدا ؟

— الاثنين .. وانت .. أمال فين الاكل بتاعك ؟

— معايا ساغ أهوه .

— يا بختك ، وحتاك إيه ؟

— حاخد طبق بليله من عند أبو دومه .

— آدى نكله .

— وبتلاته ملیم شقة وطعميه سخنه من عم سلامه .

— يا بختك .. آدى تعريفه . وإيه كمان ؟

— واتعدى بالتعريفه التانى من عند عم جراده .

واطرق « على » وقد بدا عليه الأسف ثم قال متنهدا :

— قولتلها تدينى ساغ وبلاش القرف اللى هى مديهولى ده ..

ما عجبهاش .. قالت لا .. خدلك حاجة تربى عليك ، وبلاش الرمرمه
الى بتلمها من الشارع .. رمرمه آل ؟

— ادتك إيه ؟

وكان معروف بداهة أن « هى » هذه هى « أم على » ، وأجاب

« على » فى حق :

— أنا عارف مديالى إيه ، لازم كفته ورز ولحمه .. وعك م اللى

بيعملوه فى البيت .

وأحس « سيد » بشهيته تفتح للكفتة واللحمة وغيرها من الكبد

والمخ أو ما يسميه على « عك » ، وكان « على » يكرها لأن أباه قصاب ،
وهو مغرق فى اللحوم إلى أذنيه . أما « سيد » فكان الحال يختلف عنده
اختلافا بينا .

ولكنه لم يشأ أن يظهر لهفته على ما يحمل « على » فى لفافته وعزم

على أن يتفاخر بما ينوى أن يأكله رغم أنه يعلم جيدا ماذا يبيعه « عم
جرادة » من أصناف المأكولات .

قال « سيد » وهو يقلب شفتيه فى اشمزاز مصطنع :

— أخص .. كفته ولحمه ورز .. حاجة تقرف .. الله يكون لى

عونك .. أنا برضه أم آمنه حبت تعملها معايا .. لكن على مين .

دول صنف ما يخفش إلا من العين الحمره .

وعاد « على » يتنهد كأنه ينوء بأثقال من الحزن .. ونظر إلى « سيد » بطرف عينية وبدا عليه التردد برهة ، ثم قذفه بطلبه فى صوت وجل قائلا :

— تشارك .

وأحس « سيد » من قول صاحبه طربا شديدا ، ولكنه تجاهل مقصده وسأله :

— فإيه ؟

— فى الأكل !

— ازاي ؟

— نشترى حاجات بالساعك بتاعك سوا ، وناكل أكلى سوا ..
إيه رأيك ؟

— لا يا عم .. حد الله بينى وبينك .. أنا ما حبش العك .

— طيب يا سيد .. ابقى اعرفها .. لما يبقى معايا حاجة ما تبقاش
تيجى تقوللى هات حتة .

— انت زعلت ؟

وأجاب « على » بصوت مخفوق كأنه يوشك على البكاء :

— وازعل ليه ؟ كل واحد حر .

— طب ما تزعلش .. خلاص قبلت الشركة .

وضحك على وانفرجت أساريره وأردف سيد قائلا :

— تحب نشترى إيه فى الفطار ؟

— كل واحد طبق بليله .. وبعدين يحلها رينا .

وكانا قد وصلا إلى ناصية « درب عجور » ولاحت لعينيهما دكان

« أبو دومه » ، وقد وقف الرجل على بابها وأمامه « قروانة البليلة »
يتصاعد منها البخار ، وقد أمسك بكبشته وأخذ يقلب البليلة فى القروانة
وبين آونة وأخرى يملأ بها إحدى السلطين ويمد بها يده إلى أحد

الزبائن . وبجوار « القروانة » استقرت صينية « بسيوسة » وبجوارها سلطانية صغيرة بها سمن ، وصينية أخرى بها « بلح الشام » .

وكانت الساعة قد جاوزت السادسة والنصف ، وقد التفت حول الحائوت بعض الصبية والعمال ، وكان من بينهم « محمود زين » و « دقدق الحمى » فى طريقهما إلى الكتاب ، وما كادا يبصران « سيدا » مقبلا ، وهو يرتدى الطربوش والصندل ويحمل اللوح ، حتى بدت عليهما الفرحة وهشاله ، وصاح « زين » مرحبا به مظهرا دهشته :

— إيه ؟ سيد ؟ إيه اللى جابك ؟ يا ميت مرحبا .

والقى « سيد » التحية فى تؤدة بصوت كساه من الغلظ ما استطاع :

— السلام عليكموا يا رجاله .

وأجابت أصوات متفرقة من هنا وهناك :

— عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم انبرى له صوت آخر يقول :

— ما سلامشى ليه ؟ انت صغير .

وقال « الحمى » مؤديا واجبه فى الترحيب :

— أهلا .. أهلا .. دا الكتاب حائنور .

وأردف « زين » قائلا :

— دا الكتاب من غيرك ما يسواش بصله ، ما ضحكناش ضحكه

واحد من يوم ما غبت والشيخ كفته مورينا الويل .

وقبل أن يجيب سيد على حديث زين صاح بأبى دومه :

— ادينا اتنين بليله وحياة أبوك يا معلم .

وغرف « أبو دومه » البليلة فى التطبيقين .. وسلم لكل من الصبيين

طبقا . ولم يكن « سيد » ليترك الفرصة تمر دون أن ينتهزها ، فقال

بصوت مرتفع ، وفى لهجة الرجل :

— على حسابى الاتنين دول .

وضحك الرجل وأجاب يقلد لهجة سيد :

- حاضر يا معلم .. تعيش وتصرف .
- وهم « على » بأن يعلن أن المسألة شركة .. وأنه هو أيضا سيعطيه من الكفنة التي معه ، ولكنه فضل ألا يثير غضب « سيد » حتى لا يفض الشركة ، وعزم على أن يحتفل كل شيء في سبيل طبق البليلة .
- وفي خلال تناول البليلة بدأ استفسار الصبية عن سر عسودة « سيد » إلى الكتاب ، بعد أن أعلن في عزم وإصرار أنه لن يذهب إليه ، لأن أباه لا يستطيع الاستغناء عن مساعدته ، وأنه ينوى أن يجلس في كشك الصنبور ويترك له العربة والترب .
- كان « زين » أول السائلين :
- ايه بقى يا سيد .. ما قولتناش إيه اللي حصل .. إيه اللي خلاك ترجع الكتاب تانى ؟
- والله ما عجبتيش الشغل .
- ازاي ؟
- اهو محصلش قسه .
- حد زعلك ؟
- أبدا .. سوء تفاهم بسيط بينى وبين أبويه .
- وإيه السبب ؟
- ولا حاجه .. كل شيخ وله طريقته .. ما اتفقناش قلت له سلامو عليكم .. قال لى عليكم السلام .. يا جماعة الله الغنى .
- لازم فيه حاجه حصلت ؟
- وشاركهما « على الخشت » في التأكيد بقوله :
- ما تقول يا سيد .. احنا فيه بيننا وبين بعض سر ؟
- وبدا الحاج الصبية .. ووجد « سيد » أنه لابد أن يقول شيئا فhez رأسه في شيء من الأسف ، وبدأ يحضر في ذهنه أكذوبة يثير بها نفوس الزملاء ، قال :
- والله يا جماعة أصل الحكاياه مش مستاهله ..

— قول يا شيخ .. قول .

— النهارده الصبح .. قمنا احنا الاتنين زقينا العربيه ورحنا على الكشك مليت انا قربتى وتننى رايح على السرايه دخلت السرايه وفرغت القربه وجيت خارج لقيت الفسميه اللى هناك مليانه سمك .. بتشفى .. ما اهتمتش .. أنا أصلى ما احبش السمك .. لكن بصيت لقيت فى وسط السمك سمكه كبيره كده تطلع أد الواد « على » .

وصاح على فى دهشة :

— صحيح يا سيد ؟

— أمال بكذب عليك !

— وبعدين ؟

— وقفت على حرف الفسقيه .. ورحت مادد إيدي ماسكها من رقبته .. قعدت تفلفص .. لكن على مين .. حبت تروح كده والا كده .. ما يمكنش .. رحت شايلها من الفسقيه ، ورحت فاتح بق القربه ومدخلها فيه .

— ودخلت ؟

— ما تدخلش ليه ؟ حاتمى ؟ حطيت السمكه فى القربه وأتدورت كده عشان أعدل السطيح ، بصيت لقيتها راحت مطلعها دماغها وجاريه فى الجنينه .. جريت وراها لقيتها جت عند النخله وراحت طالعة بالقربه عليها .

— طلعت على النخله ؟

— بالقربه !! ما هو دا اللى مجئنى .. لو كانت طلعت لوحدها .. ما كانش همنى .. أنا أصلى ما احبش السمك .. لكن القربه .. أمشى من غير قربه ؟ ما يمكنش .. (ثم بدأ يلقي بحكمة أبيه) : أصل السقا الأصلي ما يقلعش السطيح والقربه أبدا .. انتم شفتكم عسكرى ماشى وقالع ببلته ؟

وأجاب الصبية بصوت واحد :

— لا .

— اهو كده السقا مننا .. لازم تبقي معاه قريته .. السمكه طلعت على النخلة وأنا وراها .

— وعرفت ؟

— إلا عرفت .. حماه .

— ومسكتها ؟

— لا .. مامسكتهاش .

— ليه بقى ؟

— أنا يدوبك وصلت طرف النخلة ، لقيتها نطت من النخلة ووقفت على حرف الشباك .

— وبعدين ؟ نطيت وراها ؟

— أقول لكم الحق .. أنا أصلى ما حبش الفنتش .. أنا خفت ..

المسافة بعيدة بين النخلة وبين الشباك .. قلت يا واد تنط ما تنطش .. تنط ما تنطش !! لقيت نفسى كششيت .. وبعدين ؟!!! وبعدين فى القريبه !! أنا أصلى اللى يهمنى القريبه أصل السقا الأصيل (وعاد يكرر جملة) .

ولكن الصبية أخذوا يستحثونه بقولهم :

— وبعدين ؟ .. عملت إيه ؟

— ولا قبلين .. النخلة مليانه بلح .

— أحمر والا سمائى ؟

— أحمر .

— فيه مرطب ؟

— ماخذتش بالى .

— هيه وبعدين ؟

— رحى مادد إيدي قاطع سباطه ، ورحى مطوح دراعى وهابى

بيها السمكه .

— وتمعتها ؟

— لا . . كسرت القزاز .

— والسبكه ؟

— نطت على الأرض رحت ناطط فوقها ، السبكه قلعت القريه وجريت على الفسقيه . . فى نطتى طب أبويا ومعاها عم جاب الله . أبويا افنكر ان أنا بالعب والا بقطع بلح ، وعم جاب الله قعد يزعق على القزاز ، وأنا كنت زهقان وروحي طالعه من الجرى ورا السبكه ما استحملتش حد يكلمنى كلمه واحده ، رحت سلايب لهم القريه والسطيع وثنى مائى .

وكان الصبية قد انتهوا من أكل البليلة ودفع « سيد » الأربعة المليمات ، وسار الصبية فى طريقهم إلى الكتاب ، وهم يهطرون « سيدا » بوابل من الأسئلة عن السمكة أم قرية ، وعن البلح المرطب والفسقية . وأخيرا وصل الركب إلى الكتاب .



والكتاب يقع فى أحد الدروب المتفرعة من درب السماكين ، أو على الأصح فى أحد الفجوات المسدودة التى شبهناها بحرف U القائمة على جانبى الدرب . والكتاب ذو اسمين : اسم رسمى معتد ملتوى مكتوب على اللافتة الزرقاء الكبيرة المعلقة على بابهِ ، واسم دارج سهل جرت به الألسن وتعودت نطقه الشفاه . . أما الاسم الأول فعبثا تحاول قراءته من اللافتة فقد زاده الخطاط — بطريقة كتابته — تعقيدا فوق تعقيد ، فأنت ترى الحروف متشابكة ركب بعضها البعض والتف بعضها حول البعض الآخر فهى بالتأكيد لم تكتب لتدل على اسم الكتاب ، بل هى لغز يعجز عن حله إلا من له سابق معرفة بالحل ، فإذا وقعت أمام اللافتة ، وأنت تعرف اسم الكتاب فانك قد تستطيع

قراءته ، أما إذا نويت أن تعرف الاسم من اللفظة ، فليرحمك الله قبل أن تعرفه .

وبعد كل هذا ، اظن من الخير أن اذكر الاسم لك ، حتى اكون عوناً لك لو تذفت بك الظروف السيئة أمامه وامتحننت في قراءته .
الإسم الكريم هو .. هو .. كـت .. خوند .. لعن الله الذاكرة ..
لقد نسيني .. خـد نداخ .. إنه اسم تركي قديم اغلب ظني أنه صاحب الوقف الذي به الكتاب .

تذكرته .. أجل .. أجل .. إنه الأمير كتخدا خوندا طولباي ..
هل سمعت بهذا الأمير ؟ .. ولا أنا ، احفظوه إن أردتم ، وإن استطعتم .
تصوروا هذا الاسم مكتوباً بتلك الطريقة المعقدة ، ثم اعذروا
بعد ذلك أهل الناحية إذا ما ظلقوا اسم كتاب « الأمير كتخدا خوندا
طولباي » ثلاثاً ، أقسموا ورأسهم والف سيف ألا يسموه بغير « كتاب
الشيخ كفتة » .

أي والله اعذروهم ، فالكفتة اسم له معنى ، وهو بلا شك اطعم
من الكتخدا خوندا .. الخ .. والكفتة اسم يجري على لسانهم بسهولة -
أما الكتخدا فهو اسم لا يعرفون له معنى ولا يستطيعون له نطقاً ، وبعد
كل هذا ، أن الكتاب هو فعلاً كتاب « الشيخ كفتة » ، فهو ناظره
ومدرسه ، وهو كل شيء فيه ، أما صاحبنا الأمير كتخدا فما عاد له
وجود في الكتاب ولا على ظهر الأرض ولا يعلم إلا الله مثواه .

اجتاز الصبية الأربعة باب الكتاب ، كتاب الشيخ كفتة المفتوح على
مصراعيه ، وكان أول ما صادفوه هو « الشيخ كفتة » نفسه واقفاً على
باب حجرته يمسح بكفه على شاربه وشفتيه بعد بصقة كبيرة ختبت
سعالاً طويلاً .

وكان « الشيخ كفتة » يرتدى جبته وقفطانه ويضع عمامته على
رأسه الكبير ووجهه المنتفخ الأجنان المتاكل الأثف من آثار الجدرى .

وكان يشرف من باب حجرته على مدخل المدرسة وساحتها ، وعلى
الفصول المحيطة بالساحة .

ولم يكد « الشيخ كفتة » يبصر « سيد » حتى تجهم وجهه وصاح
بسيد :

— انت يا واد انت .. ايه اللي جابك ؟

وأجاب « سيد » ببساطة :

— رجليه .

وزاد تجهم الشيخ وقال محتدا :

— وكنت غايب ليه ؟

— ما كانش ليه كيف يا سيدنا الشيخ .

— يعنى إيه ما كانش لك كيف ؟ هى المدرسه بالكيف ؟

— قصدى كنت عيان شويه .

— وفين أبوك ؟ .. أنا مش حا اقبلك فى المدرسه من غير ما تجيب

أبوك .

— أبويا وراه شغله .. ما يقدرش يعطله .

— أنا أصلى عارنك ولد لعبى وبطل .

— الله يسامحك .

— متردش .. أنا حاقبلك المره دى .. والمره الجايه لو غبت

مش حدخلك من غير أبوك .. مفهوم ؟ .

— مفهوم يا سيدنا الشيخ .. على عينى ورأسى .

— جاك خابط فى رأسك .. خشن انجر .

— حاضر .

— وانجه « سيد » لاحقا برفاقه وهو يدمدم :

— طيب يابن الأروبة .. الصبر طيب .. كله بطلع فى الغسيلى ..

والنبي لاطلع على جتتك البلا .. واخلص الموشع اللى صابح تحديهولى

على الصبح .

وسمع الشيخ الدمدة ، ولم بشك فى أنها سباب ، فصاح بالصبي :

— بتقول إيه يا ولد ؟ .

— بدعيلك يا سيدنا الشيخ

ثم همس لأصحابه :

— ادعوله .. ادعوله .

وأجابه أصحابه فى مثل همسه :

— الله يخرب بيت أبوه .

— دا راجل طيب .

— الله يخرب بيت أبوه .

ثم انطلق الأربعة يقهقهون ويتواثبون أمام « الشيخ كفتة » .. . ولم يجد الرجل بدا من الاتزواء فى حجرته .

وكانت ساحة المدرسة رحبة مربعة الأضلاع ، الضلع الأول منها يتوسطه باب الدخول والدهليز الذى يعبر بين حجرتين حجرة الناظر على اليسرة ، أما حجرة المينة فكانت كشكول يحوى مخزن المدرسة والكائنتين والإدارة والمصلى وعم جواده والشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت .

أما الثلاثة الأضلاع الباقية المحيطة بالساحة ففى الضلع المواجه توجد حجرة بها « سنة ثالثة » ودورة مياه مكونة من مرحاض قذر مرطوب ملوث الجدران مشقتها ومسقى (أعنى حجرة للشرب) بها حوض من الزنك قائم على سيقان خشبية ربطت به بعض أكواز من الصفيح .. وكان السقا يملأ الحوض كل صباح ويشرب منه الأطفال بالكيزان بعد أن ترسب الرمال فى قاعه أو بعد أن يرشحونها بمناديلهم بوضعها على فوهة الأكواز .

وفى الضلع القائم على يمين الداخل توجد « سنة أولى » وفى الضلع القائم على اليسار توجد « سنة ثانية » .

وكانت تتوسط الساحة نخلة تعتبر فى المدرسة بمثابة الشيطان فى الدنيا .. ولولاها ما وضعت فى « الفلكة » سيقان وما هوت « الفرقة » على إبدان .

كان الصبية ييكرن للحصول على ثمرها .. وكان الشيخ « كفتة » ييكر لضبطهم متلبسين بجريمتهم فلا يكاد حجر يتصاعد إلى النخلة حتى يكون « جرادة » قد قبض على عنق قاذفه ووضع ساقه فى الفلكة ، ويكون الشيخ كفتة رافعا يده « بالفرقة » هاويا بها على قدميه .

ولم يكن أصحابنا فى وصولهم هذا الصباح إلى المدرسة بالبكرين ولا بالتأخرين ، وكانت الساحة قد تفرق فيها بضعة صبيان يتحدثون ويلعبون ، وكان عم جرادة قد اتخذ مكانه وسط مطعمه المتنقل تحت النخلة .

كان « عم جرادة » عماد المدرسة والقاسم المشترك الأعظم فيها .. والقدير على كل أعمالها .. كان من ناحية الشكل أشبه بالجرادة ، فهو رفيع الأطراف طويلهما ، تبدو أسنانه السوداء المدببة كأنها المنشار وهو يسير حاملا صفيحتيه المدلتين من حبلين ربطت نهايتهما فى نشابة خشبية محملة على كتفيه .

كان « عم جرادة » كغراش يقوم بنظافة المدرسة وإصلاح أدواتها وإعدادها ، وكان كمتعهد كانتين يقوم بشراء الأطعمة والحلوى وبيعها للأطفال ، وكان كضابط يقوم بعقاب التلاميذ إذا ما أخطأوا إما عقابا مباشرا بسبهم وضربهم من تلقاء نفسه ، وإما عقابا غير مباشر بتقديمهم إلى سيدنا الشيخ ، وكان كمدرس يقوم مقام الشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت إذا ما تغيب أحدهما أو تغيبا كلاهما ، وكان كناظر يقبض المصروفات ويحل ويربط فى المدرسة إذا ما غاب الشيخ كفتة .

وأخذ الصبية يتوافدون على المدرسة زرافات ووجدانا حتى اكتظت بهم ساحة المدرسة ، وعلا الصراخ وارتفعت الضجة حتى أصبحت الساحة كأنها عش الزنابير ، ووسط هذا الخليط الصاخب اللاعب

كان « سيد » يتوسط جماعة منهم وهو يحاول أن يقف على يديه بعد أن أعطى لوحه لعلی .

ونجح « سيد » فی الوقوف على يديه والسير بضع خطوات وقد سقط جلبابه على رأسه وسقط طربوشه على الأرض وبدأ عاريا مقلوبا باللباس والفائلة . وصفق الأولاد ، واعتدل هو منتصبا على ساقيه وتناول الطربوش فوضعه على رأسه . : وتناول اللوح من « علی » وصاح متفائرا :

— ها . . حد فيكو يعرف يعملها ؟

واحجم البعض وانبرى البعض محاولا محاولات فاشلة . واخيرا وضع « علی » ذراعه فی ذراع « سيد » وسحبه من بين الجمع قائلا فی تفاخر :

— دانئت ابو السيد والاجر على الله .

وما كادا يسيران خطوة حتى قال « علی » :

— مش حاتشتري لنا حاجه ؟ .

— حاجه إيه ، إحنا مش لسه واككين البلبيله ؟ .

— تصدى تشتري حاجه من عم جواده . . أنا شايف عنده موز حلواه كويس .

— لا يا شيخ . . أنا ماحبوش .

— طب إيه رأيك فی الطعميه اللى تقدمه . . شامم ريحتها . . حاجه تفتح النفس .

وأخذ « علی » شهيقا طويلا مغريا « سيدا » . . وأخذ « سيد » مثله فنفذت رائحة الطعمية إلى خياشيمه وكانت الرائحة فعلا اخاذة فقال ضاحكا :

— معاك حق . . يا الله ناخذ كل واحد بنكله . . انت مش معاك مبيش ؟

— معايا .

— طيب يا الله بينا .

ووقف سيد أمام عم جرادة وقال متخذا لهجته الرجالية :

— صباح الخير يا عم جرادة .. ازاي الحال ؟ .

ولكن « عم جرادة » لم يكن لديه الفراغ لكي يأخذ معه في الحديث ويعطى ، فقال له في إقتضاب :

— عاوز إيه ؟

— عاوز بأربعة مليم طعميه ، كل بنكله لوحده .

— مافيش طعميه لوحدها ، لازم طعميه وعيش الشقه وطعميتين

بتلاته مليم .

— مين قال كده ؟

— اللي حصل .

— لكن أنا عاوز طعميه بس .

— مافيش ، روح بقى بلاش خوته خليفنا نشوف غيرك .

وملأ الفيظ « سيدا » وبدا اليأس على وجه « على » وهو يرى « سيدا » يهم بالانصراف فقال له :

— معلهش يا سيد .. اشترى وخلاص .

وأجابه « سيد » هامسا :

— إذا كان معانا العيش .. اشترى طعميتين بتلاته مليم !! .

دا نصاب ، دا ابن كلب حرامى ..

— وحانعمل إيه بقى يا سيد ، مالحنّا مافيش أدامنا غيره .

ولكن سيدا جذب يده وهم بالانصراف ، فقال « على » في لهجة آسفة :

— أنا لو كان معايا فلوس .. كنت اشترت .

وأحس سيد بجرح لكبريائه من كلمة « على » ، فاستدار في حدة

وقال لعم جرادة في غيظ :

— هات شقتين .

وأمسك عم جرادة الشقتين فوضع فى كل منهما طعميتين وناولهما للصبيين .

وأمسك كل منهما بشقته ووضع « سيد » يده فى جيبه لأخراج النقود ثم أخرجها ووضعها فى جيبه الآخر وأخذ ينقلها من جيب لآخر بسرعة وأرتباك وحيرة ، وقد علا وجهه الاصفرار وهمس لعلى قائلاً :
— اسمع ، أنا متش لائقى الفلوس .

— يمكن الرجل بتاع البليله ما اداكش الباقي ؟

— لا ، ادانى .

— افكر كويس ؟

— فاكركويس قوى .

— أمال يعنى راحوا فمين ؟

وضع « سيد » كفه على جيبه كأنه قد تفكر .. وقال لعلى رافعاً
سبابته :

— لازم وقعوا وأنا باتتشقلب .

وكان « عم جرادة » يرقب تردهما وحيرتهما ، فصاح بهما حائاً :
— الفلوس .

وقال « على » مهدئاً :

— استنى شويه يا عم جراده لما يدور عليهم .. الظاهر انهم وقعوا .

ولكن « جرادة » لم يتمهل بل قفز من وسط الصفائح والصوانى وأطبق بكتلا يديه على الشقتين واستعادهما من بدى الصبيين صائحاً :

— لما تبقوا تلاقوا الفلوس .. ابقوا تعالوا اشترؤا .

وتأبط « على » ذراع « سيد » ، وقال وقد أطرقت برأسه ذليلاً
محسوراً :

— معلش يا سيد .. تعال ندور عليهم هناك مطروح ما كنت بتتشقلب .

ووقف الإثنين يبحثان عبثاً فى منطقة الشقلبية ، وأخيراً قال « سيد »
فى صوت مهدد :

— أنا حاوريه .. تعال .

وجذب « على » من يده .. واتجها إلى عم جرادة ، وقال « سيد »
هامساً :

— اسمع يا على خليك واقف ورا النخلة .. وكل اللى عليك تعمله
إنك أول ما تلاقى « عم جراده » ساب مطرحه مد إيدك خذ اللى يعجبك .
— وإذا شافنى حد ؟

— ما تخافش .. مافيش حد حايشوفك .

— لكن دى سرته ؟

— سرته سرته .. مالكش دعوه انت .. ربنا يبقى يحاسبنى أنا ..
الراجل « عم جراده » يقاله خمس سنين بيسرقنا . لما نسرته مره ..
ما افتكرش ربنا يزعل .. فاهم .. كل اللى عليك انت تقف ورا النخلة
وتأخذ اللى انت عايزه ، ومافيش حد يشوفك أبدا .

وذهب « على » فأخذ يسير متلكتا حول النخلة حتى استقر وراء
« عم جرادة » .. واتجه « سيد » إلى الحجرة المشتركة بين المدرسين
والمخزن و « عم جرادة » والكائنة أمام حجرة الناظر حتى وقف بجوار
نافذتها المطلّة على الساحة ، وأطل برأسه فلمح الشيخ عبد الرسول
والشيخ ثابت وقد جلسا على إحدى « الدكك » وقد دب كل منهما يده
فى طبق فول مشترك .

وعلى حين غرة صاح « سيد » بأعلى صوت :

— حريقه .

وقفز الشيخان من مكاتهما مذعورين وصاحا فى نفس واحد بأعلى
صوت :

— حريقه .

ووصلت صيحاتهما إلى « الشيخ كفتة » فاندلع من حجرته وهو

بصيح بأعلى صوت وهو لا يرى شيئا :
— حريقه .

وهاج الطلبة وماجوا واندفعوا نحو الباب يتدافعون بالمناكب والأيدي
ويصبحون :
— حريقه .

واندفع « عم جرادة » بلا وعى إلى اتجاه الباب ليتبين أين الحريقة .
وهكذا اندفع كل من بالمدرسة وراء الحريق ، ووجد « على »
نفسه « بقدره قادر » وقد وقف وحده أمام أصناف الأطعمة بلا رقيب
ولا حسيب .

وهم أن يأخذ ما يريد ، ولكنه وجد الكل مندفعين إلى باب المدرسة
فى هياج وجنون ، فلم يدر إلا وهو يندفع وراءهم ويصيح هو أيضا :
— حريقه .

واحد فقط هو الذى لم يكن يجرى مع القطيع ، وهو « سيد » ، فقد
انزوى فى أحد الأركان ، وكانت دهشته شديدة حين رأى صاحبه الغبى
يجرى وسطهم مذعورا . . وهتف لنفسه فى أسى :
— يخرب بيتك . . أنت كمان بتجرى ورا الحريقه وأنا عاملها
علشانك ؟

ثم اندفع بسرعة إلى المأكولات المستقرة تحت النخلة ، وأخذ يعبىء
فى جيبه بسرعة ما خف وزنه وغلا ثبته .
ورويدا رويدا هذا القطيع عندما أعياهم البحث عن مكان الحريق
الذى أفزعهم كل هذا الفزع . . وبدأ الناظر تحقيقه عن مصدر هذا
العبث .

فشهد الجميع ومن بينهم جرادة — الذى لم يكن الناظر يشك
فى شهادته — أن أول من استغاث من الحريق هما الشيخ ثابت والشيخ
عبد الرسول .

وحاول الشيخان عبثا أن يقنعا الشيخ « كفتة » أنهما سمعا الاستغاثه من الداخل . وأنهما كانا ضحية مؤامرة .. ولكن الشيخ اندفع فى تقريعها قائلا :

— دى مسخره .. دا لعب عيال .. أنا لازم اشوف شغلى معاكم .. انتم عاملين زى تنابلة السلطان .. اكل ونوم .. والواحد منكم آخر الشهر يقبض الماهية وهو نايم .

وفى تلك اللحظة كان « سيد » و « على » قد انزويا فى حجرة الشرب ، واخذ « سيد » يخرج الطعمية من جيبه قائلا فى لهجة خليط من الفرحة والسخرية :

— خد اتسمم .. الطعمية نقت على الجلبيه واللباس ، حضرتك بتجرى ورا الحريقه ؟

— والله أنا لما لقيت المدرسه كلها بتجرى .. قلت لازم حريقه صحيح .

— معذور .. أنا كمان الفار لعب فى عبي ، وكنت حاجرى .. ولكن قلت يا واد عيب .. خليك ثقيل .. خد يا عم .. وادى كمان مؤز من اللى كنت عايزه .. وادى شوية براغيت الست ، وادى حقتين خيار مائل للفدا .. مبسوط يا عم .. إيه رأيك ؟

وقبل أن يبدى « على » رأيه كان « جرادة » يدق الجرس وكان الصبية يصطفون استعدادا للدخول إلى الفصول .

اصطلت الطوابير الثلاثة فى ثلاثة أضلاع ، كل طابور أمام الفصل الذى سيدخله . وفى الضلع الخالى وقفت ادارة المدرسة وهيئة التدريس وجميع المهيمين على مرافقتها .

وقف الأربعة الكبار .. كفتة وعبد الرسول وثابت وجرادة وقد أمسك كل منهم باحدى أدوات الارهاب : كفتة بالفرقلة يطرقع بها على جانب فخذ ، وثابت وعبد الرسول كل منهما بخيزرانة ، وجرادة بالفلكة يعيد ربط أحبالها جيدا .

وكان « على » يهمس فى اذن « سيد » :

— الطعميه سخنه .. اعمل فيها إيه ؟

— اثبت .. اوعى تتحرك .. لحسن ننكشف .

— حافظل مخليها لامتى ؟

— لغاية ما تخش الفصل .

— وبعدين ؟

— ناكلها .

— ازاي ؟

— اول حصه عندنا قرآن ، ورينا يسهل ويخلى الشيخ عبد الرسول

ياخد له تعميله زى عوايده ، وناكل زى ما احنا عايزين .

— لكن افرض ...

ولكنه لم يتم سؤاله فقد أسكته صوت « الشيخ كفته » يصيح

ناهرا قبل ان يبدأ خطبته الصباحية :

— الواد اللى بيتكلم ده يسكت أحسن له لحسن آجى اكسر الفرقله

على دماغه .

وكان هذا هو انذاره العام الطبيعى قبل أن يبدأ حديثه ثم بدأ

الحديث قائلا :

— اسمع يا واد يابن الكلب منك له .. بقى انا بقالى ثلاثين سنه

فى المدارس ماوردش على اللى حصل النهارده . ثلاثين سنه ماشفتش

هيجان وزيطه زى اللى حصلت دلوقت ، وعلى إيه .. على الفاضى ..

حريقه .. حريقه .. انا بدى أعرف مين اللى عمل الفصل ده عشان

انقصه قدامكوا هنا ... أشرحه .. انا كنت ناوى أجلدكم كلكم ..

لكن حاسبكم المره دى .. عشان انا عارف مين اللى يستاهل الجلد

حقيقى (ثم نظر بطرف عينيه إلى ثابت وعبد الرسول) ، ودلوقت عايزكم

تخشوا الفصول من سكات .. ياللا ..

ودارت الطوابير وبدأ أفرادها يدخلون الفصول مرادى متخذاً كل منهم مجلسه فوق التختة الخشبية .

وجلس « على » بجوار « سيد » واضعاً كل منهما لوحة الصفيح وقلمه البسط على ظهر التختة ، دانعا بمحتويات جيبه فى باطنها ، ولم يتح لهما دخول « الشيخ عبد الرسول » فى أعقاب التلاميذ فرصة التمتع بشيء من محتويات الدرج ، فجلس كلاهما فى علق ولهفة يرقب فرصة غفلة من الشيخ حتى يدفع فى فيه بقرص طعمية أو بقطعة خیار .
وامسك « الشيخ عبد الرسول » بقطعة الطباشير وكتب التاريخ الهجرى ، ثم كتب فى منتصف السبورة « قرآن كريم » .

والتفت إلى التلاميذ قائلاً فى تودة :

— النهارده حانبتدى « سورة عيسى » .

وهمس « على لمسيد » :

— وعيسى دا يبقى مين دا كمان ؟

— أنا عارف ؟ لازم يبقى واحد من اعداء النبى زى أبو لهب وأبو

جهل .. باين كده من اسمه .

ولم يقتنع « على » ورفع أصبعه إلى أعلى صائحاً :

— سيدنا الشيخ ؟

— عايز إيه يا واد ؟

— عيسى دا يبقى مين ؟

— مثن ضرورى تعرف .. انت عليك أنك تحفض من سككات ، ومن

غير غلبه .. غاهم والا لا .. ناقص بقى تقول لى مين تولى ومين الأعمى -

ثم وجه القول إلى التلاميذ :

— دلوقت. امسحوا السوره القديمه من على الألواح .

وكان قوله هذا بمثابة أمر بالبصق ، فقد اطلق كل منهم أكبر بصقة

جاء بها لعبابه على السورة القديمة كان بينهما ثارا ، ثم أمسك بخرقه تذرّة

سوداء من كثرة ما علق بها من مسح الكتابات السابقة وأخذ فى تحريكها على صفحة اللوح بحركة دائرية سريعة ماحيا كل اثر لبقايا السورة .

وترك « الشيخ عبد الرسول » فرصة للمسح ثم بدأ حديثه :

— دلوقت كل واحد منكم يكتب التاريخ فوق ويكتب فى وسط السطر قرآن كريم وتحته جزء عم .. خلاص .. اكتب بقى .. « بسم الله الرحمن الرحيم .. عبس وتولى .. أن جاءه الأعمى » .

واستمر « الشيخ عبد الرسول » فى الإملاء وهو يلوك الكلمات فى فمه كأنه يمضغها مضغا ويحرك شفتيه بمخارج الحروف فى حركات مبالغه كأنه ممثل فى سينما صامتة .

وفى خلال الإملاء همس على لمسيد فى ملل وضيق :

— لسه فاضل كثير ؟

— علمى علمك .. يعنى هوا انا كنت دخلت جوا السوره .. انا لا اعرف عبس ولا عمرى شفته .

— لكن انا بطنى نونوت .

— استنى شويه .

— والطعميه حاتبرد .

— معلش استحمل .

وأخيرا بدأت التباشير عندما صاح الشيخ عبد الرسول « صدق الله العظيم » . وهمس « على » فى فرحة شديدة :

— يا سلام .. أهى دى أكرر حاجه بالحبها فى السوره .

وقال « الشيخ عبد الرسول » معقبا على السورة :

— دلوقت خلصنا كتابه وعازين نبتدى الحفظ .. مش عايز واحد منكم يون والا يسكت .. يالله ابتدى .

وكان امره هذا بمثابة إطلاق للألسنة من عقلاها .. أولاً بذانا بثورة ، فقد اندفع الصبية بالصياح مرة واحدة هاتين :

— عبس وتولى أن جاءه الأعمى .. عبس وتولى أن جاءه الأعمى .

واخذوا يكررونها وهم يحركون جذعهم الأعلى إلى الإمام وإلى الخلف فى ذبذبة سريعة أشبه بحركة بندول الساعة ، ووقف الشيخ عبد الرسول يرقبهم ، وأخذ يحرك بصره بينهم على يكتشف مكسالا لم يشارك الجمع فى ضجته وهياحه فلما اطمأن رفع عصاه وهزها فى حركة انذارية قائلا :

— مش عايز واحد صوته يوطى .. بكره حاسمها لكم كلها ..
واللى مش حالاقته حافض .. حاطط نفسه .. أنا حاوصل لحد دورة
اليه .. عايز اسمع صوتكم من هناك .

وخرج « الشيخ عبد الرسول » ليقضى حاجته واموات الزنابير
تطن فى أنحاء المدرسة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

ولم يكد الرجل يخفى حتى بدأت الضجة تخفت وأخذ الصياح
يتضاءل ، حتى انتهى إلى سكونة نسبية لا يسمع فيها إلا أحاديث الصبية
بأصواتهم العادية وتعليقاتهم ونكاتهم .

وكان أول ما فعله « على » بعد خروج الشيخ أن هتف لصاحبه :

— هيه .. أطلع ؟

— أصبر شويه .. لحسن الرجل يرجع : « عبس وتولى أن جاءه
الأعمى » .

— خلاص مشى .. ماتخافش .

وعندما اطمأن سيد إلى ذهاب الرجل كف عن ترديد السورة ،
ومد يده فى الدرج فأخرج الطعمية وقال لعلى :

— مش معاك عيش ؟

— أبوه .. مربوط فى اللفه .

— طيب هات لقمه .. والا حناكلها حاف ؟

— مافيش وقت للفتح والتفل ، ناكلها حاف أحسن .

— على رايك .. العيش اهو بناكله فى كل وقت .

ولمح دقدق الحمى — وكان يجلس فى أقصى الفصل — فكى الصبيان
وهما يمضغان ، فصاح بسيد :

— بتاكل إيه يا وله يا سيد ؟
— طعميه .

— هات حته .
— خلصت .

— اخص عليك .. أنا مش مدبك امبارك بطاطايه ؟
ونظر إليه « سيد » فى غيظ وصاح به :

— دى ما كانتش حته بطاطايه دى اللي حاتزلى عليها .. أنا مش
ادينك تصادها حته نبوت غفير .. كل شويه تقوللى البطاطايه ..
يلعن أبو دى بطاطايه .. لأبو اللي ياخذ منك حاجه بعد كده .. خد .
واخرج من الدرج قرص الطعميه الباقي .. ثم قذفه بقوة فى اتجاه
دقدق .

ولم يكد « سيد » يقذف القرص ، حتى انبعثت فى الفصل ضجة
مفاجئة ، واندفع الصبية فى ترديدهم الجنونى : « عيس وتولى أن
جاءه الأعمى » .

كان الشيخ عبد الرسول قد عاد ، وفى اللحظة التى وطأت قدمه
عتبة الباب كان قرص الطعمية ينطلق كالقذيفة ، عابرا الفصل من أدناه
إلى أقصاه .

ولمح الشيخ عبد الرسول القرص الطائر ، ورآه يهبط فيستقر
على درج « دقدق » دون أن يعنى الضبى بأخذه .. بل تركه يتدحرج
ليسقط على الأرض ، وهو مستمر فى ترديد السورة ، والتراجع إلى
الأمام وإلى الخلف ، كان القرص لا يعنيه .

وضرب « الشيخ عبد الرسول » بالخيزرانة على اقرب درج له ..
فكف الصبية عن الصياح ، وحبلتوا فى وجهه منصتين .
وصاح الشيخ مشيرا بطرف عصاه إلى دقدق :

— هات ده .

وهز ددق راسه كأنه لا يفهم ما يعنى الشيخ ، وعاد يصيح ناهرا :
— هات الطعمياه اللى وقعت دى .

ونظر « ددق » حوله فى دهشة كأنه لا يعرف شيئا عن قرص
الطعمية .. ثم مد يده فرمعه واحضره للشيخ .. وعاد الشيخ يصيح
متسائلا :

— إيه ده ؟

— طعميه .

— جت منين ؟

— إيش عرفنى .

— مين حدنها عليك ؟

— مئش عارف .

— أنا شفتها طابره فى الهوا وقعت عليك .

— وأنا برضك شفتها زيك كده .

— يعنى ما تعرفشى مين حدنها ؟

— أبدا .

والتفت الرجل إلى الصبية وصاح بهم متسائلا :

— مين اللى رمى دى ؟

ولم يجب أحد .

— ما فيش حد شافه ؟

واستمر الصبية فى صمتهم .

وزاد غضب الرجل ، وازداد هديره وصاح مرعدا :

— يعنى السبأ بمطر طعميه .. طيب أنا حاوريكم .. قوم اتقف

منك له .

وبدا الرجل بتفتيشهم وتفتيش أدرجهم .. ولم يكذ يقترب من « سيد » حتى توقف أمامه ثم أخذ فى شمه قائلا له :

— افتح بقلك .

وشم الرجل فمه وقد بدت عليه علامات الفوز وأردف قائلا فى شماته :

— افتح درجك .

ولم يكذ يلقي بنظرة على درجة حتى قبض عليه من عنقه صائحا :

— انت ما فيش غيرك .. انا عارفك كويس .. افتح إيدك .

ولم يجد « سيد » بدا من تحمل العقاب ففتح يده راضخا ، ثم ركع على ركبتيه كما أمره الشيخ مواجهها الحائط .. رافعا يديه إلى أعلى وذهنه يعمل بسرعة يفكر فى وسيلة للثأر من الشيخ عبد الرسول .

وحانت الفرصة سريعا عندما وجد الشيخ يقترب منه معطيا وجهه للتلاميذ موليا ظهره له فمد يده بسرعة ونزع دبوسا يشبك به زر طربوشه .. ثم وضعه عموديا فى جبة الشيخ ووضع الزر فى جيبيه .. ثم رفع يديه كما كان .

ولم تمض لحظة حتى اتجه الشيخ إلى كرسيه ثم هبط عليه مادا أطرافه محاولا إراحة جسده ، ولكنه لم يكذ يستقر على الكرسي .. حتى ففز صارخا صرخة حادة مستغيثا بقوله « آى » .

وقبل أن يبدأ التحقيق كان الجرس قد قرع ، وانطلق الصبية يعدون فى الفناء .

ومرت الحصة تلو الحصة حتى حلت فسحة الغداء قبل الثانية عشرة ، وجلس « سيد وعلى » على عتبة أحد الفصول واضعين بينهما لفافة « على » ، وقد فتحها وأخرج ما بها من رز ولحم وكفتة وبلح .

وأخذا يتناولان طعامهما ، وهما يتساهران .. وبعدان العدة لما

ينويان ان يفعلاه بعد الظهر ، ومر بهما « ددق » فصاحا به متشبثين ،
وقال « سيد » داعيا :

— تعال يا ددق كل .

— انا رايع اشترى غدا من جراده .

— نعال يا شيخ ، الأكل كفايه ، لقمه هنيه تقضى ميه .

— طيب اما اشترى حاجه وآجى أكل معاكم .

وذهب ددق إلى مطعم « جرادة » تحت النخلة وقد تراحم حوله
الصبية .. واخذ الرجل يفرف من صفيحتيه التى امتلأت إحداها بالفول
النابت وماء الفول النابت .. والأخرى امتلأت باللفت وماء اللفت ،
وكانت الصفيحتان هما عباد مطعم جرادة والحاويتان الأهم اغذيته .

وبعد برهة عاد « ددق » إلى صاحبيه ، حاملا بيديه طبق الفول
وعليه العيش وباليد الثانية طبق اللفت .

وبينما هم منهمكون فى الأكل صاح « سيد » فجأة :

— يا خبر .. دانا كنت ناسى ؟

وسأله ددق :

— ناسى إيه ؟

— النهارده المولد .. النهارده الليلة الكبيره .

— أيوه حقيقى .. لازم نروحه .. انا شايغهم ناصبين تياترو فى
الخرابه اللى ورا الجامع .. وشايف شوارد تاتيه .. ما اعرضش فيها
إيه .

— حقنا نقول للشله كلها عشان نروح سوا .

— دلوقت نقول « لزين » و « عبد الله » و « سيد » .. واحنا

مروحين نفوت على « حريشه » و « زكى » .

وانتهى الصبية من الطعام ، وانتهت الفسحة وعادوا إلى فصولهم
لاتمام دراسة اليوم .. ما بين قرآن ، وحساب ، ولغة عربية .

وأخيرا انتهى اليوم الدراسى وخرج الصبية متزاحمين على باب المدرسة .. وما لبثوا حتى تفرقوا فى الدروب والطرقات .. وسار « سيد وعلى » وبقية الثلة عائدين إلى درب القط وهم يتواثبون فى الطريق ... وان كان « سيد » لا يفتأ يتنكر حادثة الصباح بين آونة وأخرى ، فتثقل على نفسه ، ويزداد ثقلها كلما قربت المسافة إلى البيت .. وقرب منه طيف أبيه وما ينوى أن يفعله معه .

واخذ يطمئن نفسه .. مبعدا عنها طيف عقاب تادم .

ماذا يمكن أن يفعل به أبوه ؟ ان أقصى ما كان يهدده به هو إعادته إلى الكتاب ، وقد اقدم عليه هو بنفسه دون حاجة منه إلى انتظار حكم أبيه ، والواقع أن الكتاب ليس بالشئ الكرهى إلى هذا الحد .. حقيقة انه سيحرم من حديقة السراية ومن البلخ والجوافة ، ولكن أى متعة دائمة فى هذه الحياة ، وأى نعمة مقبلة ؟

ولكن هل ترى الأب سيكتفى بهذا العقاب ؟ أم تراه سيضربه ؟ وحتى لو كان ينوى أن يضربه .. فليضربه .. علة تقوت ولا حد يموت .

وأخيرا وصلوا إلى الدرب ، وتفرق كل منهم إلى بيته بعد أن اتفقوا على اللقاء تحت « التوتة » ودخل على وسيد بيتها فاندفع على يصعد السلم وسار سيد فى الفناء مسترقا الخطى ..

كانت الساعة تقرب من الثالثة والنصف ، وكانت أم آمنة فى جلستها الشاردة الحزينة وقد أسندت خدها على كفيها وأمسكت عصاها بيدها الأخرى ملوحة بها على الأوزتين فى حركة لا إرادية ، ولكنها لم تكد تسمع خطا الصبى المتسللة حتى انفجرت أساريرها وصاحت منادية :

— سيد ؟

— إيه يا ست .. ما ترعقش كده .. هو أبويا هنا ؟

وضحكت « أم آمنة » وقالت :

— ما تخافش .. أنا استسمرت خلاص أول ما جه .. وسامحك ..
هو فيه أطيب من قلبه .. قلبه أبيض زى حنة البفتة .. بس إياك ربنا
يهديك وتبطل الشقاوه .. أنا ما رضيتش أقول له على الجلابيه اللي
انت مقطعتها .. أنا جيت النهارده اغسلها لقيتها طلعت فى إيدى ..
انت أصلك معجون بمية عفاريت .. تعال هنا عندى .

واقترب منها وارتى فى أحضانها فضمته فى لهفة وشوق وقالت له :
— جعان ؟ أجب لك تاكل .. والا تستنى لما ابوك يصحى ..
هو مارضاش ياكل إلا لما تيجى ونقعد ناكل سوا .. وزمانه حايصحى .
— أنا مش جعان قوى .

— كلت إيه ؟

— كلت مع على .. أمه كانت مدياله كفته ورز ولحمه وبلح .

— وعملت إيه بالساغ ؟

— اشتريت بأربعه مليم بليله .

— والسته مليم ؟

— وقعوا منى وأنا بتشقلب .

— ان شالله تتفضح .. الشقلبه دى لزومها إيه .. ربنا خلقتك
عدل تتشقلب انت ليه .. بس اعمل فيك إيه ؟ . ربنا يهديك .. ويحبب
خلقه فيك .

ثم استمرت فى دعائها الطويل ، فلم تنته منه إلا على صوت طرق
بالباب .

الفصل السادس

فى المولد

كان الطارق هو شحاتة انندى ، وقد وقف بالباب بنفس منظره الذى كان عليه بالأمس . . ينقصه الجاكطة ويزيد عليه لفافة كبيرة فى احدى الصحف القديمة قد وضعها تحت ابطه . . .

وقبل ان يجيب على سؤال ام آمنة التقليدى « مين ؟ » . كان « سيد » قد ترك أحضان جدته واندفع إلى الرجل مرحبا به ترحيب صديق أو قريب ، وهو يهز يده ويقول :
— أهلا وسهلا عم شحاته . . اتفضل .

لقد احب « سيد . . عم شحاته » لأنه كان بادى الطيبة ، سليم الطوية ، مرحا مهزارا طروبا . . كان من نوع لا يمكن إلا أن يحب .

ولكن « ام آمنة » لم يبد على وجهها كثير ترحيب ، فقد كانت الصورة التى ارتسمت فى ذهنها عن « شحاتة » (مما قصه عليها « شوشة » باختصار عن واقعة الأمس) هى صورة محتال نصاب تسبب فى خسارة « شوشة » اربعة قروش ذهبت مسدى بلا أمل فى استردادها .

وكان أول ما فعله « شحاتة » عندما اندفع إليه « سيد » مرحبا هو أن مد يده فى جيب جلبابه واخرج منه نايا صغيرا وأعطاه « لسيد » قائلا :

— ايه رأيك فى الصغاره دى ؟

— لمين ؟

— لك .. انا جاييها لك مخصوص .. كويسه ؟

— هاليه .

وعقب « سيد » الناي الصغير فى يده ، ثم نفخ فيه بشدة ، ولكن « شحاتة » تناوله منه وأخذ ينفخ فيه برفق ويحرك عليه أصابعه مصدرا نغما لطيفا راقصا .. قائلا لسيد :

— كده .. انا حاعلك ازاي تزمز بيه .. أهال فين أبوك ؟

— أبويه جوه .. كان مقيل شويه .. أصحيهولك ؟

— لا ماتلقوش .. أفوت عليه كمان شويه .

وهنا سمع صوت « شوشة » يصيح من الداخل :

— مين يا واد يا سيد ؟

وما لبث حتى بدا بباب الشقة ، ولم يكدر يرى « شحاتة » حتى صاح به مزحجا :

— أهلا وسهلا .. انتفضل .

واقترب « شحاتة » مصانحا « عم شوشة » وجذبه معه إلى داخل البيت ، بينما انهك « سيد » فى الصغير بالناى .

واستقر الرجلان على الشلطة المواجهة للأريكة المنهارة . وبعد تبادل التحيات مد « شحاتة » يده إلى جيبه وأخرج منه بضعة قروش سلمها إلى « شوشة » قائلا :

— الأربعة ساغ أهم يا معلم .

— وليه التعب ده .. أنا مش قلت لك على مهلك قوى .. أنا مش مستعجل عليهم .

— كتر خبيرك . أنا عمرى ما نيش دين تعبنى اد دينك أنا مش هانسى جميلك أبدا .. انت عملت جميل فى راجل ما تعرفوش ..

ولا تعرف إذا كان حابره والا لا .. انت عملت معروف .. لله .. ودا
المعروف الحقيقي .

وضحك « شوشة » قائلا :

— ولا معروف ولا حاجه يا أخى .. انت أصلك راجل طيب ورزقت
فى رجلك دى كل الحكايه .. ربنا هو اللى بيعت .. مش العبد .

ولم يجد « شوشة » بدا من أخذ النقود ، وهم « شحاتة »
بالنهب ، ولكن « شوشة » صاح به مجلسا إياه :

— على فين ؟

— نقوم نشوف شغلنا .

— والله ما انت آيم طوقت ... أقعد اما ناكل لقمه معنا .. احنا
لسه ما تغديناش .. أنا كنت تعبنا شويه ، وقلت أستنى « سيد »
لما يرجع بن الكتاب .

ثم صاح مناديا ابنه :

— يا سيد ، واد با سيد .

وكف سيد عن التفتخ فى النأى ودخل ملبيا نداء أبيه :

— قول لستك تعضر لنا الأكل .. أنا حاكى أنا و « شحاتة أفندى »
.. هات الطبلية هنا .

ثم نهض إلى الفناء متجها إلى « أم آمنة » وقال فى صوت خافت :

— الراجل الغلبان بتاع امبارح جه يرد الدين .. شفتى بقى الأمر
من كده .. أنا حاخليه ياكل لقمه معايا .. مش فيه أكل كفاهه ؟

— فيه يا خويا أوى .. لازم تمسك فيه .. أنا كنت كارهاه لما حكيت
لى عنه امبارح افتكرته نصاب .. ظلمته .

— على العموم ابعنى « سيد » يجيب لنا حتة جبنه ورطلين بلح
مع الأكل الموجود .

— اطمئن يا خويا عندنا كل حاجه .. خيرك كثير .. الجبنه موجوده
والبلح موجود ، وزكيه نزلت عملت لنا كام طبق كشك بالكبييه ، ونلفلت

شوية رز .. خش بس انت مع الضيف ، وانا ابعت لك كل حاجه ..
اتعد في اودتك لغاية ما قوم انا اوضب لك الطبلية .

وعاد « شوشة » إلى « شحاتة » فنهض معه إلى حجرته ، وجلس
الاثنان على حافة الفراش يتسامران .
وكان ذهن « شحاتة » قد شرد في الآيات القرآنية المعلقة في
مدخل البيت .

وعاد يستعيدها في ذهنه :

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس
والثمرات ، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله
وإنا إليه راجعون » .

« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون » .

هذه الآيات لم توضع سدى .. ولم تعلق اعتباطا .. ان واضعها
ينشد بها الصبر ، ويريد بها أقوالا تشد أزره وتخفف عنه وقع مصاب
نزل به .

« والصابرين في البأساء والضراء » .

أجل .. أجل .. ان صاحب الدار لابد أن يكون احدهم .. احد
أولئك الصابرين في البأساء والضراء .. والذين ابتلوا بشيء من الخوف
والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

ودار الحديث بينهما عن زمزم .. وعن السقايين .. وعن « سيد »
وما فعل في الصباح .. حتى دخل « سيد » يعلن أن الأكل جاهز .

ونهض الرجلان وجلسا حول الطبلية التي رص عليها طبقان من
الكشك غرس في باطنهما بعض كرات من الكبيبة وطبق من الأرز
وحزمتان من الفجل وقطعة جبنة وطبق به بلح أمهات .

واتخذ « سيد » مجلسه بين الرجلين وهو يقول لأبيه :

— شفت الصغاره اللي جابها لى عم شحاته ؟

وامسك شوشة بالنأى يفحصه ثم قال :
— د نأى كويس .. مش خساره تدهوله يخسره ؟
واجاب شحاتة :

— ده عندى من أيام زمان .. ده اعز صديق لى ، ولما ازعل انفخ فيه يضيع زعلى ، أحسن واحد يجاوبنى وينسينى همومى .. لكن دلوقت أقدر استغنى عنه لأنى لقيت اعز منه .. كنت محافظ عليه .. عشان ما كنتش فاكرفيه مروءة بين الناس ، لكن دلوقت غيرت رأى .
وضحك شحاتة ثم أرفف :

— على العموم أنا حاعلمه عليه ، وأظن لما أحب أصغر فيه شويه مش حايقول لا .. والا إيه يا « سيد » ؟
— طبعا يا عمى .

واخذ الثلاثة فى التهام ما فى الأطباق .
وفى الخارج كانت أم آمنة تتناول نصف رغيف به قطعة من الجبن وهى قريبة راضية ، حامدة الله أنه سترها مع الضيف .

وانتهى الجميع من الطعام .. واحضر « سيد » الطشت والأبريق فغسلوا أيديهم ثم توضأ الرجلان لصلاة العصر ، وقاما للصلاة .
وانتهز « سيد » الفرصة ، فانطلق إلى الخارج ، وقد أخذ كيس البلى وصاح بأم آمنة قبل أن يخرج :

— أنا رايع اللعب .

— ما تتأخرش .

— لا حتأخر .. النهارده مولد الخواص .

— يعنى حتتأخر لامتى ؟

— أنا عارف بقى .. أنا حاروح مع العيال ولما يرجعوا خارج معاهم .

— استنى لما أقول لابوك .

— خليكى عاقله .. لما أخرج ابقى قوليله .

— بس متأخرش لبعد العشا .. يعنى اسمع اذان العشا مع
رجليك .
— طيب .

ثم أطلق صغيره الطويل مناديا « عليا » ولم يفته الصغير حتى
كان « على » واقفا بجواره ، وعدا الاثنان إلى نهاية الدرب حيث ملعبهما
بجوار السبيل .



لندع الصبيين فى لعبهما اليومى وعراكمها الطبيعى ولنعد إلى
المعلم « شوشة » و « شحاتة افندى » ، انتهى الاثنان من الصلاة وكانت
الساعة قد شارفت الخامسة .. وارتنى « شوشة » ملابس الخروج
وتهبأ شحاتة للاستئذان والانصراف قائلا :

— ربنا يجعله عامر ، وربنا يتدربنا على رد جهالك .
— برضك بتقول جهاليل ؟ انت رايح فین ؟
— ولا .. اهو حاتمشى لنهاية القهوة يمكن ربنا يرزقها .
— طيب ما تيجى تاخذ لك تعبيره على القهوة بتاعتنا . تعرف تلعب
طاوله ؟
— اعرف اوى .

— طيب تعالى ناخذ لنا تعبيره ، ونلعب لنا دورين .. وبعدين نرق
على المولد .. نسهر عند الشيخ عبيد .. راجل أمير وطيب ، وعودنا
كل سنه يعمل لنا خاتمه فى المولد .. شوية اكل على شوية تعاليق
وتفاريح .. يا الله بينا .

وتذكر شحاتة أن الاربعة قروش التى أعطاها لشوشة هى آخر
ما يملك من حطام الدنيا .. وتذكر انه بات ليلته السابقة على الأرض ..
بعد أن باع كل ما يملك من اثاث الحجرة التى كان يقطن فيها فى شارع

الخليج .. وإن الأثاث البالى والجاكتة الممزقة قد سدت ما عليه من ديون ، وأنه أضحى بعد ذلك لا يملك سوى عدة الشغل التى ضمتها اللفافة .

كل هذا جعله يعدل عن صحبة « شوشة » حتى لا يكون عبئا عليه وحتى لا يعود فيكلفه مرة أخرى بضعة قروش لا يعرف متى يستطيع ردها .

وأخيرا قال :

— عافينى النهارده .

— عشان إيه ؟ انت مش قلت ما وراكش حاجه .. ورايح تقعد على القهوة . آهى تعده يتعده ، يالله قوم بينا .

— واللله اللى معايا دى .. أقدر أسيبها هنا .. لغاية ما نرجع ؟

— أوى ، هات أحطها لك جوه على المحاره ، عشان محدش يلعب فيها .

وهكذا ترك شحاتة اللفافة .. الحاوية لكل ممتلكاته فى الدنيا ، وخرج مع شوشة ، متجهين إلى المقهى فى شارع البغالة .

ووصل الاثنان إلى المقهى والشمس قد خفت حذتها ومالت إلى الغروب و « عماره » القهوجى قد رفع « التندة » وأخذ فى رش الأرض ، حول المتاعد التى قد رصت على الرصيف وهو يغدو ويروح فى خطوات سريعة وقد افتر ثغره الواسع عن ضب عيار ٢٤ ، وأخذ يصفق بيديه بين آوثة وأخرى مرحبا بكل من هب ودب .. وكل من قام وقعد ، أورا ح وغدا .

وانتهى « عماره » من عملية الرش وسقى بضع قصارى العترة والريحان وحصا اللبان المرصوفة بجوار الحائط وعلى الرصيف .

وجلس « شوشة » على متعد أمام احدى المناضد النحاسية الصغراء الموضوعة على الرصيف فى أحد الأركان ، وجلس « شحاتة » على

المقعد المواجه له .. وأقبل « عماره » مفترا عن الثغر الذهبى ، مصفنا
ببيده طريا وهو يصيح :

— يا ميت فل .. يا ميت حلاوه .. القهوة نورت يا معلم شوشه ..
يا مرحبا بضيفنا الجديد .

وقال شحاتة موضحا اسمه :

— محسوبك شحاته .

— ومحسوبك عماره .

— عاشت الأسامى .

— انعم واكرم . خدامكم .. طلبات السيادة إليه ؟

وكان على « شوثة » أن يجيب فقال بسرعة :

— اثنين حمى .. وطاوله .

ولم يتحرك « عماره » لاحضار المطلوب ، بل استمر فى مكانه ..
ولكنه ادار جذعه الأعلى .. وعوج رقبتة تجاه القهوة .. ثم رفع كفه
إلى صفحة وجهه ، وأغمض عينيه ، وصاح بأعلى صوته كأنه يؤدى
الأذان :

— اثنين تعميره حمى .

ثم اندفع هو بخطواته السريعة فأحضر الطاولة ووضعها على
المنضدة ، واندفع مرة أخرى ليحضر « الجوزتين » بعد أن أعطى انذارا
باعدادهما .

وبدا رواد القهوة يتوافدون الواحد بعد الآخر .. المعلم مسطرين ،
والمعلم على الحمى ، والأسطى محمود الخشت ، وزكى زين ، وغيرهم
أصدقاء شوثة وجيرانه ، وتبادل القوم التحيات الطائفة أو المصافحات
باليد ، ثم اتخذ كل منهم مكانه المختار ، منهمكا فى الحديث أو فى لعب
الطاولة أو الدمينو .

وكان المعلم « جوده » القهوجى واقفا وراء البنك النحاسى يعد
الجوز والقهوة والشاى وغيرها من الطلبات ، ولم يكن المقهى متسعا

من الداخل ، فقد كان يكاد لا يتسع إلا للينك والوزير بجواره .. وقصرية
لبلاب تسلقت الحائط حتى وصلت إلى نافذة عالية ذات قضبان حديدية
تطل على فناء وراء المقهى ، ودكة خشبية أمامها منضدة .. هذا كل
ما يحويه داخل المقهى .. أما خارجه فقد امتد على الرصيف وفى الشارع
فى مساحة تبلغ خمسة أمثال الدكان هـ

وبدأ اللعب بين الاثنين : شحاتة وشوشة ، وقد أمسك كل منهما
بطرف غابته يمتص منها نفسا بين آونة وأخرى ، وتضرره موجه لحجارة
الطاولة .

وكان المتباريان من نوعين مختلفين ، فشوشة لعبت صامتة وشحاتة
لعبت لا يكف لسانه عن الحركة بين شدقيه .

ورويدا رويدا زالت رهبة شحاتة من المتهن الجديد والزملاء الجدد ،
وبدا اللعب على حد قوله « يحمى » وبدأ لسانه ينطلق مثرثرا .
ورمى الزهر وهو يصيح :

— سابق عليك النبى شيش شيش !

ولكن الزهر أظهر دويارة ، فصاح شحاتة :

— برضك كويس .. نعمه من ربنا .

ورمى شوشة الزهر فى صمت ولعب لعبته فى صمت .

واندفع شحاتة فى الحديث لا ينتظر ردا ولا جوابا :

— أيوه كده .. دانا شحاته والأجر على الله الشهير فى الأربعتاشر

مديره ، أمال ، دوياره يا بنت الكلب ، اتصلحى بقى .. أيوه كده ..

دش يا قرعه يا بنت القرعه . أمال !! ما يجيها إلا رجالها ، وراك ..

برضك وراك .. مش حاسيك أبدا .. هى إيه .. سايه .. حلوه

دى .. يا دين محمد .. أنا حالعبك لعبه ما يلعبهاش عنتر بن شداد ،

ولا الزبير بن العوام .. شفت دى .. يا وله يا شحتوت يا حلو تسلم

ايدك .. أمال .. مش نازل من بطن أمك ماسك زهر . يا جماعه عيب

ده شحتوت والأجر على الله .. ولا كل من ركب الحصان خيال ..

ولا كل من مسك الزهر لعيب ، جوهار ياك ، اختشى على دمك يا زهر ،
 خلى عند امك دم . اخص ، يا نتن .. اتقوه ، عليك زهر هزؤ ..
 الا .. خليهام الاتنين فى خانة الجوهار .. اخص .. على الفقر الذكر
 .. يا ام هاشم نظره .. يا ام هاشم عيب .. دى مش لعبه دى ،
 طيب بلاش ام هاشم يمكن ما كانتش تعرف تلعب طاولة ، يا سيدنا
 الحسين .. عايزين دش .. اخصى ، دى لعبه دى . هابياك ..
 يا خساره رحت بلاش .. لكن مملشش يا زهر ، والا عليه ، العشره
 راحت بلاش .

وكسب شوشة العشرة فى صمت وسكون ، وخسرهما شحاتة فى
 ضجيج وصخب ، وفرح شوشة وإن كان لم يظهر فرحته .. فقد كان
 أكثر ما يسره كسبه فى الطاولة ، ولكنه كان حريصا دائما على اخفاء
 مشاعره سواء كانت فرحة أم حزنا .

ولم يخزن « شحاتة » على خسارته فى اللعب وإن أظهر بضجيجه
 انه قد حزن .. لقد كان على النقيض من شوشة غضوب فى ظاهره ،
 أما فى باطنه فقد كان سعيدا راضيا .

ولم يخف على « شحاتة » أن صاحبه قد سر من الكسب ، فزاد ذلك
 من رضائه عن نفسه وأسعده أن يسبب للرجل الكريم الطيب نوعا
 من الفرحة ولو بطريق غير مباشر .

وهم الاثنان بلعب عشرة أخرى ، ولكن شحاتة لم يكد بمسك الزهر
 حتى مفر فاه فجأة وسقط الزهر من يده وأخذ يحلق أمامه بذهول ،
 وهو يتبع بعنقه ذلك الشيء الذى روعه .

ودهش « شوشة » من ذهول صاحبه ، وسأله فى عجب :

— ايه الحكاية ؟ .. مالك ؟

وهتف « شحاتة » وهو يأخذ نفسا طويلا كأنه يوشك أن يغرق :

— يا قوة الله .

— إيه ؟ . فيه إيه ؟

— يا جاه النبى .

— إيه بس فيه إيه ؟

ولم يجد « شوشة » بدا من أن يستدير بمتعده ملتفتا إلى الإتجاه الذى يخلق فيه شحاتة ليرى علة ارتياعه .

ولم يستطع أن يكتم ضحكة أفلتت من شفثيه .. وهتف بصاحبه مؤنبا :

— إيه ده يا سيدنا ؟

— ودى تبقى مين دى ؟

— دى عزيزه نوفل .

— عزيزه إيه ؟

— نوفل ..

— يا أخى قول عزيزه زبده .. عزيزه قشطه .. عزيزه شهد ..

عزيزه مهلبه .. آل نوفل آل !

واستمر شحاتة محدقا فى الجسد الممتلىء الملتف فى الملاءة التى انحسرت عن ثوب أحمر انجليزى قد بدت منه فراعان بيضاوان ناصعتا البياض ، وكشفت فتحة صدره عن ملتقى الثديين المكتنزين المتوثبين .. وبدا الوجه أبيض مستديرا ، والشفتان ملتفتين حمراوين ، والعينان متسعيتين داعيتين غامزتين .. غاذا ما ولت وجهها بدا ظهرها على قلة تفاصيله أشد تفصيلا وتفسيرا واقناعا واغراء واستدعاء .

وهز شحاتة رأسه كالمنتشى وهو يصفق بيديه وينادى بأعلى صوته :

— يا رفاعى مدد .. أموت فى اللبن أبو قشطه .. هز يا وز .

وضحك القوم الساهرون فى المقهى ، وأحس شوشة من مجون صاحبه وضحك القوم ، شيئا من الحرج ، فما كان ذلك مما يلائم طبيعته الجادة ومظهره المتزن المحترم .

ورغم أنه فى قرارة نفسه لم يثر على « شحاتة » أو يحس من عمله

غضبا عليه ، الا انه ترك علامات التجهم تكسو وجهه حتى يوقف الرجل عند حده ، وحتى يمنعه من الاسترسال فيما بعد حديثه الغزلى كلها مرت امرأة بالمتهى .. وفوق هذا كله حتى يقنع القوم الضاحكين انه ليس شريكا فى حملة الغزل والبصيصة ، وانه لا يقر صاحبه عليها .

ولاحظ شحاتة تجهم « شوشة » ، وادرك ما سببه له من حرج ، فتمتم معتذرا وقد أطرق برأسه وهو يشيع الحسناء الغاربة بطرف عينية :

— عدم المؤاخذه يا معلم .. ما تأخذنيش . انا أصلى لسانى نرط شويه .. ما اعرفش بيجرالى إيه لما بشوف صنف الحريم .. طول عمرى كده .. أصلى دنى أحب اللحمة .. داء يا معلم ما يسبنيش أبدا .. وكل ما قول بكره الواحد يكبر ويعقل .. ما بعقلش أبدا .. بالعكس الحكاية بقزيد ويلاتى نفسى بحبهم أكثر .. خفة عقل .. والا خفة قلب ما تعرفش .. لو تتعدنى كده طول اليوم أتفرج على نسوان ما ازعقش أبدا .. يسببولى اتبساط وغرفشه زى الخمره والحشيش .. الجنس كله يعجبني .. كله يعمر دماغى . انما التلى بيدوخنى حقيقى الصنف اللى فات .. أهو ده بقى بيطير برج من عقلى .. ما ببقاش حاسس بنفسى .. أعذرني يا معلم ، متأخذنيش ، اوعى تزعل منى ، انا برضه غلطان ، كان حقى أمسك نفسى شويه قدام الناس الغرب وخصوصا ان انا عارفك راجل عاقل ما تحبش الهلس والمسخره . يا بختك بعقلك صدق من قال : أصحاب العقول فى راحة . تلعب كمان عشره ؟ .

ثم نظر حوله ليرى ما إذا كان الجمع ما زالوا فى مراقبتهم ولكنه وجد كلا منهم قد انصرف إلى ما كان عليه .. فعاد إلى زهره من كان يلعب الطاولة ، وعاد إلى حديثه من كان يسمر ، إلا واحد قد ظل معلقا به يرقبه بعينه بنظرة فاحصة متسائلة .

كان رجلا أسمر ، حاد التقاطيع ، مبروم الشارب ، مفتول العضل ، رتدى جلبابا بلديا من الصوف الأزرق ، بدا من فتحة صدره الصديري

الخطوط وقد وضع ساقا على ساق مظهرها الحذاء الأصفر ذا الرقبة
الاستك ، كاشفا عن جورب من الحرير «أبو حربة» ، وقد اتكأ بأحد
مرفقيه على منضدة أمامه ، وترك كم الجلباب المتبجح يسقط عن ذراعه
فيكشف عن كم الفانلة الفلتكوسن البمبة المشغولة بالأجور ، وقد أمال
اللاسة على أحد حاجبيه حاجبا بها نصف العصفورة الخضراء البتلى وشم
بها صدغه .

وأحس « شحاتة » بقلق من مراقبة الرجل وخشية من نظراته ، وخيل
إليه أن الرجل لابد وأن يكون على صلة بالمرأة ، وأنه قد ساءه منه أن
مغازلها بمثل هذه الطريقة الفاضحة . . وبدأ له أن الرجل لابد سينتهى
به الأمر إلى أن ينهض فيوسعه ضربا ويعطيه درسا قاسيا في احترام
النساء .

ولم ير « شحاتة » خيرا من تجاهله والتشاغل بالحدث مع شوشة
أولعب الطاولة وأمسك بالزهر يهزه في راحته قائلا :
— المره دى مش حاخلك تاخذ ابن واحد . حادبها لك صبايمه . .
أنا أصلى حببت أجرجلك بالعشره اللي فانت .

ثم انطلق بمهقهته مرسلا نظرة مسروقة بطرف عينيه إلى الرجل
إياه الشارب المبروم ، المفتول العضل ، فرآه ما زال يرمقه بنظراته المزعجة
. . فسرت رجفة في أوصاله وراح يحدث نفسه وهو يهز الزهر في يده :
— « والله أجلك حان يا شحتوت الكلب ، أهو ده حقيقى اللي
حاجيب أجلك . . لو لهنك بونيه مش حاتاخذ غيرها وده باين عليه
صعيدى ما يعرفش عربى ، وحكاية الشرف عنده مهيه أوى . . مين
عارف يمكن الوليه نطلع مراته ، والا اخته والا قرييته والا رفيقته ،
بمعنى كان لازم تنسحب من لسانك . . أهو ده تلاقيه حاجه نوفل . .
عبده نوفل . . والا رزق نوفل » .

وعاد يسترق إليه النظر . . فوجده ما زال يرمقه وهو يبرم
شاربه .

« وأخترتها ؟ باينها مش حاتم على خير أبدا .. الراجل حياكلك ..
إذا كان شوشة نجاك من ايد زمزم .. فالمره دى مافيش حد حاينجيك
أبدا .. غير رينا .. وربنا ما افتكرش حايرضى يحشر نفسه بينك وبين
ابن الصرمة ده . يا منجى يارب .. مافيش طريقه غير « الزوغان » .
وعاد يهز الزهر ويزدرد ريقه ويقول لشوشة :
— هه .. مش حاتلعب ؟ .

وجاءه الجواب المنقذ من فم « شوشة » وهو يغلق الطاولة
ويجيبه قائلا :

— كفايه النهارده .. ياالله بنا على المولد .. الدنيا ليلت .
وهتف شحاتة فى حماس قائلا :
— ياالله بينا .

ودفع شوشة الحساب ونهض الاثنان مغادرين المقهى ، وبحركة
غير إرادية التفت « شحاتة » ليلقى نظرة أخيرة على مطارده ومراقبه
ليرى ما إذا كان مستمرا فى مطارده بنظرته الصارمة .. أم صرف عنه
نظره .

ولكن العين المحدقة كانت ما تزال تحقق ، والنظرة الصارمة الفاحصة
ما تزال تطارد وتلاحق .
وأسرع « شحاتة » فأمسك بمرفق صاحبه كالمستغيث وناداه
متسائلا :

— يا معلم شوشه ؟
— أيوه يا شحاته أفندى .
— الراجل ده بيقى مين ؟ اللى قاعد جنب باب القهوة على إيدك
اليمين ؟
— أنهى ده ؟

— الراجل أبو دقه .. اللى عاوج اللاسه ولايس جلابيه كحلى .
اللى بيزغر لنا قوى زى اللى حياكلنا .

- قصدك .. شرف .
- اسمه .. شرف ؟
- أيوه .. مش اللي داتق عصنوره ؟
- هوه هوه .. وده بيتقى إيه ؟
- ده ، شرف الدين .. شرف الدين الدباح .
- يا باى .. دباح .. دباح .. يا مغيث ..
- قالها شحاتة بغزع وهرول فى مشيته كالهارب .. مما جعل « شوشة » لا يمنع ضحكة انطلقت من شفتيه وهو يقول :
- حيلك يا عم شحاتة ما تخافش .. الرجال ما بيدبحش ولا حاجة .
- ما خافش ازاي ؟ وهوا من ساعة ما فانت البت عزيزه ولقحت عليها بالكام كلمه اللي قولتهم وهوا ما رفعش عينه عنى ، وببزغرى كانى قتلت أبوه ... وبعدين أسألك اسمه إيه تقوللى شرف الدباح ، وبعد كده انت عايزنى ما خافش ؟ طب مد بينا مد .
- وعاد « شوشة » إلى ضحكه ، وهو الجاد الرزين ، ودهش « شحاتة » وسأله :
- هوا فيه حاجه بينه وبينها ؟ . فيه معرفه ؟ . قرابه ؟ .
- أكثر .
- أكثر يعنى إيه .. أبوها ؟ .. أمها ؟
- حاجه زى كده .
- يعنى إيه مش فاهم ؟
- ولى أمرها يا شحاته أفعدى .
- يعنى إيه ولى أمرها ؟
- يعنى ولى أمرها .. ما تعرفش لما تلميذ يروح المدرسه ويكون أبوه ميت يقوموا يقولوا فين ولى أمرك ، أهو ده ولى أمرها .. يعنى

المسئول عنها .. يعنى بالعربى بيشفلها .. مش بنس هى لوحدها ،
ودسته زيتها .

وتوقف « شحاتة » نى محله من فرط الذهش واخذ ينظر إلى
« شوشة » محمقًا ، وقد تسمر فى مكانه ، ثم قال مذهولا :

— شرف الدين .. الدباح .. بيشفل عزيزة نوئل ؟ الراجل الفحل .
ابو الشنبات المبرومه ، يشتغل الشغلانة دى ؟

.. وإيه دخل الشنبات المبرومه .. نى الحكايه دى ؟ . دى حاجه
.. ودى حاجه .

— مش معقول .. مش ممكن .

— إيه هوا اللى مش ممكن ؟

— دا باين عليه الشهامه .. وكان بيص لى البصه يخلينى اترعش ،
وكنت فاكرا ان احنا لو طولنا ثنويه كان قام كسر دماغى .

— احنا لو كنا طولنا ثنويه كان جه جنبك وحياك .. وقال لك احنا
مى الخدمه .. عندنا حاجات نضيفه لوى .. احسن من اللى فانت .
وناطعه « شحاتة » بقوله .

— وهوا فيه احسن من اللى فانت دى حاجه ؟

واستمر « شوشة » متمما حديثه :

— لكن الظاهر انه مالقاش فيك الرmq ، عشان كده تعدد يفحص
نيك ويدقق .. بدل ما يقوم ويتعب نفسه .. وبعدين يبجى نقبه على
شونه .

وسار شحاته بجوار شوشة ، وقد شرد ذهنه .. وان كانت مظاهر
الفرع والخوف قد غادرت وجهه .. وحلت محلها مظاهر الارتياح
والغبطة .

اذا .. نعزيزة نوئل « ماشية » ، وشرف الدين الدباح « توادها »
او السبيل إليها . ومعنى هذا ان عامل الاستحالة والخطورة قد زال ..
واصبحت المسألة سهلة هيئة ، ولم تعد « عزيزة نوئل » أملا متعذرا ،

أو صيدا طائرا .. بل هي رجاء يستطاع تحقيقه ، وعصفور يمكن أن يكون في اليد .. ولم يعد هناك ثمة خطورة من هذا الوحش المستترس المدعو « شرف الدين الدباح » بعدما تبين أنه دباح اعراضى .. وأن بينه وبين الشرف ما صنع الحداد .

وتجههم وجهه فجأة ، وعلته سحابة هم .. ان المسألة حقا ليست مستحيلة ، ولكنها كذلك ليست سهلة المنال كما يتصور فهي تحتاج إلى نقود .. نهذا « القواد » لا يمكن أن يشكك بضاعته .. بل هو لابد أن يقبض الثمن مقدما ، وهو لا يملك مليما واحدا .. وهو لا يملك ثمن أكلة متقدمة .. ولا نومة مقبلة .. انه لا يملك إلا نفسه ، والصرة التي بها عدة الشغل التي تركها في بيت ثوشة .. لقد باع كل ما يملك لكي يسدد دينه على صاحبه الكريم .. فهو أول دين يحس بثقله .. كانت الديون السابقة كلها ديون غير مستحقة الدفع .. أما هذا الدين الذي دفعه عن طيب خاطر .. دون أن يطالبه صاحبه برده .. فقد حرك مشاعره ، وأيقظ ضميره فلم يصل إلى حجرته .. حتى باع كل ما بها وسدد ديونه ، ثم غادرها نظيفا خفيفا إلا من « حرة الشغل » والأربعة قروش التي دفعها إلى « ثوشة » .

والآن ، وهو صفر اليدين ، تسمح له هذه الفرصة الهائلة . وتلوح له « عريضة نوفل » وصاحبها الدباح ، أمنية مستطاعة ورغبة محققة .. ولكن بالنقود .. يعنى .. أمنية محققة ، بشيء مستحيل ، وثمن غير كائن .

وضرب كفا بكف وقال بصوت مسموع :

— عليه العوض .

والتفت إليه « ثوشة » متسائلا :

— خير ؟ إيه هو اللي عليه العوض ؟

— ولا حاجه .. الحمد لله على كل حال .

« أجل .. الحمد لله .. انها على أية حال أمل مستطاع .. ومسيرها ترزق » . وبهذا طمأن شحاتة نفسه ، وعاد إلى سابق ضحكه ومرحه ، وهما يوشكان على الدخول إلى المولد .

واحس الرجلان باشتداد الزحام وازدياد الضجيج وارتفاع الطبول والدفوف والمزامير . كانت مظاهر المولد بادية فى الحى كله .. فقد انتشرت الأعلام ، وعلق البطيخ الزجاجى الملون ، ولكن المظاهر كانت تزداد تركيزا كلما ازداد المكان قربا من ضريح المحتفى بمولده .

واضطر « شوشة وشحاتة » إلى التنحى عن الطريق والتزام الرصيف عندهما بدت بشائر أحد الموكب ، وقد تعالت وسطه الأعلام الملونة ، المزركشة بالآيات والكتابات المختلفة مثل : « الله اكبر » و « لا إله إلا الله » وأسفل هذه الآيات الإلهية كان عبيد الله يتراقصون ويتواثبون ويتصايحون ويدقون الدفوف ، حتى بدا كأن الله لا يمكن الوصول إليه إلا بتخت أو بزفة .. ومر موكب عبيد الله المنتشين بذكر الله الراتقين تحت أعلام الله . وغاود « شوشة » وصاحبه السير متخذين طريقهما وسط الأجساد البشرية ، ولكنهما ما لبثا حتى توقفا مرة ثانية لزحام أشد من زحام الموكب الراقص .

كان السبب فى هذه المرة ، ليس ذكر الله ، ولكنه كان ذكر البطون ، أو ذكر « الفول والعيش » .

كان حانوت « الحاج عمار » تاجر المانيفاتورة يباشر عملياته السنوية فى تفريق شقق الفول النابت والعيش التى كان يندرها الحاج فى كل مولد ، وكان الناس يتقاتلون حول الحانوت فى سبيل الوصول إلى الشقق المليئة بالفول ، وكان أحدهم يصيح بالآخر :

— أمسك دى ، انا خدت لغاية دلوقت خمس شقق ، الحاجات دى عايزه دراع ، لو قعدت هنا عمرك ما انت طايلى حاجه ، خش عافى زى الباتى .

واستطاع الصاحبان تجاوز موكب الفول والعيش ولكنهما لم يسيرا
بضع خطوات حتى اصطلما بهوكب الشيخة « زبيدة » .

فى دكان حجب بستارة قذرة خضراء وقف رجل أشعث وبجواره
رسم لرأس امرأة على منضدة كتب فوقها لامتة « الشيخة زبيدة ..
العجزة البشرية » واندفع الرجل يصيح بأعلى صوت :

— قرب هنا .. شوف الست العجيبة .. الشيخة زبيدة بقرش
ابيض . الرأس اللى بتتكلم من غير جسم . يا بلاش .

وبجواره وقف رجل آخر يقرع الطبله وثالث ينفخ فى مزمار .
ومر الرجلان بالشيخة زبيدة ، ثم اتجها يميناً وتجاوزا رجة متسعة
اميت عليها « المراجيح » بكافة أنواعها ... مرجيحة الوزه ، والمروحة ،
والمركب ، وقد أخذت تزن وتطن كأنها عشب الزنابير .

وبعد مسيرة بضع دقائق وصلا إلى حانوت « الشيخ عبيد العطار » .
وكان الحانوت يجاور الضريح أى فى قلب معمة المولد .

كان « الشيخ عبيد » قد رعى الأرائك حول مدخل الحانوت وعلق
الأعلام والزينات ، وفى ركن منعزل غرّش بعض الحصر على الأرض
استعدادا لحلقة الذكر .

وحيا شوشة القوم المتناثرين على الأرائك وعلى الحصر ثم تجاوزهم
إلى مدخل الضريح وقد تبعه شحاتة ، ودلفا من مهر ضيق قادهما إلى
البضة وكانت لا تزيد على مجرى فى الأرض ملئ بالمياه يجلس المتوضئون
على حافته فيتناولون منه الماء بأيديهم للوضوء وبعد أن تجرى المياه على
أطرافهم وتقوم بواجبها فى إزالة الأتربة العالقة بها والتأذورات المتراكمة
عليها تعود فتتهبط مرة أخرى إلى المجرى نفسه يصاحبها ما تيسر من
البصاق والمخاط الذى يستعمل فى وضوء من يليهم من عباد الله
المتوضئين .

وانتهى الرجلان من الوضوء وصليا فريضة المغرب ثم خرجا للانتظام
فى عقد المدعويين فى ختمة الشيخ عبيد .

وجلس شحاتة على الحصير بجوار المعلم شوشة ، وقد أخذ يتلفت يمنة ويسرة محاولا اكتشاف ما عسى أن يحصل عليه من جاسته هذه ، ولم يبد لعينيه شئ ينبىء بخير .. لا أكل ولا نساء ولا طاولة ، ولا أى نوع من أنواع الطرب والتسلية .. صبرا .. فربما « جرت سنحا طير الحوادث باليمن » .

وبدا فقيه فى تلاوة القرآن ، وفى خلال التلاوة بدت ثلة اطفال مقبلة على الحلقة ، ولم تكد تقترب حتى اندفع منها سيد ، فلما وصل إلى أبيه همس فى أذنه :

— عايز تعريفه .

— ليه ؟

— أضيع فى المولد .

— عايز تعمل به إيه ؟

— أروح الشيخه زبيده ، وأتفرج على خيال الضل وأتفرج ، واشترى كبده وكشوى .. مش كل ده عايز فلوس .. والا يعنى كده أخرج م المولد بلا حمص ؟

ومد الأب يده إلى جيبه فى صبت فأخرج كيس النقود وأعطى منه قرشا لابنه ، وانطلق سيد مرة أخرى إلى صحبه بين الصبية صائحا بهم :

— ياله بينا على خيال الضل .



ولترك شوشة يستمع إلى القرآن ، وشحاتة محملا بعينيه فى الفقيه ، شاردا بذهنه فى « عزيمة نوفل » ولنعد وراء سيد فى جولة لاهية بالمولد حتى تنتهى تلاوة القرآن فى شادر الشيخ عبيد .

انطلق الصبية يتواثبون ويصرخون إلى خيمة خيال الظل ودفع كل

منهم مليها عند الباب ، وبعد لحظة كانوا يصطفون على بضع ذكك امام الستارة .

وكانت الخيمة المهلهلة قد قسمتها الستارة الديمور البيضاء قسمين قسم حوى النظارة وقسم حوى المسرح ، أو الملعب ، أو سبه كما شئت . . وكان كل من القسمين مضاء « بلهبة جاز » ولم يكن الصبية يدرون شيئا عما يدور فى القسم الآخر وراء الستار ، ولكنهم كانوا يتوهمون عالمًا صاخبا مليئا بالحياة والحركة مختلف الأشخاص ، وكانوا يجلسون وذهنهم عامر بشتى الأوهام . . ولو تجاوز أحدهم ببصره إلى ما وراء الستار لأصيب بخيبة شديدة ولانهار ذلك العالم الموهوم المليء بالحياة والحركة .

كان يجلس وراء الستار رجل . . وهو الكائن الحى الوحيد الذى بحرك بقية الكائنات الصامتة من الورق المقوى وينفخ فيه الروح .

كان وحده رب العالم الموهوم . . هو خالقه وهو محسركه وهو منطقته ، وهو راسم مصائر مخلوقاته .

كان الرب مرتديا « فائلة ولباس » قد انهك وقتذاك فى خلق بعض المخلوقات الجديدة من الورق ولم يكذ ينتهى منها حتى دق بكعب « برطوشته » على ظهر صندوق خشبى انذارا ببده العمل .

وتشبه هذه الدقات إلى حد كبير الدقات التى تؤذن ببده النمثيل ورفع الستار ، ولكن فى مسرحنا الصغير لا ترفع الستار ، لأن رفع الستار — كما قلت — يعد كارثة فهو يكشف عن ضالة العالم الموهوم وحقارته ويظهر للنظارة ربه ذا القبيص واللباس ممسكا بيده البرطوشة يدق بها .

أجل . . كان هذا كل ما وراء الستار قبل البده فى العمل . وعلى ذلك فقد كان الستار . . ستره .

ومنمدا انتهت الدقات دخل الرجل الواقف على الباب والذى جمع

النقود ، فأطفأ المصباح الكائن فى قسم النظارة . فبدأ الستار مضاء بالمصباح الكائن خلفه .

وقبل أن يبدأ التمثيل صاح سيد :

— عايزين حكاية الشيخ عبد الرسول لما سيد رتعه علقه .

وهكذا كانت الروايات تملأ من النظارة فى لحظتها ، وعلى الرب الكائن وراء الستار القادر على كل شيء .. أخرجها حسب ما يشتهون . وظهر « الشيخ عبد الرسول » على الستار ، وكان الرب قد جلس فى الأرض وراء الحاجز الخشبى الكائن أسفل الستار حتى لا يظهر ظله على الستار وحتى يبدو الأبطال متحركين من تلقاء أنفسهم . وكان يمسك بقطعة من الورق مقصوصة على هيئة شيخ معهم يرفعها بين المصباح وبين الستارة فيقع ظلها على الستارة ، ويبدو للنظارة من الجانب الآخر كما تبدو الصور فى الشاشة البيضاء ولكن بلا تفاصيل سوى التفاصيل الخارجية للظل .

وتكلم الرب بصوت غليظ قائلاً :

— أنا الشيخ عبد الرسول .. المهول .. أضرب على طول .

ثم يرفع الرب بيده الأخرى صورة طفل صغير .. ويقول بصوت رفيع :

— وأنا سيد السقا .. لايس خلقه زرقه .. وأديك دقه بدقه .

وخج الصفار بالضحك .. وهفقوا بأيديهم مشجعين الطفل الصغير صائحين :

— ول سيد .. اديله يا سيد .. اديله فى عين زنبيله .

لنترك الصبية متحمسين للمعركة الدائرة وراء الستار .. ولنعد إلى شوشة وشحاتة ، فنجد الفقيه يوشك أن يختم قراءته ونجد شحاتة قد انتهى من جولته مع «عزيزة نوفل» فى الوهم مع انتهاء القراءة .

وهمس شحاتة فى أذن شوشة متسائلا :

— وبعد كده فيه إيه ؟

— نصلى العشا .

ونفخ شحاتة نفخة ملل ، وحدث نفسه :

— « وأخرتها ، صلاة وقرآن ، وذكر .. لا .. يفتح الله ، أنا

ما تدرش على الحكايات دى » .

ولكنه لم يملك سوى القيام وراء الجماعة المتجهة إلى الجامع ، وبعد انتهاء الصلاة عادوا مرة أخرى إلى أماكنهم ولكنه فى العودة وجد أن « العود أحمد » .. فقد فوجئ بوعاء كبير من الثريد تعلوه قطع كبيرة من اللحم المسلوق ، قد وضع على الأرض وسط الحلقة كأنها نبت بقدرة قادر من الأرض أو هبط من السماء .

وجرى ريقه .. وتمنى لو هجم فأنشرب أظافره فى اللحم وعب من الثريد .. ولكن كان عليه أن ينتظر حتى ينتظم العقد ويدعو صاحب الدعوة ضيوفه إلى الأكل فيتمنعون ويدعون شعبا ، فيعيد الدعوة ويعيدون التمتع ، حتى تكون روحه قد بلغت التراقى قبل أن ينهضوا للأكل .

ومرت الفترة العسيرة « بعم شحاتة » على خير .. وبدأ الطعام ، واندس « شحاتة » بين جمهرة الأكلين و « هبر » قطعة من اللحم تذف بها فى جوفه فلم تترك إلا فراغا يسيرا للثريد .

وأخيرا انتهى الطعام ورمعت القصعة وبدأ الاستعداد للذكر واصطف القوم جلوسا فى حلقة دائرة ، وبدأ شيخ منهم فى الانشاد والجمع . يردون عليه ، ولم يحاول « شحاتة » أن يركز ذهنه لمعرفة ماذا ينشد الشيخ ، ولم يكلف نفسه مشقة التردد مع الجمع حتى بدأ الكل يرددون بطريقة ملحنة .. « يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف » كأنهم كورس يردد أغنية ، وهنا لم تعد المسألة صعبة فاندفع معهم يردد مغنبا « يا لطيف .. يا لطيف » .

وفجأة نهض الشيخ ، فنهض القوم معه ، ثم بدأ يردد فى صوت

خفيض أخذ يرتفع شيئا فشيئا « الله حى .. الله حى » وكان الترديد مصحوبا بترنح للأمام وللخلف .. وأحيانا لليمين واليسار ، ولم يكن هناك بد من أن يقلد « شحاتة » القوم فى صياحهم وترنحهم ، ولم يكن الأمر بالعسير فقد كان الترديد والتقليد من السهولة بمكان .

وهكذا ظل شحاتة وشوشة يترنحان ويضججان مناديان « الله حى » .. ولم يحاول « شحاتة » أن يفكر فى المسألة كثيرا ولا أن يتناول صياحه وترنحه بالبحث والتحصيل .. ولكن عندما طال الأمر .. وكلت حنجرته . وخذلته ساقاه ، بدأ يفكر فى قوله « الله حى » ، وأخذ يسائل نفسه ماذا يريد هو وصحبه من الله .. ولم يصحبون اسمه بوصفه حى .. وهو أبسط ما يمكن أن يوصف به مخلوق .. فهم يشركونه فى الوصف مع أحقر المخلوقات الحية ، التى تملأ رحاب الأرض .. وماذا يفيد من اصرارهم على وصف الله — الذى لا يمكن أن يكون غير حى — بأنه حى .. واستمرارهم على الصياح بمثل هذا الصراخ ؟

وتصبب العرق من وجهه .. ودعا الله الحى .. أن ينزل على المخابيل « نقطة » تسلبهم الحياة حتى يكتفوا عن هذا الصياح والترنح ، ونظر إلى الشيخ عبيد صاحب الدعوة وهز رأسه أسفا ، وهو يقول لنفسه :

— « يا شيخ عبيد يا ابن الحرام .. كائنك فعلت بنا معروفا .. لقد سلبت بالذكر ما أعطيت بالثريد .. أنت والحياة صنوان .. كلاكما يسلب باليد ما يعطى بالآخرى .. كلاكما يسترد النعمة بالربح المركب .. ان الثريد واللحم الذى ملأت به بطوننا قد هضمه الذكر .. فكأنه ما كان .. يا ليتنا ما أكلنا وما ذكرنا » ! .

« الله حى .. الله حى » .

— لا .. لا .. لا يمكن أن يكون حيا .. ولو كان حيا أكان يسكت عن كل هذا الصراخ ، دون أن يصيب القوم بصاعقة تسكتهم .

« الله حى .. الله حى » .

وأخترتها .. عرفنا أنه حي .. والله العظيمة حي .. يا ناس
ارحمونا .

وأخيرا .. جدا .. بدأ الترنج يخف ، والصياح يهبط .. حتى
سبت القوم تماما وهبطوا إلى الأرض .
وهمس شحاتة في اذن شوشة :
— هه .. مش خلاص ؟

— أيوه خلاص .. بس حائلي ركعتين .
— لا وحياة أبوك .. كفايه بقي .. أنا مش عاجز عن الصلاة
.. بس أنا صعبان على صراخ الناس دول .. كفايه اللي عملناه ده ..
ياالله بقي وحياة أبوك لحسن بعدين يدخولنا الذكر تاني .. ياالله يا معلم
الله لا يسيئك .

ونهمس « شوشة » وغادر الاثنان الحلقة وسارا في الطرقات التي
أخذ الزحام يخف عنها رويدا رويدا .
وعندما وصلا إلى تقاطع « درب عجور » توقف « شحاتة » قليلا
ومد يده مودعا وهو يقول :

— تصبح على خير يا معلم .. متشكرين خالص على السهره
اللطيفه دي .

— على فين ؟

— نروح بأه .

— أنت ساكن فين ؟

وتهمل شحاتة برهة قبل أن يجيب بضحكة قصيرة ساخرة ويقول :

— كنت ساكن في شارع الخليج .

— ودلوقت ؟

— دلوقت مانيش ساكن .. دلوقت أنا كده زى ما أنا يعنى ماليش
متعطفات أبدا .. ساكن على رجلى ، أو سارح .. زى القطط والكلاب .

— مالكتك حته تيلاته فيها ؟

— كان ليه اوده وسبيتها .. عزلت منها .

— ليه ؟

— والله مش قد المقام .. البحرى بتاعها مش خالص وانا راجل

احب الطراوه فقلت اعيش فى الخلا .

— اتكلم جد يا شحاته .. إيه الحكايه ؟

— أنا بتكلم جد .. كان ليه اوضه وسبيتها النهارده .. الحال

واقف بقاله مده ، وكان متكوم على ايجار كام شهر ومديون بكام قرش ..

لكن ما كانش هاممنى ، ولا كان على بالى .. لغاية ما داينتني انت

بالأربعة ساغ .. فحسيت بتقل الدين .. الديون اللى فاتت كلها كانت

كوم ، ودينك كوم .. الديون اللى فاتت جتتى تلمت عليها من كتر الحاج

اصحابها ومطالبتهم بيها ، ما بقانش تهمنى ، بقى عندى مقاومة ضدها ..

زى الرجل الحانيه لما تبقى عندها طبقه واقيسه من الزلط والحصى

والقزاز من كتر الدوس عليها .. أصل كتر المطالبه تولد التلامه ..

ولما الواحد ما بيلاقيش حد يرحمه احساسه بيعدم ولا بيقاش عنده

دم ، وكنت مستريح على كده .. لغاية ما جيت انت وعملت فيه الفصل

بتاعك ده ، ودفعت لى الاربعه الساغ من غير ما تعرفنى ومن غير

ما تنتظر منى أن أدفع .. الله يسامحك ، انت السبب فى اللى حصل

ده .. وريتني إن فيه فى الدنيا انسانيه ورحمه وتضحية .. وان البنى

آدم ممكن انه يعمل معروف من غير ما ينتظر منه مقابل .. خليتى أحس

ان فيه قلوب رقيقه وتفوس رحيمه ، وكانت النتيجة انك ضيعت طبقه

الواقيه من التلامه والبجاحه ، وخلتني أرجع زى ما كنت .. أشعر وأتالم

وانكسف واحزن .. الله يسامحك ، زى ما بيعتنى اللى حيلتى ، وخلتني

داير من غير ماوى زى الكلاب اللى من غير أصحاب .. يعنى لو كنت

سبتنى فى ايد زمزم ، مش كنت زمانى خدت العلقه وانتبهت ، وعلى

راى المثل علقه وتفتوت وما حد يموت .. واهو كان الواحد بعد
العلقه حا يرجع يلاى اوده تتاويه .

واحس شوشة ان الدمع قد قفز إلى مقلتيه .. وانه يراودهها
على الانسكاب .. لقد اصاب حديث للرجل منه مقتلا ، ولكنه كان يكره
البكاء فاستعان بالظلمة على اخفاء تعابير الألم التى علت وجهه وجاهد
حتى تهر الدمع واعاده إلى منابعه .

وبعد فترة صمت قصيرة .. قال لصاحبه وهو يحاول ان يضحك :

— معلش يا شحاتة افندى حتك على ، وعلى العبوم هى ملحوقه
.. انا عندى اوده فاضيه ما حدش بينام فيها تعال بيت فيها لغاية ما ربنا
بفرجها .

— لا يا عم كفايه جمایل بقى .. انت عايز تعمل فى اكثر م الى
عملته .. عايز تقضى على شوية النلامه والبجاجة اللى فاضلين ، واللى
اقدر اكل بيهم لقمة تصلب عودى .. لا يا عم .. حد الله بينى وبينك ..
انت غرقتنى جمایل .. وخلتنى بنى آدم ذوق حساس ، رقيق .

— إيه الكلام اللى بتقوله ده ؟ . جمایل إيه وبتاع إيه ؟ الأوده
فاضيه ، وبدال ما تروح تنام فى السكه تعال نام فيها .

— لا يا عم أنا حنام فى السكه أهسن .

— ما تبقاش مجنون ؟

— لا .. لا .. كفايه ضايقتك طول النهار .. آجى كان أشاركك
فى نومك .. ليه .. هو انت ابتليت بيه .

— يا راجل ما تقولش الكلام ده .. الأوده فاضيه ، والله العظيم
.. ما فيهاش غير الصحاره وشوية القرب .

— لا .. لا .. السلام عليكم .

— طيب تعالى أجرها ؟

— أنا معايش ولا نكله .

— معلش بكره ربنا يفرجها ، وتبقى تدفع الحساب ، يا الله يا أخى .. ما تعملش تكليف . دا انت حتى حاتونسنى .

وتردد شحاتة برهة ، ولكن شوشة جذبته من يده جذبة لم تترك له فرصة الهروب وسار الاثنان متجهين إلى البيت .

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ، ودرب عجور قد أغلقت حوائيته وخفقت ضجته ، وساد السكون على دوره حتى يخيل للسائر أنه قد بات يسمع حفيف الأنفاس متصاعدة من النوافذ .

واقترب الرجلان من درب القط ودلفا فيه يخوضان وسط ظلماته المعممة وقد سار « شوشة » بالتوجيه بخطوات ثابتة وأخذ « شحاتة » ينقل قدميه فى حذر متمثلا قول الشاعر « قدر لرجلك قبل الخطو موضعها » .. وكانت التوتة تبدو فى نهاية الدرب كشبح داكن يحجب بصيص الضوء الذى يتسرب من أشعة النجوم .

ودخل الاثنان الدار ، وبدأ باب الشقة مفتوحا ، وقد لاحت من خلاله « أم آمنة » متريعة على الأرض وهى تجلس جلستها المطرقة الواجمة ، كأنها تمثال للصبر واليأس والجهود ، مسندة خدها براحتها متكئة بهرفقها على ركبته ، ولم تكد تسمع وقع الخطوات حتى رفعت رأسها كما يرفع الكلب الحارس رأسه فى تحفز وصاحت :

— مين ؟

وأجاب شوشة فى رفق :

— أنا شوشة .

ولكن الأقدام كانت أكثر من أقدام شوشة ، فعادت تسأله فى دهش :

— حد معاك ؟

— أيوه ، شحاته أفندى حاييات معنا عشان الوقت متأخر .

ونهضت المعجوز متساقطة وتحسست طريقها إلى الحجرة التي
يرقد فيها « سيد » ثم أغلقت الباب نصف اغلاقة وهي تقول :

— أحضر لكم عشا ؟

وأجاب شوشة :

— كتر خيرك .. اتعشينا فى المولد .

— بالهنا والشفأ .

وأحس « شحاتة » أنه قد أزعج المرأة الآمنة الطيبة فهمس لصاحبه :

— أنا قلقتكم .. ما تسيبنى أروح .

— خش يا جدع .. الأوده فاضيه .

ودخل « شحاتة » يشق طريقه بين جلود القرب القديمة واقترب

الصحارة .. وبعد لحظة كان أهل البيت يغطون فى نومهم .

الفصل السابع

قهوة لفندية

استيقظ شحاتة فى الصباح وقد غمر ضوء الشمس الحجرة وتلفت حوله وفرك عينيه ومضت برهة قبل أن يستبين معالم الحجرة ويكتشف ابن هو . . وأخبرا تذكر دعوة « شوشة » له للمبيت فى داره فتحامل على نفسه ونفض عنه غبار النوم ، وهبط من فوق الصحارة ووقف فى منتصف الغرفة وأخذ يتلب البصر فى أرجائها .

كانت الغرفة ضيقة مشققة الجدران ذات نافذة حديدية تطل على « منور » ترتع فيه أوزتا « أم آمنة » ومعزتها . . ولم تكن محتويات الحجرة لتزيد على الصحارة التى قضى ليلته منكشفا فوقها وعلى قطع الجلود القديمة من بقايا القرب والسطايح وبعض متخلفات لسيد من كرة شراب إلى هيك من بوص لطائرة قديمة إلى نحلة . . الخ . . وكان يوجد غير هذا كله . . صرته العتيقة . . جامعة ممتلكاته فى الدنيا .

وانصت شحاتة على يسمع صوت « شوشة » أو « سيد » ، ولكن الدار كانت مغرقة فى صمت لا يقطعه غير صيحات متقطعة من الأوزتين بين آونة وأخرى ، وأحس بكثير من الحرج ولم يدر ماذا بفعل وخشى أن يخرج من الحجرة فيجرح حريم الدار .

واقترب ببطء من الباب محاولا أن يصدر بقدميه صوتا ينبىء عنه

ويحذر منه اهل البيت ، ولكن احدا لم يابه له او يسأل عنه .. فوقف بجوار الباب وطرقة بضع طرقات فلم يجده الطرق نفعا فتجاوزة إلى التصفيق بيديه حائحا :

— يا ساتر .. يا ساتر .

واخيرا مد عنقه من فرجة الباب فوجد القاعة خالية فتقدم بساقيه ووقف يتطلع ببصره فيما حوله .. عجبا ! .. ليس هناك من مخلوق يوحد الله .. طبعاً .. لقد تأخر في نومه ، و « شوشة » قد ذهب إلى عمله ، و « سيد » ذهب إلى مدرسته .. فهما ليسا مثله نثومي الضحى .. ولكن اين أم آمنة ؟

وتقدم قليلا إلى باب الشقة واخذ يتلفت حوله عندما سمع :

— صباح الخير يا شحاته أفندى .

واخيرا ، ظهرت ، كانت أم آمنة منحنية تحت بير السلم تكس الفناء .. وقد أحست به من وقع خطواته فبدأته بالتحية .

— صباح الخير يا خالة أم آمنة .

— خير عليك يا بنى .. نوم العوامى .

— الله يعافى بدنك .

— اذا كنت عايز تغسل وشك .. الطشت والابريق عندك فى المطبخ ، ودلوقت حا حضر لك الفطار حالا .

— يا ستى كتر خيرك .. ما تتعبيش نفسك .

— ودى فيها تعب إيه ؟ .. الاكل موجود وخير ربنا كثير .

— والله ما تتعبى نفسك ولا تعملى حاجة أبدا .. أنا ما تعودتش أفطر بدرى .. خليتك بعافيه .

— يا شحاته أفندى ما يصحش .. هى دى تيجى ؟ تخرج من غير ما تغير ريقك ؟

ولكن « شحاتة أفندى » كان قد تناول صرته وأسرع يعدو مهرولا .

غاراً من الجمائل والكرم وطيب الخلق .. التى صهرت ما تبقى من تلامته
وبجاحته .. وجعلته رقيقاً واهياً .. لا يستطيع المقاومة .

وانطلق الرجل بصرته إلى حال سبيله ، ولم يبق فى الدار سوى
أم آمنة .

ومرت ساعات الصباح ، وانتصف النهار ، وكل منبهك فى عمله
وكان « شوشة » أول من عاد إلى الدار قبل الساعة الثالثة .. وكان
يحمل لفافة فى يده وقرطاساً وحزمة فجل فى اليد الأخرى .. وألقى
التحية إلى أم آمنة التى كانت تنتظر فى موضعها المعتاد أسفل بئر
السلم ، وسألها قائلاً :

— سيد ما جئت ؟

— لسه .

— وعم شحاته ؟

— برضه ما رجعتش .

— هوا خرج امتى ؟

— قرب الضحا ، وعزمت عليه يغير ريقه مارضيئش .

— أنا جايب رطلين سمك مقلى وشوية بلح أمهات .. وحاخش

أصلى واقيل شوية عقبال ما يكونوا جم ناكل كلنا سوا .

ودخل « شوشة » إلى الشقة ، بعد أن وضع ما فى يديه على
الطبلية التى تتوسط القاعة ، ومضت نصف ساعة والدار مفرقة فى
سكون لم يقطعه الا صوت صفير مألوف وأقدام مندفعة إلى داخل الدار
وصيحة منادية :

— أم آمنة يا ويكا .

وقذف « سيد » باللوح الصفيح وارتمى فى حجر جدته المتلهلة

الأسارير ، المبسوطة الذراعين .. وقال لها وهو يتخلص من ذراعها :

— فين الصغاره ؟

— أنهى صغاره ؟

- اللى اداها لى شحاته افندى .
- انا شفتها !! لازم متلقحه مطرح ما سييتها .
- انا عايزها ضرورى .. النهارده حان لعب عسكر وحراميه ..
- وحاتنفعنى اوى .. ما لعبتيش ابدا عسكر وحراميه ؟
- ان شالله تتفصح .. انا برضه حابقى عسكر ؟
- طيب بلاش .. تبقى حراميه .. نيه اكل ايه ؟ . انا جعان .
- ابوك جايب سمك مقلى . وبلح امهات .
- طب ما تياالله ناكل ؟
- بس اما ييجى شحاته افندى .
- هوا راح فين ؟
- خرج م الصبح من غير ما يغير ريقه وماجاش لسه .
- ودلف سيد إلى الداخل ونفذت إلى خياشيمه رائحة السمك فمد يده إلى اللفافة التى نضح الزيت عليها ، ولكن قبل ان تمس يده السمك سمع صوت أبيه يناديه :
- سيد .
- ايوه بابا .
- استنى لما ييجى عمك شحاته افندى .
- حاضر بابا . انا بس كنت بشوف الورقه فيها ايه .
- فيها سمك .
- عال .. انا احب السمك اوى .
- دلوقت نتغدى كلنا .
- ودخل « سيد » إلى حجرة الصحارة فاخرج كيس البلى واخذ يتسلى بعده ، ثم بدأ فى صبع كرة شراب ، ثم تشاغل باصلاح سن النحلة حتى شعر بحركة فى امعائه فالتى بكل ما فى يده وعدا إلى حجرة أبيه صائحا :
- آبا .. مش حناكل باه ؟ .. انا جمعت .

وكانت الساعة تد اوشكت على الرابعة ، ولم تكن أمعاء شوشة
مأقل صياحا من أمعاء ولده ، وبدأ يقول متلهلا وكأنه يحدث نفسه :

— هو ايه ؟ . مش ناوى بيحى والا إيه ؟

وأجابه « سيد » مؤكدا :

— الظاهر كده .. لأنه خد الصره بتاعته .

— إيش عرفك ؟

— عشان مش محطوطه نى الأوده .

— لازم مش ناوى يرجع .. مسكين . رينا يسهل له . راجل طيب

وغلبان .. يالله ناكل .

وأسرع « سيد » ينادى جدته ، وفتحت اللفافة وجلس الثلاثة

يتناولون الطعام حول الطبلية .

وعندما اوشكوا على الانتهاء من الطعام سمعت وقع اقدام متناقلة

تتقدم فى الفناء ، فأنصت الثلاثة وكانت أم آمنة أول من تحدثت قائلة :

— دا لازم شحاته أفندى !

وكانت لها قدرة عجيبة على تمييز وقع الأقدام .. فقد أخذت

الخطوات تقترب من الباب مترددة ، ثم انزوى صاحبها وراء الباب ولم

يبد منه للأعين المتطلعة غير ذراع يطرق الباب وصوت يقول مستأذنا :

— يا ساتر .

وكان الصوت يؤيد قدرة أم آمنة ، ويؤكد أن القادم هو شحاتة

أفندى . أما الذراع الطارق فقد كان يجزم بأن صاحبه ليس شحاتة

أفندى .

كان الذراع يرتدى كما اسود ، مما يدل على أن صاحبه يلبس

جاكete سوداء ، بينما كان شحاتة أفندى قد باع جاكته ولم يبق له من

رداء سوى الجلباب .

أما أن يكون الطارق غير شحاتة أفندى .. أو يكون شحاتة

أفندى اشترى جاكته ، وكلا الأمرين أكثر استحالة من الآخر .

ولم تطل الحيرة بالقوم ، فقد بددتها صيحة شوشة : « اتفضل » ،
ثم تفضل الطارق بالدخول ، وأثبت أنه فعلا شحاتة أفندى .
عجبا ! والف عجب !

أهذا هو شحاتة أفندى ؟

استغفر الله .. انه شحاتة بك .. شحاتة باشا .. لا يمكن ان
يقول عن هذا ؟

ألم يكن شحاتة أفندى وهو جربوع ، منكوح ، هلفوت لا يرتدى
سوى الجلباب ؟ فكيف به وهو يرتدى الآن بذلة سوداء كاملة مما يرتديه
العظماء فى المناسبات والحفلات .

كيف به وهو يرتدى ردنجات من جاكته وبنطلون وصدىرى وقميص
وياقة وكرافطة ؟

ان الرجل لاشك قد حصل على كنز !! فهو فوق ارتدائه لهذه
الحلة الفخمة .. قد اقبل محملا بالقراطيس واللفائف والخيرات .

وبدا شحاتة أفندى ينزل احماله الواحد بعد الآخر حتى وضعها
جميعا فوق الطبلية ، ولم تبقى غير الصرة فى يده .

فقدّم بها على الأرض ونفخ الجميع بنحية ملؤها النشوة والطرب
قائلا :

— يا بيت أنس .

وكان على الثلاثة (ومن بينهم العجوز الضريرة التى احست من
حركة القراطيس ان الرجل يحمل خيرا وغيلا) ان يبذلوا جهدا كبيرا
لاستعادة سيطرتهم على مشاعرهم وهم يرون هذه المعجزة الكبرى .

وصاح الثلاثة فى نفس واحد :

— اهلا وسهلا .. اهلا وسهلا .

وأردف « شوشة » يقول للرجل مؤنبا :

— نينك يا راجل ؟ إيه الغياب ذ ؟ .. احنا غفلنا مستنيينك على

الغدا لفاية الساعة أربعه ، وبعدين عرفنا انك أخذت الصره ، قلنا لازم مش ناوى يرجع ؟

واجاب « شحاتة » ضاحكا :

— وانت بتقول فيها ؟ انا صحيح ما كنتش ناوى ارجع .. لانى كنت مستنقل نفسى كده ، وانا قاعد زى تنابلة السلطان .. أكل ونوم .. لكن ربك سترها .. الحمد لله .. دا ما ينساش عبيده أبدا .. « ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

ثم رفع كفه إلى أعلى وصاح فى دعاء :
— الستري يا رب .. مانيش عايز الا الستر .

وضحك « شوشة » وقال معقبا :

— هوا ده ستر بيس ؟ ده ستر بنغنعة .. ده رزقك من غير حساب .. بعدما بيعت الجاكطة اشتريت بدله .. وبدله إيه ؟ بدلة بشوات .
وسأله « شحاتة » فى دهشة :

— اشتريت بدله ؟ أنهى بدله دى اللى اشتريتها ؟
— اللى انت لابسها .

وانطلق « شحاتة » مقهقها ، وهو يقول :

— الله يسامحك .. دى بدلة الشغل .. دى العده اللى كانت ملفونه فى الصره .. لبستها وقلعت الجلابيه وصرتها مطرحها .

— دى بدلة شغل ؟ ! دا انت لازم بتشتغل فى وظيفة كبيره قوى .. بتشتغل وزير ؟ انا اعرف ان الواحد لما يلبس هدم الشغل .. يلبس .. يلبس حاجه مقطعه مهريده تستحمل الشغل .. لكن ما شفتش حد أبدا يتفسخ بجلابيه دهور .. ويشتغل ببدله جوخ .

وكان « شحاتة أفندى » ما زال واقفا .. فقالت « أم آمنة » مقاطعة شوشة :

— اتعد يا شحاته أفندى .. اتعد استريح عشان تاكل لك لقمه .

ورفع « شحاتة أفندى » سيقان بنطلونه بكتنا يديه ، ثم رفع ذيل الجاكطة وهبط إلى الأرض مترعاً أمام الطبلية .

وكانت عين « سيد » لم تغادر الرجل لحظة واحدة .. فهى تنتقل خلاله فاحصة باحثة مذهوشة مذهولة .. لقد بدا « شحاتة » لأول وهلة عندما هل من الباب فخماً مهاباً ، ولكن عندما اقترب ووقع هو وحلته تحت الفحص المباشر بدت بذلته الفخمة رثة بالية .. كانت البذلة سوداء .. ومع ذلك فلم تكن سوداء سوداء ، بل سوداء خضراء مما يؤكد أنها لم تسلم من الصبغة بعد أن حال لونها ، وكانت يد الزمان قد جالت فيها وصالت ، وكانت البذلة كلها « مطفية » .. عدا الكيعان والركب فقد كانت « لميع » مقواة منتفخة يبدو بها أثر الكوع أو الركبة ، حتى ولو لم يكن بداخلها كوع ولا ركبة .. أما الياقة فلم يكن لها وجود ، بل حلت محلها ياقة من القطيفة السوداء ، وأما حجر البنطلون فكان مجوز إذ وضع على الحجر الأصلى حجر جديد .. يستر بلى القديم ويعطيه مقاومة ضد الزمن ، وكما كانت البذلة ليست سوداء سوداء كان القميص ليس أبيض أبيض ، بل أبيض أصفر إذ يحيط بالياقة المنشأة اطار أصفر من العرق الذى لم تنفع فى إزالته يد الغسيل ، ويشد الياقة فى عنق صاحبها « بمباغ » أسود من النوع الذى يشبك الياقة بقطعتين من الحديد .. أشبه « بالكليس » .

أما القميص .. فلم يكن قميصاً بمعنى الكلمة .. بل كان لا يزيد عن صدر قميص وأسورتين .. تبدوان من طرف كم الجاكطة .

هذا هو ما استطاع أن يراه « سيد » من المنظر الجديد الذى طرأ على « شحاتة » .. أما بقية ملابسه فقد كانت هى هى .. نفس الطربوش النهار .. والحذاء الحائل الخالى من الرباط ، والجورب الصوفى الكاكى .

وأخذ « شحاتة » فى فتح اللغائف الواحدة بعد الأخرى ، كانت

بالأولى كفتة ومبار ، وبالثانية جبنة حلوم ، وبالثالثة بلح امهات ورطل
بسبوسة .

وصاح « شحاتة » ، وهو يفتح القراطيس :

— كلوا .. كلوا بالهنا والشفاء .. اللى ربنا قدرنا عليه .

وأجاب « شوشة » بالنيابة عن الباقين :

— والله سبقناك يا عم شحاته .. احنا لسه مخلصين اكل دلوقت ..

اكلنا سمك .. كان يستاملك .

— ما يمكنش لازم ناكلوا لقمه معايا ، تفتحوا نفسى ..

وكان « سيد » يلهف على الكفتة ، وخشى أن يستهر أبوه على

التحدث بلسانه ويصر على الرفض . فتدخل لانتقاد الموقف قائلا :

— ما تزعلش يا شحاته أفندى .. انا حاكل معاك .. عشان

افتح نفسك .

ولم ينتظر تسريحا من أحد ، فقد كانت المسألة مجرد معروف فى

« شحاتة أفندى » ، وصنع المعروف لا يحتاج إلى استئذان .. وأخذ

الاثنان فى تناول الطعام « ونهضت » أم آمنة « إلى مقرها فى الفناء .

وعاد « شوشة » يسأل :

— ما قتلناش يا شحاتة أفندى إيه شغلتك دى .. اللى بيقتلعوا لها

الجلابية ، ويلبسوا لها البدله ؟ .. انا كل ما اجى أسألك تتوه

الموضوع ؟

وأجاب شحاتة وهو يدفع « بكفتاية » فى غمه ، ويلوكها بين شذقيه :

— شغلتى موصلاتى .

— موصلاتى ؟ !! يعنى إيه موصلاتى ؟

— يعنى موصلاتى .. يعنى بوصل الناس .

— قصدك شيال ؟

— شيال إيه يا معلم شوشه .. أنا أقدر أشيل نفسى !! انا بمشى

كده لوحدى خفيف لطيف ظريف .

— مانيش فاهم .. بتوصل مين ؟ وفين ؟

— بوصل اللى انتهى .. لنهايته .. موصلاتى ذهاب بس مش ذهاب
واياب .. اللى اروح معاه ما يرجعش ابدا .. اسييه وتنى راجع .
وضحك شحاتة مقهقهها .. ولكن « شوشة » لم يضحك بل غامت
على وجهه سحابة حزن وضيق ورهبة وقال فى صوت خفيض :
— انت حانوتى !

وعاد شحاتة يقهقه (فى غير مناسبة للضحك) ، وهو يقول
بخفة وبساسة أذهلت « شوشة » :

— با ريت .. واحنا نتوصل .. الحانوتى راجل معلم كبير ..
متريش ومبسوط .. زى المنشار .. عالطالع واكل ، وعالنازل واكل .
— امال تبقى إيه !

— حاجه كده زى صبى حانوتى أو مطيباتى جنازات .
— مطيباتى جنازات ؟

— أيوه أمشى كده قدام الجنازات من باب الافتخار والقيمة والنفخة
.. نفخة الاموات .. أو آخر نفخة بيتمتع بها البنى آدم المفرور .
— انت من اللى يمشوا قدام الميتين ؟

— مافيش كلام .. يسمونا لفنديه .. واحنا ما فيناش من لفنديه
غير البدله .. الواحد منا يلبس البدله الرسمى اللى حيلته ويلبس الفوطه
الحره اللى زى فوط بتوع العرقسوس على وسطه .. ويمسك فى
ايده المنقذ أو القمقم .. ونزف المرحوم لغاية التربة .. يعنى بالعربى
تقدر تعبرنى زى صبى العالمه .. بس هيه بتزف الذى لن يرحم ، وانا
بزف المرحوم .. هيه بتزفه لقلبة الدماغ .. وانا بزفه لراحة البال ..
بالذمة مش برضه أحسن ؟

ولكن شوشة لم يكن على استعداد لتقبل مزاح الرجل الماجن ،
بل كان يبدو راسخا تحت ائثال من الحزن .

وكان « سيد » قد انتهى من اكل آخر « كفتاية » وبدت على وجهه عدوى الفزع من رجل الأموات الذى يتشدد بذكر الموت والحاوتية ، وغير ذلك من الأشياء المروعة ، وكأنه يتحدث عن البلى والترنجيلة .
وازدرد « شوشة » ريقه وأطلق تنهيدة طويلة . . وأطرق برأسه واجما .

وكان « شحاتة » قد انتهى من الأكل ، فغادر الثلاثة الطبلية وتناول الصرة وهو يتجه إلى حجرة الصحارة قائلا :

— أهو النهارده ربنا فرجها مره واحده . . صدق اللى قال :
« شحاتة » لما يسعد تيجى له جنازتين فى يوم . ومش بس كده . .
بكره كمان غيه جنازتين . . ياما انت كريم يارب . . أهو دلوقت أقدر
صحيح أقعد معاك بقلب قوى ، وأدفع أجرة الأودة . . عن اذنكم
أما أغير .

ودخل الرجل يغير ملابسه ولف « شوشة » إلى حجرته مطرق
الراس شارد الذهن .

لشد ما ملئ « شوشة » بالحزن والتشاؤم . . لقد كان يرحب
به ويضطرب لصحبته . . قبل أن يشم منه رائحة الموت والجنازات والقبور
. . أما الآن فهو يحس منه رهبة شديدة .

والمصيبة أن الرجل بنوى أن ينزل بالحجرة بعد أن كان يصر على
الأيثقل عليه ، وشوشة لن يجسر على طرده أو منعه من النزول معه
بعدما أبدى له تلك اللفظة على اضافته .

وبعد برهة كان الرجلان قد أبدلا ثيابهما واستعدا للخروج ، وعلى
باب الدار قال شحاتة :

— النهاره بقى أنا اللى عازمك . . يالله عشان أفرجك على القهوه
بتاعتنا . . قهوة لفنديه .

وكان شوشة لم يزل على جزعه وتقززه من شحاتة وهو يكاد يشم
منه روائح القبور ، فلم يكد يسمع دعوته حتى هز رأسه بشدة قائلا :

— مانغيش لزوم يا شحاته أفندى .. أنا رايح القهوه بتاعتنا عشان
عندى شوية شغل عايز اقضيهم .

— وماله .. تقضى شغلك وبعدين نروح سوا .

— معلش .. بلاش النهارده .

— ما يمكنش .. أنا عازمك .. والا مش قد المقام ؟ . ما يصحش

.. لازم تجبر بخاطري ، أنا برضك راجل عندى مقدره .

وكانت تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها التأثير على
« شوشة » .. وكان ذلك هو أدق وتر يمكن الضرب عليه ، فقد كان
شوشة يكره أن يخلد إنسانا أو يترفع عن إنسان ، فلم يكذ يسمع قول
شحاتة حتى أجاب على الفور :

— أبدا .. أبدا .. أنا متصدشى .. داحنا للى مش قد المقام ..

ياالله بينا .

— أبوه كده ما تكسرش بخاطري .. دانت حانتبسط قوى ...

ولكن « شوشة » كان واثقا أنه لن « ينبسط » مطلقا وكيف يتأتى

« الانبساط » فى قهوة الجنازات بين مشيعى الأموات ؟

ومع ذلك فقد كان لابد من الذهاب ولابد من احتمال السهرة وصاحبها

مها كانت الظروف .

وسار الاثنان فى الطريق وجرى الحديث بينهما فائرا متقطعا فقد

كان « شوشة » شديد الوجوم شديد الشرود حتى لكأنه هو نفسه
يشيع جنازة .

وأخيرا وصلا إلى قهوة لفندية بالقرب من باب الشعرية فى شارع

الخليج المصرى وكانت تقع فى ركن مرطوب أسفل بيت خرب مهدم ولم

يكن هناك ما يميزها عن بقية المقاهى ولا ما يدل على طبيعة روادها

وزبائنهم اللهم إلا ذلك الحائوت المجاور لها والذي لا يفصلها عنه

إلا باب البيت والذي كتب عليه « الحاج سرور أبو الفرج مقاول عموم

اشغال الجنازات ، مستعد لتوريد ما يلزم من جميع مستلزمات الجنازات من أفندية وفراشة ومزيكة وخلافه » .

كان هذا الحانوت هو الدليل الوحيد على طبيعة المقهى ، اما فيما عدا ذلك فما كان هناك أى شىء يوحى بالموت .. أو تستدل منه على ان المقهى انما هو مخزن لفندية المعدين لعمل مواكب الجنازات .

كانت أبواب المقهى الخشبية تفتح عن رحبة ضيقة رصت فى أحد أركانها الأدوات الخاصة بالمقهى كالكنك والفناجين والجوزات والشيشات ، وفى أعلى الواجهة فتحة بسعة الباب مغلقة بقضبان حديدية متوازية .. اما المناضد والمقاعد والأرائك فقد وضعت داخل الرحبة وخارجها ، وبجوار الواجهة وجدت بعض أصص حوت احداها صبارة والباقى حوت خليطا من الريحان والعتر والبردقوش وفى نهاية الأصص وفى الناحية الأقرب لباب البيت الذى يفصل المقهى عن حانوت المقاول كانت توجد صفيحة ملأى بالطين غرست عليها لبلابة تسلقت على بضعة خيوط امتدت بين الباب وبين واجهة المقهى .

دخل الرجلان المقهى ويشوشة غير قليل من الدهش فقد كانت فى ذهنه صورة موحشة للمقهى ورواده وكان يتوهمه مكانا معتما كئيبا معقرا يخيم عليه الصمت وتجوس خلاله الأشباح وترص به التوابيت وشواهد القبور .. فإذا ما نطق به ناطق كان حديثه أنينا وصياحه ولولة .

ولكنه ما كاد يلقى عليه نظرة حتى أخذ .. كان المكان على ضيقه مكتظا ، لا بالأشباح ولا بالتوابيت ، بل بالزبائن الضاحكين الصاخبين ولم تكن تعلو منه أصوات ولولة بل ترن ضحكات خالصة لا تشويها شائبة هم ولا حزن ، وكانت تقرر فيه قشاطات الطاوله وتتجاوب النكات وتترامى الشتائم المرحه .

كان المكان محفل أنس ومجمع مرح وطرب ، ولم يكن يخلف قط عن أى متهى صاحب ضاح إلا فى ظاهرة واحدة هى طابع رواده وأشكالهم

.. كانوا كلهم من عينة واحدة وشبه واحد بحيث لا يستطيع الناظر إليهم ان يميز أحدهم عن الآخر من أول وهلة .

كانوا كلهم صوراً طبق الأصل من « شحاتة أفندى » ... هيكل عجوز متداعى يلفه جلباب من الدهور المخطط وجاكطة قديمة ، وطربوش منهار الأركان ، وحذاء أجرب بلا رباط وجورب منزلق من المساق الرفيعة الجرداء متساقط على الحذاء .

كانوا كلهم كذلك .. نفس الرأس الأشعث .. والوجه المغضن المعروق والذقن التى تناثرت عليها الشعيرات البيض فلا هى ملتحية ولا هى حليقة .

وسأل شحاتة صاحبه وقد وقف الاثنان فى مدخل المقهى يتلبان البصر فى أرجائه :

— تحب تتعدنين ؟

— تعال نقعد فى الركن اللى هناك ده اللى جنب اللبلاية .

— أمرك .

وجلس الاثنان على المقعدين الخاليين بجوار اللبلاية حول منضدة على قارعة الطريق ، وقال شحاتة فى لهجة ملؤها الأريحية والكرم :

— تشرب إيه بقى يا عم ؟

— أى حاجه .. هات لنا قهوه .

— قوه بس ؟ ودى تيجى .

ثم صفق بيديه وصاح بلا كلفة كأنه فى بيته :

— يا محمود .. اتنين قهوه مضبوط واتنين حمى على كيفك .. وهات

كمان طاولة .

وانبعثت من وسط المقهى صيحة منغمة طويلة تطوى فى جوانحها كلمة « حاضر » ، ورفع شوشة حاجبيه فى دهش وقال وهو يهز رأسه هزات بطيئة :

— عجيبه ؟

— إيه دى اللى عجيبه ؟

— أنا كنت فاكّر ان أنا حاجى اتعد فى وسط محزنه .

— محزنه . ليه كفى الله الشر ؟

— أهو قلت يكونوا طالعين جنازه ، والا جاين من جنازه .

— طالعين جنازه والا جاين من جنازه ؟ ودى حاجه تحزن ..

دى حاجه تبسط .. دى حاجه تفرفش .. الظاهر انك ما عندكش فكره أبدا .

— فكره عن إيه ؟

— عن شغلتنا .. انت عارف المثل اللى بيقول مصائب قوم عند قوم

فوائد .. أهى دى الفوائد .. الجنازات عند الناس مصائب لكن عندنا فوائد .

— يا ستار يا رب !

— يا ستار على إيه ؟ . وهوا لولا جنازة النهارده كنت كلت أكلة

الكفته اللى بشتيها بقالى سنه ، وهوا اللى كان حاجرالى من زمزم لولاك مش من تحت راس وقف الحال وقلة الجنازات .

— لكن ده موت .. موت .. عارف موت يعنى إيه !

— عارفه ياسى شوشه .. عارفه كويس .. هوا أنا لى شغله

غيره .. طول النهار رايح جاى فيه .. رايح فين .. رايح التربه ..

جائ منين .. جاى من التربه .. وبعد كده تقوللى عارف الموت يعنى

إيه ؟ أنا حاقول لك يعنى إيه .. حافهمولك كويس .. وأفهمك قيمة

البنى آدم إيه .. عشان ما تبقاش موهوم قوى كده .. وتبص لى زى

ما اكون مبتلى .

وفى هذه اللحظة أقبل الساتى ويده الطاولة فوضعها أمامهما وعاد

يحمل إليهما صينية القهوة .. ووضع الفناجين وسكب ما فى الكنكة ثم

حياهما وأنصرف .

ورشف شحاتة من فنجانه أول رشفة ، ثم اعتدل فى مجلسه كمن
ينوى حديثا طويلا . . وغادرت وجهه سيماء المزاح التى كانت ترتسم
عليه ، وبدأ حديثه لشوشة يفهمه معنى الموت وقيمة ابن آدم .



قال شحاتة : إن وجه الأرض متغير ، وإن مركبات هذا الوجه
من مختلف الكائنات محدود وجودها بفترة معينة ، لها بداية ونهاية . .
ففترة الوجود تبدأ بالخلق وتنتهى بالفناء ، وتمر بمراحل الجدة والقدم
والانعدام ، وابن آدم لا يزيد عن أن يكون احد مركبات وجه الأرض ،
فوجوده عليها محدود بفترة معينة ، حكمه فى ذلك حكم هذا المقعد
الذى نجلس عليه ، وهذه القطعة الرابضة أسفل المنضدة ، وهذه اللبابة
المتفرعة على الجدار . . انه لا بد بعد الجدة أن يصيبه القدم والانهار
والانعدام ، ثم ينتهى ويفادر وجه الأرض لينبت سواه ويأخذ مكانه فى
الوجه المتغير . هذه ظاهرة لا جدال فيها ولا مناقشة . ولذا كان حريا
بالإنسان أن ينتهى كما ينتهى هذا المقعد أو هذا الجلباب ، وأن يفادر
محله الذى على وجه الأرض فى هدوء كما يفادر هذا الجلباب البالى فكذا
سطح الأرض لا يطبق الإنسان البالى ، وكما يمزق الجلباب وهو جديد
قبل أن على فيخلعه الانسان . . كذا تخلع الأرض بعض سكانها وهم
جدد إذا ما أصابهم التدر بمزق جعلهم غير لائقين بوجه الأرض .

ولكن الانسان يمتاز عن بقية مركبات وجه الأرض بالفور ، فهو
يأبى أن يقارن نفسه بغيره من الكائنات التى توجد لفترة محدودة ، تبدأ
بالخلق وتنتهى بالفناء . . ويأبى الا أن يعتبر نفسه كائنا غير فان وغير
قابل للانعدام ولذا فهو يفزع من أن تكون له نهاية . فإذا ما وجد
نفسه مكرها عليها غير مستطيع عنها فكاكها ، ووجد أن جسده الملموس
والشئ الذى يدلل على كيانه ، قد فنى . . أبى إلا أن يفرض بقاء الشئ
غير الملموس والذى لا يدرى كنهه ولا يستطيع تحديده الا وهو الروح ؟

وهو فى سبيل ذلك يحتر الجسد ويقلل من شأنه ويعظم من ذلك الشئ ،
الذى يتوهم بقاءه وخلوده .

وهو يقول ان الانسان باقى بروحه .. ما قيمة الروح فى ذاتها
بلا جسد ؟ . ان كيان الانسان وتصرفه ومشاعره ورغباته وملذاته وآلامه
.. منعكسة من الجسد ، هو يشتهى لأن جسده يشتهى ، وهو ينعم
بالملاذات لأن جسده يرغبها ، وهو يعشق لأن جزءا من جسده ابصر جزءا
من جسد آخر .. نعم الغباء أن يحاول جعل الروح شيئا مستقلا عن
الجسد ، ومن الغباء أن يتصور بقاءها بعد فناء الجسد .. فكما لا يستطيع
أن يبقى بلا روح ، كذا لا يمكن أن يكون للروح وجود بلا جسد .

إن الإنسان روح فى جسد .. فكيف يستطيع مخلوق أن يتصور
روحه بلا معالم ولا ملامح ، ولا مميزات ، ولا رغبات ، ولا لذات ،
ولا آلام ؟ . ما فائدة الروح الباقية إذا كانت لا تريد على هبة هواء
لا شكل لها ولا لون ولا رائحة .. ولا .. ولا .. ولا شيء أبدا ؟

هذه الروح الباقية ما قيمتها ؟ وما احساسها وما عملها ؟ ان قدرة
الروح فى الأرض كائنة فى الجسد ، مسيرة لخدمته ، فهى شئ تابع
للجسد ، ولا قيمة لطاقتها إذا لم توجه لتحريك هذا الجسد .. ولتمكنه
من أداء وظيفته .. لينال رغباته ومتعاته .

انها اشبه بالقوة المحركة للقاطرة او لآلة آلة .. حقيقة انه ليس
هناك قيمة للآلة بغير القوة المحركة .. ولكن هل هناك قيمة للقوة المحركة
فى حد ذاتها .. إذا لم تجد الآلة التى تحركها ؟

ما قيمة أن تبقى الروح بعد فناء الجسد .. أو بعد فناء الشئ
الاصلى المكون للمخلوق الأدمى ؟

ولكن الإنسان المغرور يكره ان يقارن نفسه بالكلب أو بالمقعد أو بأى
مخلوق من المخلوقات ذوات المدد المحددة فى البقاء على وجه الأرض .
وهو لذلك يكره الموت ويأبى قبوله كنهاية محتمة ويأبى إلا احاطته
بأوهام كريمة .. ويرفض تَعُوده ، وترويض نفسه عليه .

انها مسألة ترويض وتعويد لا أكثر ولا أقل .

وانتهى « شحاتة » من رشف فجاجه ، وكان الساقى قد أحضر التعميرتين ، فتناول احدهما ، وتناول « شوشة » الأخرى .. وأخذ الاثنان فى جذب الأنفاس من خلال الميسم ، وعاود « شحاتة » حديثه و « شوشة » انصاته .

قال الرجل لصاحبه :

— خذنى أنا وانت مثلين لما أقول .. أنت تفزع من حديث الموت وتروع من سيرته .. لقد رأيتك تنفر منى وتنتظر إلى كائى عفریت أو شبح .. كل هذا لأنك لم تروض نفسك على عملية الموت ، ولا تعودت مظاهره ، كل شىء يحدث على ظهر الأرض يهون بالتعود .. لقد كنت مثلك منذ بضعة أعوام قبل ان أندمج فى مهنتى .. كان شعر راسى يقف عندما أسمع صواتا ، وكنت أرتجف إذا ما طرقت أذنى ولولة .. وكنت إذا رأيت نعشا يسير خشعت وطأطات وقرأت الفاتحة وترحمت .. أما القبور فقد كنت أخشى رؤيتها ، أما الأموات فما جسرت على أن أقرب من ميت قط . فماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد سرت فى الجنازة الأولى مطاطىء الرأس ، متجههم الوجه ، وعندما وصلنا إلى المقابر وأخذوا يوارون الجثة فى القبر ، وعلت أصوات الرجال والنساء بالنحيب ، انتحبت معهم كأن الميت قريبى .. واندفعت فى النحيب حتى كاد يغمى على ..

وضحك منى الزملاء واتخذونى موضع تسلية وفكاهة ، واكدوا لى أنى يجب أن أتناول أجرا مضاعفا وأسير وراء الجنازة ، لأنى بين الأمئديه « لقطه » ، ولكنى فى الجنازه الثانية كنت أقل تأثرا .. وفى الثالثة والرابعة لم يكن هناك تأثر قط .

كنت أسير فى الجنازة كائى فى نزهة .. وكان نحيب الناحبين يصل إلى أذنى كأنه صفير القطار ، أو مائة المعيز . وعندما كنت أصل

إلى المقابر .. كنت أجلس على شواهد القبور ، واضمعا ساقا على ساق ، وأنا الذى كنت لا أجسر على الاقتراب منها .

لماذا ؟ انها اكوام من الججارة رصت على الأرض .

وأكثر من هذا ، لقد بدأت اتعود النزول إلى داخل المقبرة نفسه .. اتصدق هذا ؟ لقد فعلت هذا لأنى عزمت على أن أهزم فى نفسى كل خوف من الموت أو رهبة له كثنىء مروع . عزمت على أن اكشفه تماما ، وأن أصل فى كشف خباياه إلى أعماق الأغوار .

لقد تطوعت لحمل أحد الأموات إلى داخل المقبرة .. ولا أكتحك أن الأمر كان يحتاج منى إلى شئ من الجراءة فقد ارتجفت عندما مست يدى لحمة البارد وجلده الباسى .. ولكن بعد لحظات ذهب عنى الخوف ، ولم يزد شعورى عن شعورك عندما تحمل فخذة خروف أو أوزة مذبوحة . ليس كلاهما جسد ميت من لحم وعظم ؟

وهكذا تعودت أن أنزل مع الأموات إلى المقابر .. انها مسألة بسيطة جدا .. فالمقبرة لا تريد على كونها قبو تحت الأرض ، تنائرت العظام فى ناخية منها ، وفى الناحية الأخرى جيف لم يقدم عليها العهد حتى تضحى رميا .

ولا تسأل عن الفائدة التى جنيتهما من ذلك !!

لقد أصبحت رجلا شجاعا .. بل أصبحت أشجع رجل فى العالم . لقد بت أحتقر الموت وأحتقر أكثر منه .. الإنسان .

الإنسان حقير يا صاحبنى إلى أقصى حدود الحقارة .. والعجب !! انه حقير ومغرور .. وغروره يعمى عينيه عن حقارته .

انظر إلى الناحية الأخرى من الشارع .. أترى هذا الشئ الملقى هناك الذى يعف عليه الذباب .. انها جيفة كلب ميت منتفخ الجسد .. انظر إليها جيدا .. لا تشمئز كثيرا ، واسمع حكايتى التى سأقصها عليك :

كنت أسير ذات يوم فى أحد الطرقات فرأيت الطريق قد أظلى ،

والناس مزدحمة على الأرصفة : وقد صفت الجنود على الجانبين ،
وسألت عن الخبر ، فعلمت أن كبيرا سير ، وأن الطريق قد أخلى له ،
حتى لا يعرقل سير موكبه رائع ولا غاد ، وحتى لا يشاركه الطريق مار
من البشر يفسد فخامته وابهته ، وبعد لحظة أقبل الموكب ، خيل مطهمة
وجند مدججون وحراس مزركشون وعربات مزينة مزخرفة . . ومر
الكبير ، وهو يرفل فى أبهى مظاهر العظمة والروعة ، وأخذت من مرآه ،
وبدا لى كأنه قد هبط من السماء ، وأنه من المستحيل أن يكون بشرا
مثلا ، بوجهه الأبيض المتورد وحلته الجوخ المزركشة بالقصب ، وقد
حفت به كوكبة من الفرسان برماحهم وسيوفهم .

وأحسست بالضالة والانكماش . . واحتقرت نفسى احتقارا شديدا .
ومرت بضعة أشهر ، ثم سمعت أن الكبير قد مات . . ووقفت أرقب
جنائزته ، وبدأ يمر موكبها رائعا فخما . . لا يقل فخامة عن موكبه ، وهو
حى . . كانت فصائل الفرسان والجنود يتقدمون النعش بملابسهم الزاهية
الملونة تتخللهم الموسيقى العازفة الصادرة ، وهى ترن على جانبي
الطريق فتحدث صدى مروعا ، وبدأ النعش محبولا على مدفع ضخ
ملفوف فى علم أخضر ، تجره الجياد السود الضخام . . وتحلت مقدمته
بصنوف النياشين والمداليات .

وتلا ذلك حشد زاخر من المشيعين يتقدمهم الرجال الرسميون
بحلهم السود المزركشة ، ثم تلت بعد ذلك وفود لا حصر لها .
وأخذت من روعة الموكب . . وقلت لنفسى . . تبارك الذى خلق . .
« علو فى الحياة ، وفى المات » . . وعظمة حتى بعد أن قضى .

مرتين كان فيهما الرجل الكبير راغلا فى أبهى مظاهر الإبهة والفخامة
. . تحف به مواكب الحراس والجنود . . مظهرة أروع صورة لعظمة
الإنسان وسلطانه مما يجعل النفس تتضائل بجوارها .

ثم رايته فى المرة الثالثة !!

انظر إلى جيفة الكلب المنتفخة النتنة الملقاة أمامك .

لقد كان كذلك .. لا يفترق عنها قعيد أنملة .

لقد تصادف أن مات قريب له بعد ذلك ، وكان أقل منه قدرا مما سح
لى بأن اشترك فى زفافه حاملا قممى لابسا حلتى وفوطتى ، ودن
الرجل فى نفس مقبرة الكبير وتطوعت لحمل جثته داخل المقبرة ، وهبطت
إلى المقبرة .

وهناك وجدت الآخر .. بلا فخامة ولا ابهة .. ملقى كالقريبة الملقى
التي تحملها على ظهره أو كالخروف المذبوح الذى نفخه الجزار إعدادا
لسلخه .. بلا حراس ولا جنود ، ولا موسيقى ولا مواكب .. اللهم
إلا مواكب الدود .. دود عادى لا يلبس التشريفة ولا يمسك رمحا
ولا سيوفا .. دود بسيط كذلك الذى يحف بجثتك وجثتى وجثة هذا
الكلب .

ولم أتمالك نفسى من ابتسامة ساخرة .

أرايت احقر من الإنسان أو أشد غرورا ؟

إياك أن ترهب إنسانا لمظهره ومنصبه .. إياك أن تروع بتلك
الألقاب وتلك الثياب .. انها مهما ضخمت فلن تحوى فى طياتها سوى
بشر ، ومهما ضخم البشر .. فمآله إلى جيفة ننتنة .. كهذا الكلب .

ليفتقر ما شاء له الغرور ، وليتكبر ولبتعاضم وينعجرف . ليفعل كل
شئ .. كل ما عليك أن تعطيه موعدا أقصاه بعد أعوام .. لتلقاه
فى مقبرة وانظر كيف يبدو .. أسأله عن القابه وعن ثيابه وعن حراسه
وهن أمواله وعن سلطانه وعن جبروته وعن قوته ثم انظر بماذا يجيبك .
إذا أجابك بأكثر مما يجيبك ذلك الكلب .. فابصق فى وجهه ..
وفى وجهى .

كلها أعوام .. والأعوام تمر على الزمن الطويل كالدقائق ، ثم تلتى
صاحب العزة وصاحب السعادة وصاحب الرقعة ، وصاحب أفخم لقب
من الألقاب البشرية على الأرض ممدد الأطراف منفوخ البطن لا يحميه من

عادية الدود قاتنون ولا يصون ذاته الكريمة التى لا تمس صائن ، ولا يقى
جثته الممرغة فى التراب الشرفة للمقبرة .. واق ولا حام .
ليس هناك أحتر من البشر ولا أغفل . أهنك أشد غفلة من مخلوق
يفغل عن نهايته ؟

أهنك أكثر غفلة من مخلوق يوقن من نهايته ولا يعتبر بها ؟
هذا هو الموت يا صاحبي ، وهؤلاء هم البشر .
نهاية طبيعية .. لمخلوقات غير طبيعية .



وانتهى « شحاتة » من حديثه وسرعان ما زالت عنه مظاهر الجد
ثم اطلق ضحكة عالية وقال لشوشة :
— ايه بقى رايك يا عم فى المحاضرة دى .. صدقت والا لسه ؟ .
وانبعثت من صدر « شوشة » تنهيدة حارة ولم يجب فأردف
« شحاتة » مقما :

— أنا عارف ان ما فيش فايده .. ما فيش فايده .. إلا إذا شفت
بنفسك واتعودت بنفسك .. أنا برضك لو كالى واحد حلف لى على اليه
تجهد على الكلام اللى قولتهولك ده قبل ما أجربه ماكنتش صدقته .. على
العبوم كل اللى عايزه انك ما تتضررش من عشرين والقعدة معيا ..
لانى ابتديت أحبك ، ونفسى أننا نفضل أصحاب على طول ، لكن إذا
كنت انت ما تتضررش تتخلص من ضيقك منى ومن وهك من الجنازات
والموت .. فانا ملحبش أضايقك ولا اتقل عليك .. وأنا من النهارده
أرجع معاك وأخذ الهدوم بتاعتى ...

وقفز الدمع فجأة إلى عيني « شوشة » وبذل جهدا كبيرا لاعادته إلى
موضعه ، وإن كان « شحاتة » قد لمح أحمرار عينيه .
وبعد أن تخلص من دمه قال :

— يا شحاتة أفندى .. انت زى ما جيتنى أنا حببتك .. أنا بقالى

مده مشى لاقى صاحب استريح له ، واقضض له . والبنى آدم من غير صاحب ما يسواش بصله .. البنى آدم أكثر ما يحتاج له فى حياته صاحب ، وأنا حاسس انك صاحب حقيقى ، وزى ما انت مش عايز تفرط فيه أنا مش حافط فيك .. أنا بيتى بيتك ، وأهلى أهلك .. خليك قاعد معنا على طول .

وعندما طفرت الدموع إلى مقلتى « شحاتة » لم يحاول ان يعيدها بل تركها تنساب فى اخاديد وجهه المفضن .

وأخيرا نهض الرجلان مفادين المتهى متجهين إلى البيت . وفى الطريق توقف شحاتة أمام مقلة الحسينية وابتاع خليطا من الفسول السودانى واللّب والحمص ثم سأل شوشة :

— حانشتري عشا إيه ؟

— ما فيش لزوم .. العشا موجود .. فيه جبنة وفيه بلح وفيه البسبوسة وفيه عسل اسود . مافيش لزوم للطرطه .

— طب نشترى حاجه لسيد .

— كفايه اللّب والفول .. هو حايذهب .

ووصلا إلى البيت وكانت أم آمنه تقوم بعملية تشطيف سيد ، وكان صراخه التقليدى يعلو محتجا على استعمال الصابون .

ووقف « شحاتة أفندى » فى القاعة وهو يصيح بسيد مستفسرا :

— مالك يابو السيد ؟

— بتفسل لى راسى بالصابون .

— وإيه يعنى ؟ ودى حاجه تستاهل الصريخ دا كله ؟

— طيب تعالى أنت كده ورينا شطارتك .. خليها تفسل لك راسك

بالصابون وشوف حاتصرخ والا لا .

— لا يا عم . حد الله بينى وبينها .. أنا بقالى ثلاثين سنه ما غسلتش.

راسى لا بميه ولا بصابون .

— طيب آمال عامل حدق ليه ؟

- لما كنت صغير قدك كنت يستحيل .. لكن دلوتت كبرت ..
 عقبال ما تكبر انت كمان وتتمتع بالوساخه .
 وانتهت ام آمنة من تشطيف سيد ، وذهبت إلى حجرتها للصلاة ،
 وعدا سيد إلى شحاتة فى حجرة الصحارة قائلا له :
 — انت خلاص حاتسكن هنا ؟
 — ان شاء الله .. لو ماتضايقوش منا .
 — نتضايق ازاي ؟ احنا ديكي الساعة لما يسكن معانا شحاته
 افندى بحاله ؟
 — عشت يابو السيد .. عشت .
 — بسر اسمع بتي .. فيه حاجات عايزها منك .
 — إيه هي .
 — اول حاجه تعلمنى الصناره .. عشان طول النهار باتنخ فيها ..
 مانيش عارف .
 — بس كده .. خليها على الله .
 — تانى حاجه .. عايزك كل يوم تسمع لى السوره .
 — سورة إيه ؟
 — السوره اللى علينا فى الكتاب .. انت ما انتساش حافض
 القرآن ؟
 — والله مش قوى .
 — ليه مارحتش كتاب وانت صغير ؟
 — رحت .
 — طيب ما حفزوكش القرآن ؟
 — حفزونى ونسيته .
 — معلش .. على العموم السوره مكتويه فى اللوح .. وكل
 اللى عليك انك تسمعها لى من اللوح .
 — بسيطه .. فيه إيه تانى ؟

— تعرف تعمل طيارات .
— طيارات ورق ؟
— امال يعنى حاتعمل طيارات حريبه ؟
— والله كنت زمان بعمل .. وافكر برضه ان انا اقدر اعمل
دلوقت .

— طيب عايزك تعمل لى طياره .
— عندك الورق والغاب ؟
— عندى الغاب ، وهات لى انت الورق .
— حاضر .. فيه حاجه كمان ؟
— تعرف تعمل كوره شراب ؟
— واعمِل كوره شراب .
— وتلعب بالنحله ؟
— والعب بالبيضة والحجر .. كل اللى انت عايزه حاعملهولك
يابو السيد .. ما تحملش هم ابدا .
— يا سلام يا شحاته افندى .
ثم صاح هاتفا بأعلى صوت :
— يعيش شحاته افندى .. يعيش شحاته افندى .
وكانت « أم آمنة » قد انتهت من الصلاة وصاحت بسيد :
— هات الاكل اللى جوا من المطبخ رصه على الطبلية يا سيد ..
عشان ابوك وعملك شحاته ياكلوا .
— وانتى مش حاتكلى معنا ؟
— أنا كلت .

ورص الطعام وانتهى الثلاثة من تناوله وآوى شوشة إلى حجرته
فجلس بجوار النافذة جلسته الصامته الحزينة رانيا يبصره إلى النجوم
المطلة من سقف الدرب .. وجلس شحاتة ممسكا بالناي وقال :

— هه .. نيتدى ؟

— أيوه .

— انا حاصفر لك حته سهل .. ويعدين حاعلمك ازاي تصفرها .

ثم بدأ يصفر لحنا بسيطا لم يكده يسمعه سيد حتى صاح فرحا :

— عارفه .. مثن ده .. « خد البزه واسكت .. خد البزه

ونام » ؟

— أهو هوه .

واستمر الرجل في الصغير وسيد ينشد معه صائحا :

خد البزه واسكت خد البزه ونام

امك السيده وأبوك الإمام

ثم كف « شحاتة » عن الصغير وبدأ في الشرح قائلا :

— شوف بقى يا سيدى ، هات ايدك اليمين .. خلى صباعك الكبير

تحت الصفارة وافرد صوابك الأربعة وحطهم على الخروم اللى في

الآخر .. أيوه كده .. وكمات ايدك الشمال .. خلى صباعك الكبير

على الخرم اللى تحت الصفاره والثلاث صوابع اللى بعده حطهم على

الخروم اللى ناحية بقتك .. ودلوقت عايز تنفخ .. شيل صباعك الثانى

ويعدين الأول .. حطهم الاتنين وشغل الثالث والرابع .. أيوه كده ،

تانى انفخ .. شيل الأول ، والتانى .

واستمر شحاتة في درسه حتى استطاع سيد أن يصفر المقطع

الأول من اللحن فقال الأستاذ :

— بس .. الليله دى كفايه كده .. بعد جمعه .. حتبقى أحسن

زمار في مصر .. ولا البزرى .. ودلوقت بقى هات اللوح لما اسمعك

السوره .

واحضر « سيد » اللوح الصفيح وأعطاه لشحاتة قائلا :

— آخر سوره خدناها هي سورة عبس .

— ومال خطك وحش كده ليه .. زى نغبشة الفراخ ؟

— ده وحش ؟

— أنا مش عارف اقرا منه حاجة ابدأ .

— لازم مبتعرفش تقرا .. تلاقيك نسيت القرايه .. زى ما نسيت القرآن !

— يا واد بلاش نقوره .

— آمال مش عارف تقرا خطى ازاي ؟ مع انه احسن خط فى الكتاب كله ؟

— طب قول بلاش غلبه .. ابتدئ .

وجلس « سيد » متريعا على الأرض ، واعتدل فى مجلسه ، ثم بدأ يهتر للأمام وللخلف مرددا :

— عبس وتولى أن جاءه الأعمى .

واعترض « شحاتة » قائلا :

— وهو يعنى عبس دى .. ما تتقالش إلا إذا اتهزيت قوى كده ؟

— آه .. زى ما علمونا .

— طيب كمل .

وعاد « سيد » إلى الترنج مرددا :

— عبس وتولى أن جاءه الأعمى .

وبدا أن الكلمة التالية قد غابت عن ذهنه ، فقد أخذ يردد الجملة بضع مرات ، ثم خرج عن السورة محاولا التخلص من مايق النسيان بسؤاله « شحاتة » قائلا :

— الا على فكره يا عم شحاته .. يبقى مين عبس ده ؟

— عبس ؟

— أبوه عبس .

— ما يبقاش حد .

— يعنى إيه ما يبقاش حد ؟ يطلع من الكفار والا من المسلمين ؟

— لا من الكفار ، ولا من المسلمين .

— آمال يبقى ايه ؟

— هوا حد قال لك ان عبس ده راجل ؟

— آمال ست ؟

— يا بنى آدم .. عبس .. يعنى كثر .. تولى .. يغنى انصرف ..
الاستاذ ماقالكش كده ؟

— لا .

— آمال قال لك ايه ؟

— ولا حاجه ابدا ، بيخلينا نحفض كده من غير سؤال . خدنا جزء
عم كله .. من غير ماحنا غاهمين ولا كلمه ، واهو كلام بنتقوله عمالين زى
البغبغات .

— طيب يا سيدى انا حافهمك ، حكاية عبس وتولى دى .. كان
فيه واحد من الصحابة اظن ان اسمه ابن ام مكتوم .

— ابن ايه ؟

— ام مكتوم .. اسمه كده .

— ماله ابن ام مكتوم ده ؟

— ده كان راجل اعمى ، فراح يوم للنبي عليه الصلاة والسلام ،
فلقاه مشغول مع جماعه من الكبار .. اللى عليهم القيمه بتوع قریش ،
وعمال يهدى فيهم ، فراح حاشر نفسه وسطهم وقطع عليه الكلام ،
وقال له « علمنى مما علمك الله » وتعد يزن عليه ، والرسول مش سائل
فيه ومشغول بالجماعه التانيين ، فنزلت الآية دى على سيدنا محمد تقول
له انه ما كانش حقه يعبس ويكشر ويسيب الراجل الاعمى الغلبان لانه
عايز يتعظ ، ويمكن الموعظة تقيده .. اهى دى كل الحكاياه . طبعاً
ما كانش عارف عنها حاجه وعشان كده لازم بتحفض غصب عنك ..
وانت متاذى ؟

— بحفض لخونى من الفلكة والترعة .

— يا خسارة القرآن بين الجهله .. القرآن دا « يا سيد » كلام
حلو .. بس لازم يتفهم .. ده معجزة .. دا مافيش حاجة فى الدنيا
تخلينى انطرب أد سماع القرآن والاتصات له . انت لو فهمته حاتحفظه
من نفسك .. شايف الآيه المتعلقة على الحيط دى .. اقراها كده .
وبدا « سيد » القراءة ، وكانت الآيه مكتوبة بالخط الثلث المتشابكة
حروفه ، فلقى « سيد » صعوبة فى قراءتها وأخذ يردد فى ببطء :
— ولنبلو .. ولنبلو .

ثم صاح فى يأس :

— احنا ما خدناش الخط المشبك ده .

— ولا حاتخدوه .. دا شغل خطاطين .. بيكتبوا حاجات عشان
الزينة مش عشان القرايه .. أنا حاقراك أنا .. (ولنبلونكم بشئ من
الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين
الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) .
يعنى ان ربنا بيبتحننا بالخوف والجوع وضياع الأموال وهلاك الأنفس
والأولاد فبشرى للصابرين اللى لما تصيبهم مصيبة قالوا ان احنا ملك
لربنا ، واننا راجعين له .. شايف الآيه دى وشايف حلاوتها .. فيه
حاجة تصبر المخلوق المصاب أكثر من كده .. وشوف الآيه التانيه :
(والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون) .

يعنى اللى يصبروا على الفقر والمرص وعلى الضنك والأذى هم دول
المتقين الصادقين .. فيه تكريم للمصاب أكثر من كده ! وفيه تشجيع على
الإيمان واحتمال المكاره والصبر والجلد أكثر من كده ! دى حاجة تخلى
الواحد يتمنى المصيبة عشان يصبر عليها .

وهز « شحاتة » رأسه فى تأثر ، وهو ينظر إلى « سيد » ليرى
مدى تأثير قوله عليه .. ولكن الصبى فاجأه بسؤاله :
— لما ما يكونش لها ديل بتقلب ليه ؟

ودهش الرجل أيما دهشة فقد ظن أن الصبى منهك فى الانصات إليه .

ولم يملك إلا أن يسأله فى دهشة :

— من غير ديل ؟

— أيوه .. بتقلب ليه ؟

— هى إيه دى ؟

— الطيارة .

— آه .

وتبين أن ذهن الصبى كان شاردا طول الوقت فى الطيارة ،
وأنه لم يع شيئا من درس التفسير الذى لقنه إياه . ولم يجد بدا من اجابته
بقوله :

— حشان الديل يحفظ التوازن بتاعها .

— توازن ؟

— أيوه .. يعنى ما يخلش جنب اتقل من جنب .. تبقى زى

الميزان لما تكون الكفتين مقصاد بعض .

— طيب وليه تضرب بالراس ؟

— هى إيه دى ؟

— برضه الطيارة .

— والله حكاية ضرب الراس دى معرفهاش .. ده علم جديد ،

اصل على أيا منا ما كانتش تضرب بالراس أبدا .. كانت طيارات مؤدبه

.. ومع كل انت زعلان ليه .. لما تضربك بالراس ابقي اضربها انت

بالراس .

— هوا إيه أصله ؟ هى حا تضربنى أنا بالراس ؟

— أمال حاتضربنى أنا ؟

— لا .. حاتضرب الهوا .

— طيب يا سيدى ضربه .. انتا يعنى صعبان عليك الهوا ..

خليهم يصطفلوا مع بعض .. ما هو تلاقى الهواء يرضه لازم عمل فيها
حاجه .. يعنى هى حاتضربه كده من الباب للطاق .

— ما هى لو ضربت بالراس .. حاتقع على الأرض وتنكسر .

— بقى تستاهل .. عشان تحرم تضرب بالراس .

ثم أمسك « شحاتة » باللوح الصفيح وهز رأسه قائلا :

— الحقيقة لهم حق يحفضوكم صم ، دول عشان يحفضوكم بالتفسير
ويخشوا معاكم فى حكايات عن الطيارة ، وضربها بالراس ، لازم
حايخدوا لهم أد ميت سنه لما يخلصوا جزء « عم » .. سمع يا خويا سمع
.. قول الله يعينك .. خلينا نقوم ننام لحسن ورايا بكره ثلاث زفف ..
قول يا سى سيد .. « عبس وتولى » .

وجلس الصبى جلسته المتربعة ، ونصب هامته ، ثم أخذ فى
الترنح للأمام وللخلف قائلا :

(عبس وتولى .. أن جاءه الأعمى .. وما يدريك لعله يزكى) .

الفصل الثامن

استعداد لمحنة

مرت الأيام و « شحاتة » ينزل فى شقة « شوشة » ويقطن حجرة الصحارة ، وشارك الأسرة فى أكلها ومقرها حتى بات كأنه عضو فيها وأنه ساكن أصيل يعيش معهم من عشرات السنين ، فقد الفوه والفهم حتى لم يعودوا يتصورون أنهم كانوا يعيشون من غيره .

ولا شك أن وقف الحال الذى كان قد أصاب « شحاتة » فى الفترة الأخيرة قد ولى عنه تهما ، وأن الدنيا — أو على الأصح الآخرة — قد اتبلت عليه ، واغدقت عليه من أهواتها الجم الكثير ، وأن الله قد أصاب الناس بوباء أو بفترة ، وأن عزرائيل قد نشط من أجل « شحاتة أفندى » نشاطا عظيما ، وإن دفع بين الخلق يطيح برقابهم ويقصف أعمارهم .. فكان « شحاتة » يخرج من الدار بصرته ويظل غائبا طول اليوم ، فلا يعود إلا فى آخره مرتديا بدلة الشغل منهك الجسد متعب الساتين من فرط المشى والتشييع .

وبدت مظاهر العز والنغمة على « شحاتة » جلية واضحة ، وكانت أول تلك المظاهر هو نفحة شوشة « ربالا » كأجر للحجرة التى يقطنها وابتاعه لنفسه جاكته « نصف عمر » من سوق الكانتو بدا فيها محترما مهابا .. ثم اغداته القروش على « سيد » واغداته المأكولات والحلوى على أهل الدار فى كل غدوة وروحة .

وفى ذات يوم خرج قبيل المغرب مع « شوشة » قاصدين المقهى الذى تعود ان يجلس عليه شوشة ، وكان شحاتة يرتدى جاكته الجديدة أو نصف الجديدة وقد كوى طربوشه وغسل جلبابه ومسح حذاه الإجرب ابتاع له رباطا أغلق به فاه ورتق الثقوب التى به بما تيسر من اللوز ورفع الجورب المتساقط وشدّه على ساقه بقطعتى دويّاه .

بوجه عام كان شكل الرجل مقبولا ، لا سبما وقد حلق ذقنه ، ولم يعد هناك أثر لطيفة الشعيرات البيضاء المتناثرة على صفحة وجهه والشبيهة بغزل البنات المفروك .

وصل الرجلان إلى المقهى واتخذا مكانهما فى الركن الذى تعود ان يجلس فيه « شوشة » ، وفرقا بضع تحيات هنا وهناك ، وكان « شحاتة » قد أصبح شخصية معروفة فى المقهى .

ورآه أحد الجالسين فهمس لصاحبه :

— الراجل ده بيشتغل إيه ؟

— من بتوع القمامة اللى بيمشوا قدام الجنازات .

— يا ساتر يا رب .. اللهم أبعدّه عنا .

والتقطت أذن « شحاتة » الحادة السمع حديث الرجلين نصاح مقهّتها :

— اطمئن .. أنا بيمشيش فى جنازات الهلافيت أبدا .

وعبس الرجل ، ولكن رواد القهوة اندفعوا فى الضحك .

ووجه شحاتة القول إلى شوشة متسائلا :

— فيك من عشره طاولة ؟

— أوى .

— بس خلى بالك . أنا ناوى أضحضحك ، أنا النهارده غايق لك

توى .

— أدها وأدود .. تطلب إيه ؟

— هات لنا قهوه وتعميره .

وصفق شوشة بيديه فأقبل الساقى وأعطاه الأوامر بالطلبات فصاح
بنادبا بها بطريقته الفنائية ، وكان شحاتة يتلفت حوله فاحصا وجوه
الوجودين كأنه يبحث عن شخص معين وأخيرا أمسك بذراع صاحبه
وسأله فى لهفة :

— اسمع .. مش ده صاحبك ؟

— صاحبى مين ؟

— صاحبك الدباح .

— قصدك شرف الدين ؟

— أيوه .

والتفت شوشة الى الناحية التى يشير إليها شحاتة فوجد شرف الدين
جالسا على مقعده ، واضعا ساقا على ساق ممسكا بيده « فردة شارب »
بزيده برما وبالأخرى مبسم الشيشة فقال شوشة :

— أهو هوه .

ثم استدرك قائلا :

— لكن مش صاحبى ولا حاجه .

وضحك شحاتة قائلا بخبث :

— طب ومالك بتتبرى منه كده ليه ؟ هو معره ... يا سيدى ياريت

يكون صاحبى أنا .

ثم رفع يديه إلى السماء داعيا :

— اللهم اجعلنا من بركاتك يا سيدى شرف الدين يا دباح .. نظره

يا سيدى شرف نظره .

والتفت إلى شوشة مردفا :

— أنا أصلى ما قدرش حد فى الدنيا قد الجماعه دول . كفايه انه

من ريحة عزيزه نوفل ، دا زى سيدنا رضوان .. فى ايده مفاتيح

الجنه .. هو يقدم لنا حوريات الارض .. ورضوان يقدم لنا حوريات

السماء ، واحد بياخد أجره منا والثانى أجره على الله .

وأطرق شوشة برهة براسه قبل أن يجيب قائلا :

— يا عم حد الله بينى وبينهم .. أنا كافي نفسى شرهم .. أنا أكبر
دعوه بدعيها فى صلاتى « اللهم اكفى شر رغبات نفسى » . هوا فيه
حاجه بتذل الإنسان وتستعبده أد رغباته ، رغبته فى النسا بتذله وبتخليه
يجرى وراهم ويسترضيهم . ورغبته فى المال بتذله لجمعه والحرص
عليه ، ورغبته فى الاكل بتذله لبطنه . هوا فيه درع يعين الانسان على
الحياة .. قد الزهد .. هو فيه اقوى فى الحياة من انسان غلب رغبته
وقتل مطالب جسده .. ده يبقى الإنسان الحر اللى يقدر يدوس على
الحياة بجزمته ...

— وليه ده كله يا سى شوشه ؟ تدوس الحياه بجزمتك ليه ؟ هى
عملت فيك حاجه ؟ وهوا لما تبقى مالكش ولا رغبة وتزهد فى كل
حاجه .. تعيش ليه . وإيه فايدة انك تبقى حر إذا كنت مانتاش عايز
حاجه .. ما تسيب الدنيا أحسن .. الدنيا ما فيهاش حاجه تستاهل
العيشه غير شوية الرغبات اللى انت عايز تزهد فيها .. ما فيهاش
غير ساعة حظ .. فإذا كنت مانتاش عايز ساعة الحظ .. يبقى موتك
أحسن .

وضحك شوشة وقال :

— ماهو أصل الواحد ما يلاقيهاش بالساهل .. بيدوخ لغاية
ما يطولها يا سى شحاتة .

— ماهى دى لذتها .. هى دى الدنيا .. إنك تجرى ورا حاجه
عايزها .. يوم ما يكونش لك حاجه تموزها ، وتجرى وراها .. يعنى
مت .. لما تلقى كل حاجه جاهزه قدامك .. بعد مدة بسيطة الواحد
حايزها .. هوا فيه حاجه بتزها الواحد من مراته غير انها قدامه
يلاقيها وقت ماهو عايز .. لكن لو كان بينطلها من شبابيك وبيترقع علقه ،
ويتدشده قبل ما يطولها .. ما كائن زهق منها أبدا .. على العموم

سيك من ده كله .. خلينا فى المفيد .. قول لى .. الجدع الدباح
ده .. الواحد يتعرف بيه ازاي ؟

— ولا حاجه .. قوم كده خده بالحضن .

— أنا باتكلم جد .. ايه الطريقه اللي تعرفنا بيه ؟

— ولا حاجه اصبر عليه هوا حاجيلك لحد عندك .. اصل له

بصيره نافذه ، نظرتة ما تتعش الارض .. يشمش زى الكلاب ..

دلوقت يعرف انك انت صيده ويجيلك لغاية هنا .. هوا المره اللي فاتت

لو كان لقي فيك الرمق كان عتقك .. لكن اصله لقاك وتبع خالص .

— والمره دى .. فيه امل ؟

— قوى .. فيك الرمق خالص .. يالله نبتدى .

وفتح شوشة الطاولة ، وبدأ فى رص الحجارة . ثم رمى بالزهر :

— شيش جوهار .. لعب .

ولكن شحاتة لم يلعب .. فقال له :

— ما تلعب .. مستنى إيه .. الزهر قدامك .

ولكن « شحاتة » لم يمد يده إلى الزهر ، ورفع « شوشة » بصره

ليرى ما أصاب صاحبه ، فوجده فاغرا فاه ، محمقا بعينيه فى الرصيف

الآخر .. ولم يلبث حتى انطلقت منه صيحة مدوية قال فيها .

— يا حلو ..

ثم رفع عقيرته بالغناء منشدا :

— « ما كانش كده طبعك يا غزال .. والنبي انا مقدر على دى

الحال » .. انا قتيل الهوى .. انا صريع الغرام .. « يالى جرحيت القلب

داويه .. غيرك انا معرفش طبيب » ، « كادنى الهوى وصبحت عليل ..

زى النسيم فى روض الحسن » أموت فى العسل النحل .. أموت

فى الشهد المروق .. يا خلق يا هوه .

وصاح به « شوشة » زاجرا ، محاولا رده عن إحداثه تلك

الضجة :

— يا جدد العيب ما تفرجش علينا الناس .

— العيب .. العيب والقمر سايب سماه ، وبيتمشى على الرصيف
اللى قدامى .. ليه ؟ ما عنديش نظر .. انطسيت فى عنيه ؟

ثم اندفع ثانية فى غزله الصاخب صااحا منشدا :

— « بشراك يا قلبى آدى اللى كنت به موعود

زارك حبيبك وطاب أنسك على موعود »

يا ميت حلاوه .. يا ميت فل .. يا ميت مسا .. يا سيدى بنمسي !
وهكذا ظل سيل الغزل يندفع من فمه بلا توقف ، حتى اختفت
« عزيزة نوفل » عن ناظره ، وعاد إلى وعيه فأمسك بالزهر وقذف به
فى نشوة معتذرا لشوشة بقوله :

— ما تأخديش يا معلم .. أنا أصلى ما ببقاش فى وعيى ، بنوه
.. أنا بابقى فى عالم تانى .. أنا عارف ان ده عيب ومايصحش .. لكن
ما بقدرش .. اعذرنى .. أوعى تزعل منى يا معلم شوشه .
— معلش .. حصل خير .. العيب .

— جوهار ياك .. حلوه دى .. أهو أنا حابسك فى خانة ألياك ..
ومش سانسك .. ولو بالجلبل البلدى ، دى أصلها لعبة حريفه .. ولا اتخن
شنب يعرف يلعبها .. دى أصلها ...

ولكن قطع عليه استرساله فى الحديث صوت أجش صاح من
ورائه بقوله :

— سلامو عليكم .

وتلفت « شحاتة » ليرى صاحب التحية .. فإذا به « شرف الدين »
فتهللت أساريره وهتف مرحبا :

— أهلا وسهلا .. عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. اتفضل
يا معلم دباح .. يا الف مرحب .. هات لك كرسى واتعد .. احنا حانخلص
بسرعة .. أنا حاديهوله مارس وأخلص ، شايف قافشه فى خانة ألياك

ازای ، قافشه بکلبش ! اهلا وسهلا ، اهلا وسهلا .. انستنا یا معلم .. شرفتنا .

— الله يشرف مقدارك .

— ازیک کده ؟

— الله يحفظك .

وجذب شرف الدين كرسيا وجلس يرقب اللاعبين وهما يتبادلان الزهر ، وأخيرا انتهى اللعب وأغلق شحانة الطاولة وهو يقول :
— أظن كفايه كده ؟ ازای الحال یا معلم شرف ؟
— رضا .. الحمد لله .

ولا شك أن المعلم « شوشة » قد أحس حرجا من جلوس صاحبنا الدباح بجواره ، فقد بدأت الأعين ترمقهم خلصة ، وبدأ له أنه قد يؤخذ بتهمة هو منها براء ، فأخذ يتلمل في مجلسه ثم ما لبث أن نهض قائلا :
— عن اذنكم یا جماعه .. لحظه واحده .. اما اقول للمعلم خست على موضوع كنت عايزه منه .

وأجاب الاثنان في نفس واحد :

— اتفضل .

فلقد كان كلاهما يحس نفس الحرج الذي أحسه المعلم شوشة ، ولم يكن يعرف أحدهما كيف يفتح الموضوع الذي يدور برأس كل منهما .. ولكنه لم يكده ينصرف ويخلو كل منهما إلى الآخر حتى كشف كل منهما قناع الحياء عن وجهه :

قال شرف وهو يفرك يديه ويتنحنح :

— عندنا حاجات طيبه أوى یا سيدنا لفندى .. عندنا ولاد ناس

طيبين .

— ناس طيبين إيه یا سى شرف ؟ . احنا حانخطب .. انا محبش

الناس الطيبين أبدا .. مره اتجوزت بثت ناس طيبين .. كانت زى

لوح التلج .. صدت نفسى عن الدنيا .. لا يا عم .. حد الله بينى وبين
الناس الطيبين .

— طيب بلاش الناس الطيبين .. أنا عندى جماعه يعجبوك قوى .
— فين ؟

— فى درب كيبه .

— عارفهم .. مش أدكده .

— طيب فيه جماعه على كيفك فى عطفة سطيج .

— برضك عارفهم .

— طيب الجماعه اللي فى حارة المهلبه ؟

— مش فى بيت شبارة ؟ عارفها .

— طيب وإيه اللي مخليك تاعد هنا ؟ .. ماتقوم تشتغل معايا ...

وضحك « شحاتة » وقال :

— بقى اسمع يا سى شرف .. خلينا نتكلم دغرى من غير لف ..

أنا بالعربى .. عايز اللي فانت دلوقت من هنا .

وهز شرف رأسه هزات بطيئة وقال فى تمعن :

— قصدك .. عزيزه نوفل ؟ .

— أيوه .. هى مافيش غيرها .

— دى غاليه عليك .

— يعنى بكام ؟

— خمسين قرش .

— خمسين قرش ؟ ! فى الليله ؟

— لا مؤيد .. مش قولتلك شيل على قدك .

— خمسين قرش حته واحده !! يعنى ليله .. بخمس أموات .

— خمس إيه ؟

— ده حساب ما تعرفوش .. حساب بينى وبين نفسى (وخفض

صوته قليلا كأنها يحدث نفسه) .. خمسين قرش يعوز لهم خمس

جنازات لا وشك ولا ضهرک . یعنی الواحد عشان يتنعش ليله ..
لازم ينكد على خمس عيلات .. الحكايه عايزه شوية همه من عزرائيل
.. لازم يشد حيله شويه معانا .. ويقصف لنا خمس ست سبع اعمار ..
عشان خاطر « ست عزيزة » .. على العموم هي تستاهل .. انا
نفسى مستعد أموت فى دباذيب رجلها (ثم رفع صوته موجه الكلام إلى
شرف) خمسين قرش ، خمسين قرش .

— مافيش ناقص ملیم .

— ما تهزها شويه .. اعمل لنا اكرام شويه .

— الأسعار محدده .

— طيب خلاص انتهينا .. معادنا امتى ؟

— الليله الجايه .

— حانتقابل فين ؟

— هنا فى المغربيه .. حاستناك لغاية ما تيجى وبعدين آخذك

ونروح على البيت .

— أوعى تتأخر .

— أتأخر ازاي ؟ من خامسه حاكون مستنيك ، استينا ؟

— استينا .

— ايدك ع العربون .

— عربون إيه ؟ بكره ؟ بكره يحلها الحلال واديلك المبلغ كله .

— إيدك ع العربون .

ومد « شحاتة » يده فأخرج كيس نقوده ثم أخرج منه قطعة بعشرة

قروش وقال :

— خد أدى بریزه .

— مش كفايه .

— ما معيش غيرها اللي حيلتى .. خدھا واحمد ربنا .

وأخذ شرف القطعة الفضية ووضعها فى جيبه وفى تلك اللحظة
أقبل « شوشة » ، فنهض الرجل مودعا وانصرف .

وجلس الرجلان يتحدثان برهة ، ثم ما لبثا حتى نهضا عائدين إلى
البيت .

وصلا إلى البيت وتناولوا العشاء ، وجلس « شحاتة » يتسامر برهة
مع « سيد » ، ثم قام كل منهم إلى مضجعه .

وعندما جلس « شوشة » على فراشه يرنو ببصره من خلال
النافذة إلى النجوم المتلألئة فى رقعة السماء السوداء سمع طرقا خفيفا
على الباب ، وأبصر « شحاتة » يدلف من الباب ساريا كالشبح ولح فى
يده نايه الذى أهدها لسيد .

وجلس « شحاتة » على طرف الفراش بجوار « شوشة » وبعد
لحظة صمت قال فى صوت خافت :

— عايز أقول لك كلمتين يا معلم .. تسمح بيهم ؟

— اتفضل يا شحاته أفندى .

— أنا خايف أكون زعلتك النهارده ، وخايف أكون نزلت من عينك ،

أنا كنت باعمل اللى أنا عايزه ماكنش بيهمنى .. كنت بغلط وماحسش انى
غلطان لأتى ما كنتش بشوف الصبح .. ما كانتش عندى مستوى مقارنه ..
كنت فاكرا انى بعمل الشىء الطبيعى ، لكن لما شفتك حسيت ان فيه
حاجه اسمها الصبح .. وحسيت ان اللى بعمله مش صبح . لكن اعمل
إيه .. بعد ستين سنه عمر ، مقدرش أغير نفسى فى يوم وليله ..
ومافتكرش ان أنا حاعرف أغير نفسى .. وحتى متيألى ان لازم يبقى
فيه فى الدنيا ناس زى .. عشان اللى زيك بيان .. مش المثل قال
« وبضدها تتميز الأشياء » لازم يكون فيه خطايا عشان يكون فيه غفران ،
ولازم يكون فيه غلط عشان يكون فيه صبح ، ولازم يكون فيه وحش
عشان يكون فيه حلو .. وإلا لو كانت كل حاجه كويسه وحلوه وصبغ ،
كانت الدنيا تبقى مايعه ، مالهائش طعم ولا كان حد عرف الكواسه

والحلاوه والصح ، أعذرني يا معلم « شوشة » واغفر لى ذنوبى ،
لأن لولا سواد ذنوبى ماكانش بان بياض طهرک .

ومد شوشة يده وربت على كتف شحاتة قائلاً فى رفق :

— انت راجل أمير .. كل واحد له ذنوبه ، وهوا مين اللى مالوش
ذنوب .. الكمال لله وحده .. المهم انك متئذيش حد قد ما تقدر ..
ربنا يهدينا كلنا ويفوت عمرنا القصير على خير .

— كتر خيرک يا معلم .. ربنا يريح قلبک زى ما ريحت قلبى .. تحب
أصفر لك ع النای شويه ؟
— أيوه ، سمعنا .

ووضع « شحاتة » طرف النای بين شفتيه ، وبدأ الصفير ، وعلا
اللحن خفيضاً كالهمس ، ثم بدأ يعلو طويلاً حزينا يسرى فى سكون
الليل كأنه البكاء والأنيث ، واستمر الرجل يعزف حتى أحس بيد « شوشة »
توضع على كتفه ، وسمع صوته المختلق المتحشرج يهمس به :
— كفايه .. كفايه كده يا عم شحاته .

ورفع بصره إليه نلحح الدمعتين تتلألآن فى مقلتيه ، ثم تجريان
على خديه .

فى هذه المرة لم يقو الرجل على إعادتهما إلى منابعهما ، لقد كان
اللحن أقوى من إرادته .

وأشار « شوشة » إلى صدره ، واضعاً يده على موضع القلب
وعاد يهمس :

— المصيبة هنا ، المصيبة فى الاحساس اللى ما يخمنشى أبدا ..
تصبح على خير يا شحاته أفندى .

— وانت من أهله يا معلم شوشه .

وعاد « شحاتة » إلى مضجعه فوق الصحاره وساد السكون الدار ،
وأغرق كل فى نيمض أحلامه .

استيقظ « شحاتة » كعادته ، وكانت الشمس قد نفذت من النوافذ

نافثرشت أرض الدار ، وكان « شوشة » وابنه قد ذهب كل إلى شأنه ،
و « أم آمنة » جلست فى الفناء متشاغلة بعجن بعض النخالة واعدادها
للأوزتين .

وارتدى الرجل جاكته وحذاءه وطربوشه ، وتناول صرته التى حوت
حلة الشغل ، وودع « أم آمنة » وغادر الدار . وعندما تجاوز درب القط
ودلف يساره فى درب عجور . . لم يكد يسير بضغ خطوات حتى تهمل
أمام جازارة « الخشت » وترددت خطواته برهة ، وهو يتأمل الدواب
المعلقة من سيقانها ، والتى تقطر الدماء من أعناقها ، وتتناثر الأختام
الحمراء على لحمها الأبيض ، ثم بدا كمن حزم أمره ، ونوى شيئا خطيرا ،
وتقدم إلى الدكان بخطوات ثابتة ، غير هيابة . . وكان « الخشت »
قد وقف بجلبابه الأبيض الملوث بالدماء . . وجسده السمين المربرب ،
وطاقيته الشبيكة . . وقد أخذ يهوى بالشاطور على « الأرمة » مهثما
إحدى العظام .

وكان التعارف قد حدث بين الرجلين فى المقهى فتقدم « شحاتة »
إلى الرجل وصاح به محييا :

— صباح الخير يا معلم خشت .

— صباح النور . . أهلا وسهلا .

— وحياة أبوك أنا عايز رطل من بيت الكلاوى بتلو .

— عنيه الاتنين .

ووضع الرجل الشاطور جانبا . . ثم تناول من أحد الخطاطيف قطعة
كبيرة من اللحم قائلا :

— أنا حاديلك حته من الفخده على كفيك . . بيت الكلاوى ما تنفعكش
. . كلها عضم .

— زى بعضه يا معلم . . كله كويس .

وانتهى « الخشت » من الميزان بعد أن وضع فى كفته قطعة كبيرة
من الورق الأصفر وأغرقها بألياه لكى يثقل وزنها ، وعندما انتهى من لف

اللم اقتررب منه « شحاتة » ، وقال بصوت خفيض ، وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

— أنا عايزك توضب لى بقى شوية مخاصى على شوية مواسير على حنة كلوه .. توضيبه من إياها دى ؟
وضحك « المعلم خشت » وصفق بيديه طريا ، وقال فى حماس كأنما هو الذى سيفيد من التوضيبية :

— سيبنى انت بقى خلينى أعمل لك التوضيبه على كيفى .. أنا حاخليك تدعى لى .. حارجك عشرين سنه لورا ، وحاقول لك كمان على وصفه ماتقولهاش لعدوك .. حاجه مجريه .. ماتخييش أبدا .
وأخذ الرجل يقطع من هنا خصية ، ومن هنا كلوه وجمع بعض العظام المليئة بالأنخاع وقطعة من ذيل الخروف ثم لف كل ذلك فى ورقة وأعطاه « لشحاتة » قائلا :

— شوف بقى يا عم ، تاخذ الحاجات دى وتحطهم فى حله وتنك تغليهم لما يسلى دهنهم من غير ما تزود الميه . لغاية الشوربه ما تبقى مش شوربه .. تبقى عصيده .. حاجه كده مش سايطه ، وتكون محضر شوية تحابيش تاخذهم معاها يخلوك بمب .
— كتر خيرك يا معلم .. ما اعدمكش أبدا .
وأمسك « شحاتة » باللفافتين وبدا عليه التردد ، ثم قال فى شيء من الخجل :

— الفلوس حاديهلك وأنا راجع من الشغل .. ممكن ؟
— ممكن أوى .. يا سلام يا شحاته افندى .. بلاش فلوس خالص .. دا حنا جيران .

— الله يخليك .. السلام عليكم .
— عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .
وعاد « شحاتة » إلى الدار ثانية ، وفوجئت « أم آمنة » بسماع وقع أقدامه فتساءلت فى قلق :

— إيه اللى رجعتك يا شحاته افندى .. كفى الله الشر .. نسبت
حاجه ؟

— لا مافيش حاجه .. أنا بس جايب رطل لحمه تطبخيه لنا على
الفدا .

— ولزومه إيه التعب ده .. شوشه ماهو مدينى الفلوس ، وبيجيب
معاه الحاجه ، وهو راجع .

— معلش ده حاجه بسيطه يمكن تحبى تعملى شوية خضار
والا حاجه .

— كتر خيرك .. دايمًا تاعب نفسك كده .

— مافيش تعب ولا حاجه .. خدى .

ثم ناولها اللفافة الاولى واعتبها باللفافة الثانية قائلاً :

— دى اللحمه ، ودى شوية مواسير على شوية ثناتيش عايزك
تسليقيهم لى الآن عندى روماتزم فى ضهرى وواحد وصف لى الوصفه
دى عشان تصلب ضهرى .. بس عايزها تغلى قوى وما تزوديهاش ميه
.. يعنى يدوبك تطلعى منهم فئجان شوربه .

· ولم تعلق « أم آمنة » على الوصفه التى اكدها « شحاته » بل ركزت
كل اهتمامها فى مسألة ظهره الموجوع فصاحت فى فزع :

— ضهرك ببوجعك ؟ سلامتك .. ألف بعد الشر عنك .. لازم
استهويت .. تلاتيك نمت والشباك مفتوح . الليله دى لازم تقفله
وتحبش على القزاز المكسور بحتة ورق ، واحسن طريقه تضيق البرد ،
ان عمل لك كام قدره تشد الهواء اللى فيك .. أنا حابعت « لزيكه » ..

ووجد « شحاته » أن « أم آمنة » قد ابتعدت جدا عن الموضوع
الاصلى .. فلم يجد بدا من مقاطعتها لاعادتها إليه فقال :

— لا .. لا .. مافيش لزوم .. الحكايه بسيطه قوى . بس اسلى
لى شوية العضم دول هم يطيبونى .. أنا واخذ على الحكايه دى من
زمان .

ولكن « أم آمنة » قالت محتجة :

— عضم إليه يا شحاته أفندى دا اللي يخففك ؟

— بس اعملهم انت ومالكيش دعوه .

— حاضر يا خويه .. ان شاء الله تيجى تلاقيهم جاهزين على الفدا .

— كتر خيرك .

وعندما اطمأن « شحاته أفندى » على مصير المخاصي والكلوى ،

واتسع أم آمنة بعدم ضرورة القدرة .. تناول صرته وغادر الدار مستحثا
الخطا إلى « قهوة لفنديه » .

ووصل إلى المقهى فوجد النشاط على أشده و « الأفندية » راثين

فادين بين حاثوت الحاج سرور والمقهى فأدرك أن هناك « جنازة حارة » ،

وأنه قد تأخر عن الوصول فقد صاح به المعلم سرور عندها وقع عليه

بصره :

— ما تمد شويه يا سى شحاته ، والا خلاص بقيت مستغنى ؟

— مستغنى ازاي بقى .. دا أنا مش فى عرض جنازه واحده ..

أنا قتيل خمس جنازات .. معذور فيهم قوى .. الحقيقة تستاهل .

— إيه هى اللي تستاهل دى ؟

— مره زى اللوز .

— طب مد .. آدى اللي انت فالح فيه .. تنك غرقان فى النسوان

لفاية ما يجيبوا أجلك .. ان شاء الله حاثوت قتيل مره ، وبكره

أفكرك .

— وأنا فى ديك الساعة لما أموت قتيل الهوى ؟ ياريت .

وأسرع « شحاته » فنزع جلبابه ثم ارتدى حلته ولف القوطة

الحمراء حول وسطه وتناول الجمرة التي تعود أن يحملها وصاح ببقيته

الزملاء :

— ايه يا جماعه .. ماتيا الله بينا .. هى الجنازه نين ؟

ورد الحاج سرور :

— حاتقوم من مصر عتيقه للمجاورين .

— يا نهار أبوه اسود .. يعنى مالقاش قرافه اقرب من كده ؟
هى ترب الامام مالها ؟ وحشه ؟

— اللى حصل ياسى شحاته .. مدافنه ومدافن اهله فى المجاورين .

— ولما هوا عارف انه حايدفن فى المجاورين بيسكن فى مصر عتيقه
ليه ؟ . ما يسكنش فى الدراسة والا فى الحسين والا حتى فى الكحكين
والا درب الأخر والا الجماليه .. ضاقت به الدنيا عشان يعيش فى
مصر عتيقه ويموت فى المجاورين ؟

وكان ترام (نمره ٥) قد اقبل فصاح الحاج سرور فى عجلة :

— طب يالله يالله .. يالله يا جماعه عشان نلحق .. الساعة تسه
دلوقت ولازم نكون هناك عشره .

وهرول الأنديه بجامرهم ومناقدهم والموسيقىون بهزاميرهم وطبولهم
ماحتلوا عربة الترام وقد تعالت صيحاتهم ونكاتهم كأنهم العوالم ذاهبات
إلى زفة عروس .

وجلس شحاتة على مقعد الترام ، وكانت جلسته بجوار « الشيخ
سيد الخولى » ، ولا شك أنها كانت جلسة مقصودة ، فقد أخذ شحاتة
يكثر من التحيات العاطرة على « الشيخ سيد » ، والشيخ يتلقاها ببرود ،
فلا يسمع لها فى نفسه رنيناً كأنها النقود الزائفة ، والواقع ان « الشيخ
سيد » كان لا يسمع فى نفسه رنيناً لآى شىء ، فقد كان من نوع ناعس
الطرف مسبل العينين ، كأنه رائح أبداً فى سبات عميق ، وكانت تله
طبقة سميقة من اللاشعورية قمينة بأن تصد عن باطنه كل أنواع المؤثرات
الخارجية فلا تثير فى نفسه أية مشاعر لا بالفرح ولا بالحزن ولا بالغضب
.. كان الرجل يجلس ويتحرك ويتكلم كأنه فى غيبوبة .

وعندما انتهى شحاتة من سيل التحيات التى أعدها على « الشيخ
سيد » التائه .. مال عليه بجسده وهمس فى أذنه :

— ما معكش حته يا شيخ سيد ؟

ويبدو كأن هذا هو السؤال الوحيد الذى استطاع النفاذ إلى وعى « الشيخ سيد » واخترق نطاق الجمود الذى حصن به نفسه فقد ارتجتفت جفنا الرجل ، ثم قال دون أن يوجه بصره إلى محدثه فكأنها يجيب نفسه : — هو انت ما تفرغلكتس طلبات ؟ .. انت مش لسه واخذ حته اول ابارج ؟

— أصلى معذور فيها أوى النهارده .

وتتمم « الشيخ سيد » ببعض كلمات الاستياء ، ثم مد يده فدفنهما فى صدره من خلال البدلة والقميص وأخرج من جيب الصديري المخطط لفافة مقذرة أخذ فى فتحها ببطء وتؤدة وأخرج منها قطعة صلبة فى حجم البندقة وفى لون الشيكولاتة الباهتة ثم قسمها بأصابعه مستعبلا ظفر ابهامه .. وكان القسمان متساويين تقريبا فامسك بأحدهما وحاول تجزئته فمعجز عن ذلك بأصابعه فرفع القطعة إلى أسنانه .

وصاح شحاعة فى ضيق وغیظ مكتوم :

— متجيبها يا أخى ، حاتكسر فيها إيه ؟ هى مستحله كسر .

— يا باى على عينك الفارغه .. خد .. حار ونار فى جتتك .

ثم دفع إليه بالقطعة ، فتناولها شحاعة ووضعها فى جيب صديريه ، وعندما اطمأن إلى استقرار القطعة فى جيبه تهللت أساريره ، ثم عاود سيل التحيات يفرق به الشيخ سيد ، فلما انتهت الدفعة الثانية من التحيات عاد يميل بجسده مرة أخرى وهمس بنفس الطريقة الأولى :

— الاقيش معاك ملوه ؟

وكان تيقظ الشيخ سيد فى هذه المرة على أشده ، فقد رفع حاجبيه فى دهش وفتح عينيه بأقصى ما تستطيع عضلات جفنيه ثم زوى ما بين حاجبيه وهتف متسائلا :

— انت إيه حكايك ؟ .. انت رايح جنازه .. والا رايح فرح ؟ ..

عندك عزومه والا إيه ؟ .

— أناح .. عندى سهره بيأتى .

— مع مين ؟ .

— مع مين ؟ .. مع قالب زيده .. مع طبق قشطه .. مع صباع
موز .. مع صنية كفافه بالفزدق .. مع ...

— طب بس بس .. انسد .. ما انت اصلك دنى ورهرام ..
خد .. ادى اللصه اهى .

ومد يده مرة أخرى فى جيب صديريه فأخرج علبة صفيح صغيرة
مستديرة أشبه بعلبة النشوق ثم أخرج علبة كبريت جذب منها عودا وفتح
العلبة الصفيح فإذا بها مادة سوداء أشبه بهرمم الاكتيول وهم بوضع
عود الكبريت داخلها ليرفع بطرئه بعض ما بها ولكن شحاتة أوقفه
بقوله :

— ايه اللى حاتمليه ده ؟

ونظر إليه الشيخ سيد — أو مخزن المخدرات المتحرك — بطرف
عينيه شذرا وقال فى برود :
— مش عايز ملوه ؟ .

— هى كل اللى فى العلبة ما تجيش ملوه .. هات يا شيخ بلا تربطه
.. انت مالك اليومين دول حاتموت ع الدنيا .. هات يا شيخ العلبة
هات .. بلاش شغل لحوسه .

وكان الشيخ سيد أكسل من أن يدخل معه فى مناقشة ، وكان
يفضل خسارة العلبة على مشقة الرفض فدفع إليه بالعلبة فى ملل وعاد
إلى غيبوبته .

ووضع شحاتة العلبة بجوار الفص فى جيبه ، ويدت عليه علائم
الارتياح وهمس لنفسه :

— ما فاضلش غير الزيب ؟ .

وكان الترام قد وصل إلى « عمر شاه » وبدأ فى عبور ميدان السيدة
متجها إلى المدبح ، وعندما وصل إلى أبو الريش صاح الحاج سرور :

— يا الله يا جماعه .. احنا حاتنزل هنا وبعدين نخرم من عند سيدى
الطيبى نبقى اُدام بيت الرحوم .

وأجاب « شحاتة » معلقا :

— مرحوم ؟ . هوا دا حاشوف الرحمه بعينه بعد ما يخبطننا المشوار
بن مصر عتيقه للمجاورين .

وارتجف الشيخ سيد ثم قال معلقا وهو ما زال فى غيبوبته :

— وهو حاينخس عليه إيه ؟ مش نايم مستريح فى الخشب لو كان
الواحد منهم يروح التربه ماشى على رجليه .. كان سكن جنب القرافة ..
لكن الحق مش عليهم .. الحق على اللى يشيلهم .

وهبط الجميع من الترام ، وساروا فى زرافاتهم المتهالكة المتحاملة
مخرقة شارع الطيبى متجهة إلى فم الخليج .

وطال بهم السير ولما بيد للجنابة بوادر بشائر ، وصاح شحاتة
فى ضيق :

— آمال بسلامته فين ؟ . مش باين له اثر .

وأجاب الحاج سرور :

— اهو قرب .

— ماباينش . اللى ملحد منا سمع صوات ، هو ميت وحدانى ؟

— وحدانى ازاي ! . دا راجل صاحب عيله وله مركز ، ده متركش

أوى .

— يعنى حايدفعوا فيه كويس ؟

— طبعا .

— اهو دا المهم ، دى جنازته باربع جنازات ، على العموم الله

يرحمه ما دام حاينفعنا .

ووصل الموكب إلى فم الخليج ، وتوقف الحاج سرور برهة يتلفت

يمنة ويسرة وصاح أحدهم :

— هو اسم الشارع إيه ؟ .

— أظن شارع اللبوناته .

— طيب ما نسال .

وتقدم الحاج سرور من امرأة تبيع الفول النابت جالسة أسفل شجرة
وسالها :

— تعرفيش يا خاله شارع اللبوناته فين ؟

— شارع إيه ؟

— اللبوناته .

— مافيش هنا شارع بالاسم ده .

وهم سرور بالانصراف وتحرك الجبيع فى اعقابيه ، ولكن المرأة
استرجعته متسائلة :

— مافيش هنا غير شارع السكر والليمون .

وهتف سرور صائحا فى فرحة :

— أهو هو .. هو السكر والليمون .

— وهو شارع السكر والليمون يبقى شارع اللبوناته ؟

— أhal يبقى إيه .. شارع الزيت الخروج .. هو السكر والليمون

حايبقى إيه غير اللبوناته ؟

وحدث الموكب الخطأ إلى شارع السكر والليمون ولم يكذ يقتربه

من الشارع حتى وصلت إلى مسامعهم بواجر الصراخ والمويل .

وصاح « سرور » فى فرح :

— أهو هوا ده مافيش غيره .. يا الله يا جماعه نظموا نفسكم ، اسمع

باريس « عبيد » .. خذ المزيكه وخليك قدام باب البيت عشان تبقى جنب

الخشبه .. وانتم اترصوا على الرصيف .. يا الله يا جماعه اعملو لكم

همه ووزعوا نفسكم .. مش عايزين ضحك بقى ولا كلام .. خلاص احنا

دخلنا ع الشغل .

وبدا « الشغل » واضحا بسراده الذى اتودحم فيه المشيمون

والصراخ المدوى فى أرجاء الشارع ، والنعش الفارغ المجهز لحمل

الميت ، والخروف المنتظر أمام باب البيت ، والحانوتى والمفسل
والفراشين ، والصخب والضجيج .

وسرعان ما انتظم موكب الأفندية والموسيقين فى مواضعهم ، ولم
يكن هناك شك — من طريقة انتظامهم — فى أنهم محنكون مدربون ..
نقد اتخذ كل منهم موضعه بلا ضجة ولا شوشرة ، وانقلب حالهم من
جئون وهذر إلى صمت واطراق ، وغادرت ملامح الفرحة سيماهم ،
وعلتها دلائل حزن عميق .. كأن الميت قد أصابهم بفجعة ما بعدها
فجعة .

وهز الحاج « سرور » رأسه وصاح فى حزن وأسى :
— دنيا !!

وكان هذا بداية حوار محفوظ يبدؤه « الحاج سرور » بهذه الكلمة
وينهم الحوار طقم الأفندية ، وكان المفروض أن يجيب « شحاتة » بقوله :
« إنا لله وإنا إليه راجعون » .. ولكن « شحاتة » كان غائب الذهن تماما ،
نقد شرد ذهنه فى أمور هى أبعد ما تكون عن الموقف الذى هو فيه :

كان السبب المباشر فى إبعاد ذهنه هو الخروف نقد نظر إليه
نظرة فاحصة ، وأخذ يسائل نفسه : « أترى هذا الخروف مخصيا ؟
لا يظن فهو يبدو هزيلا أعجف ! » .

من باتى له بالمخاضى ليرسلها إلى « أم آمنة » لنضيفها إلى بقية
البهريز ؟ . ترى هل ستستطيع المرأة الضريرة أن تقوم بما طلبه منيا ؟
أكثر ما يخشاه أن يفور القدر ويراق البهريز على الأرض .. حقا انها
تصبح كارثة .. كان يجب أن يكون أكثر حيطة وحذرا فبقوم هو نفسه
بطهو المخاضى والكلاوى .. ربنا يستر .

وكان « الحاج سرور » قد استغيب رد « شحاتة » فأخذ يحدق فيه
شزرا ، ولكن « شحاتة » كان فى عالم آخر .. عالم المخاضى فصاح
مجيبا على نفسه :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم تبعته بقية الأصوات تنساب من هنا وهناك قائلة :

— يا خفى الألفاظ ، اللف بنا مما نخاف .

— لك الأمر .. يا ولى الأمر .

— هيه .. مين كان يصدق !

— رحمتك يارب .

— حد واخذ منها حاجة !

ومكذا ظل الأتندية يتبادلون الحوار بلهجة ملؤها الحسرة ، و « شحاتة أمتدى » ما زال منطلقا فى شروده ، وكان قد وصل فى تلك اللحظة إلى العطار الذى سيبتاع منه الوصفة . إنه سيحتاج إلى بعض من جوزة الطيب وعود قرح يجب أن يحصل عليهما قبل العودة إلى الدار ، أما الزبيب فيستطيع أن يشككه من الخواجه « مانولى » الخامورجى ، يجب أن يعمل حساب النقد جيدا ، أنه يريد أربعين قرشا بقية حساب شرف الدين النصاب بن النصاب .. ويريد خمسة قروش للبطارة وبقية التحابيش .. أما اللحمه فيؤجل دفع ثمنها بضعة أيام ، أن الخشت رجل طيب يستطيع الانتظار ، ويجب أن يكون فى جيبه على الأقل خمسة قروش فيكون كل ما يحتاجه خمسين قرشا ليس فى جيبه منها مليم واحد ، ولكنه سيحصل على مبلغ طيب من هذه الجنازة ، فالميت يبدو على سعة .

وهنا غتط تذكر الميت ، وساعد على تذكره انطلاق الأصوات على أقصاها وظهور حركة استعداد ، ثم بروز خشبة الميت من الباب ، وطرح الخروف أرضا ، وهبوط القصاب على جسده يحز عنقه ، ويريق دماء أمام النعش .

واعتدل الأتندية فى أماكنهم وبينهم « شحاتة » ، ثم بدأت الموسيقى تصدح بأنغامها النائمة الحزينة وسارت الجنازة ، أو كما يسميها

« شحاتة » — الزفة — وبعد بضع خطوات عاد مرة أخرى إلى أفكاره الأصلية نائيا بذهنه تماما عن الجنازة وما فيها .

عزيزة نوفل !! من يصدق أنها ستكون معه بعد بضع ساعات . . أجل ، أنه سيذهب للقاء « شرف الدين » الساعة الخامسة ، ويذهب معه نى التو ، لن ينتظر معه لحظة واحدة ، فهو فى غاية الشوق . . ولكن ماذا إذا لم يحضر الرجل ؟ هنا تكون الكارثة بعد كل هذا الصرف والاستعداد ، وبعد كل هذه المخاضى والكلاوى والزيب والمنزول والحشيش وجوزة الطيب وعود القرح . . بعد كل هذا لا يحضر . . حقا إنها تكون مصيبة كبرى . . كان يجب عليه أن يأخذ منه عنوان البيت حتى يذهب هو وحده أن لم يحضر الرجل ، ما أغباء واقصر نظره ! هب أن الرجل نصاب محتال وأنه أخذ نص الريال لنفسه . . ألم يكن يجب عليه من باب الاحتياط أن يأخذ العنوان ، ولكن ما قيمة العنوان ؟ ألم يكن يستطيع الرجل إذا كان فى نيته الاحتيال أن يعطيه عنواننا خطأ ، لا ، لا أنه يبدو عليه أنه رجل جد ، هذه الشوارب المبرومة والمظهر المثلئ بالشهامة لا يعقل أن يكون محتالا .

وتذكر « شحاتة » كيف بدا له « شرف » أول مرة . . وكيف أخافه بنظره ، فارتسمت على وجهه ضحكة سرعان ما أزالها عندما تذكر أنه يسير فى جنازة .

ومرة أخرى عاد إلى الجنازة ليجد نفسه يسير مع الموكب فى نهاية شارع السد بالقرب من جامع السيدة ويجد الموكب يتوقف للصلاة على الفقيد فى الجامع .

ووقف شحاتة بالقرب من الجامع ينتظر خروج النعش .

ما زال أمامه مرحلة كبيزة من السير . . انها جنازة مضاعفة ، انها مستعجبة كثيرا ، بينما هو فى أشد الحاجة إلى الراحة حتى يستعد لسهرة الليلة . كان يجب أن يرفض الجنازة ولكن من أين يحصل

على النقود ؟ لعنة الله على هذه الحياة لا شيء يمكن الحصول عليه فيها بسهولة .. كل شيء له ثمن من العرق والجهد .

وخرج النعش من الجامع ، ورمقه شحاتة بنظرة غيظ وهتف به :
طبعاً ، تستطيع أن تذهب على هذا الحال إلى جرجا ، ماذا يهمك ما دمت محمولا على الأعناق ؟ ماذا عساک ستدفع لنا بعد هذا المشوار ؟ لو دفعت خمسين قرشاً فسأدعو لك بالرحمة والففران .. خمسون قرشاً هي أقصى ما أحتاج إليه ، فهي تغطي جميع المصاريف ، ويبقى خمسة للبقتشة ، لو رأيت « عزيزة نونل » لما استكثرت عليها المبلغ ولكنك مسكين لن تستطيع أن تراها .. هذا العن ما فى الموت ، انه سيحرمنا من التمتع بـ « عزيزة نونل » وأمثالها ، لو رأيت صدرها وهو يترجرج وراء الملاءة ، ولو رأيت رديها وهما تتبادلان الصعود والنزول الواحدة بعد الأخرى كأنهما أرجوحة الأوزة لما استكثرت الخمسين قرشاً .

وكان الموكب قد وصل إلى القلعة .. والعرق قد أخذ يتصبب من المشيعين والأفندية والموسيقين .. ومن كل من ضمتهم الجنازة ، كان الجميع قد أعياهم الجهد عدا واحداً هو الميت المستقر فى مضجعه مستريحاً أربعة وعشرين قيراطاً .

وأخرج شحاتة منديلاً محلاوياً أخذ يجفف به عرقه ، وهو يناجى الميت بقوله — مبسوط ؟ — ماذا كان عليك لو دفنت فى الإمام ! مالها قرافة الإمام ؟ ! أكان لأبد وأن تدفن بجوار أهلك فى المجاورين .. ماذا تظنك ملاق هناك ؟ أظنك ستراهم وتشبع فيهم عناقاً وتقبيلاً ؟ !

وعبر النعش القلعة واتجه إلى المجاورين ، وأخذ الطريق يضيق وقربت المسافة بين صفى الأفندية حتى استطاعوا الحديث وأخذوا يتبادلون الشكوى من طول المسافة والسباب فى الميت .

ولكن واحداً منهم لم ينبس ببنت شفة ، فقد كان يسير مسبل العينين .. ناعس الطرف .. مغرقاً فى غيبوبته .. وهو « الشيخ سيد

الذولى » ، أو كما يسميه شحاتة : مخزن المخدرات المتنقل ، أو كما يسميه البعض الآخر : « الشيخ سيد كيف » .

كان الرجل يسير صامتا مطوقا غير شاعر بما حوله حتى أحس بالتعب فجأة فوقف فى مكانه ورفع حاجبيه فى دهش وصاح بمن حوله :

— هو إيه أصله ده ، احنا ما وصلناش لسه ؟

وصاح به شحاتة :

— لسه يا شيخ سيد لسه ، مشى ما تعطلش الجنازه .

— أمشى ازاي . احنا حانوصله لغاية التربه .. والا لغاية

السمما ؟

وجذبه أحدهم من يده وهو يصيح به :

— مغلش يا شيخ سيد ، المسافه قريت .

— والله ما مشى ولا خطوه .. هى مقاوله ؟

— مشى ما يصحش ! عيب .

— مايفش حاجه اسمها عيب ، إذا ماكانش عاجبه ينزل بمشى واتا

اتعد مطرحه .. هو إيه ؟ استكراد ؟

ولم يجد الأفندية بدا من أن يدفعوه أمامهم .. فوجد نفسه مضطرا

إلى السير مرغما وهو يجز جزا ، فعلا صوته بالشكاية :

— يا جماعه حرام عليكم .. أنا رجليه بقبقت ، إيه أصله ده ..

هى عافيه ؟

ولكن الجميع استمروا فى جذبه بالقوة ، فاضطر إلى الولولة ،

وعلا صوته باكيا :

— آى .. يانا آه يانا .. آه .. آه .

وسالت دموعه منهمة من عينيه .

وفوجئ المشيعون وراء النعش بصوت البكاء يعلو من أمام النعش ،

واضطرب الحاج سرور لأول وهلة ، ولكنه ما لبث حتى هز رأسه فى

اسى وقال :

— الله يكون فى عونك يا شيخ سيد .. أصله كان يعرف المرحوم ،
كان صاحبه الروح بالروح .

وأخذ الأفندية يحاولون اسكات الشيخ سيد بقولهم :

— شيخ سيد .. كفايه بقى يا شيخ سيد .. عيب ما يصحش .
انت راجل .

ولكن « الشيخ سيد » صاح بأعلى صوت :

— أنا مش راجل ، بس سيئونى .. على الطلاق بالتلاته ما أنا
ماشى ، سيب ايدى منه له .

— خلاص ، خلاص ، ادحنا وصلنا ، وهدى نفسك بقى بلاش عياط
ومضايح قدام الناس .

وكانت الجنازة فعلا قد وصلت إلى المدفن .. وتمهل الأفندية حتى
وقفوا أمام باب خشبى قد فتح على مصراعيه ، وأخذ أحد السقاين
يرش أمامه بقرية على ظهره ، وبدأ من خلال الباب شاهد قبر قد فتحت
أمامه فتحة كبيرة مستطيلة تؤدي إلى السلم الموصل إلى المقبرة فى
باطن الأرض وقد رصت بجوارها الحجارة الطويلة التى تغطى الفتحة .

ودلف القوم بالنعش إلى الداخل ، وقد التفت القوم حوله ، وعلا
نحيبهم واشتد تأثرهم .. وكان « شحاتة » ينظر إلى الجسد المسجى ،
وهو يقول فى نفسه :

— دوختنا الله يدوذك .

وكان الشيخ « سيد » يكفكف دمعته ، وهو يقول :

— لو كنت طولت ثوبه .. كنت حاخلى نهار أبوك زى بعضه ،
ولكن ربنا ستر .

وبينما القوم منهمكون فى انزال الميت إلى داخل القبر ، وقد بلغ
تأثرهم أشده ، تسرب من ورائهم بضعة أنفار كأنهم الفيران المذعورة
واخذوا يهرولون ، حتى اتخذوا أماكنهم أمام القبر ، ثم اقتربوا الأرض
متربعين ، وانطلقت السننهم بقراءة لا تكاد تفهم .

ولم يكذب ينتظم عقد المقرئين ، حتى انساب رجل آخر يدفع القوم
بمنكبه ومرفقيه ، واصيب « شحاتة » منه بضربة فصاح به فى حق :

— ما تحاسب . الله يخرب بيتك . مستعجل على إيه ؟ ! هيه فته ؟

وكان منظر المقرئين الخمسة وطريقتهم فى القراءة عجبا ، كان كل
منهم مخلوقا فريدا فى ذاته .. كان أولهم يلبس عمامة بلا شال ، وجبة
مترية مرقعة كالحة ، وكان به حول شديد يجعل إحدى عينيه فى أقصى
المقبرة ، والأخرى فى الجانب الآخر .. أما الثانى فقد اكل الجدرى
وجبه حتى بدا منقرا كالغريال ، وكان يرتدى طريوشا بلا زر ، وجلبابا
من الدمور ، وكان حافى القدمين .. أما الثالث فكان أعمى يقوده صبي ،
وقد دخل يهرول وإياه وسط المشيعين حتى أجلسه أمام القبر .. أما
الرابع فهو عجوز ملء وجهه الأسمر بالأخاديد ، وقد أمسك فى يده
عكازا ضخما ، ووضع على رأسه شيئا أشبه بالطرطور .. أما الخامس
فكان عبدا أسود .. يشارك الآخرين فى القذارة والبهذلة .

أما طريقتهم فى القراءة فقد كانت سريعة عجلى اذ كانوا يلهثون
وينهجون كأن وراءهم سياطا تتعجلهم ، وكان أحدهم يقول الآية ، ثم
يصمت ليلتقط أنفاسه فبكلها له الآخر ، وهكذا كانوا يقرعون بالتداول
فتتلاحق الكلمات على أصواتهم النشاز .

ونظر « شحاتة » إليهم فى غيظ وقال :

— بقى دى قرايه دى .

واجابه « الحاج سرور » :

— يا أخى اهو كله اكل عيش .

وصدق « شحاتة » على قوله بهزة من رأسه .. أجل .. معه
حق ، كله اكل عيش .. لشد ما اختلفت وجهات النظر إلى هذا الميت ،
ولشد ما تناقض اعتبار الناس لموته .. رآه البعض كارثة ، ورآه البعض
اكل عيش .. كل شئ فى هذه الحياة لا قيمة له فى حد ذاته ..

ان قيمته فى وجهة النظر إليه ، هو من إحدى الوجهات نعمة ، ومن الأخرى نقمة .. هو من ناحية مأساة ، ومن الأخرى فكاهاة .

وانتهى انزال الميت ، ورصت الحجارة فوق الفتحة ، وأغلقت المقبرة . ونظر القوم بعضهم إلى بعض نظرة أسى وحسرة كأنما قد ودعوا شيئاً خالداً .

ونظر الأفندية بعضهم إلى بعض وكأنهم يقولون :

— لنا عودة .. اما على الأقدام أو على الأعناق .



عاد الأفندية إلى مقاهم ، وكانت الساعة قد بلغت الثانية ، وجلس « الحاج سرور » يحاسبهم .. وعندما جاء دور « شحاتة » اتخذ مجلسه بجوار « الحاج سرور » ، وقد أخذ يفرك يديه ، ووضع على شفتيه أعرض ابتسامة .

وكان « سرور » يعرف ما وراء هذه الحركات من خسائر مهد يده بسرعة وأخرج ريبالا ووضعته فى يد « شحاتة » .. وقال وهو يودعه :

— يا لله يا عم وربنا عرض اكتافك .

— طب بس صبرك شويه يا حاج .. أنا أصلى عايز ...

— ولا ملیم أكثر من كده .. قوم بقى .. واحمد ربك .. ده بتاع خمس جنازات .

— أيوه أنا عارف ، بس عايز أقول لك ان أنا مزنوق قوى ، وعايز سلفه .

— سلفه ؟ .. انت فلكرنى قاعد على بنك ، مش كفايه الفلوس اللى لهفتها .

— يا حاج احنا مالناش بركه الا انت .. يعنى لما الواحد يتعذر حايروح لين غيرك ؟ وانت ابونا وانت امنا !

ولان قلب « الحاج سرور » فقال متصنعا الجذ والغضب :

- عايز كام ؟ قول !
- عايز ثلاثين قرش .
- عايز إيه ؟
- ثلاثين قرش . .
- ياخى جك ثلاثين عفريت لما يركبوك .
- الله يحفظك .
- ليه ؟ . تعمل بيهم إيه ؟ . تفتح بهم دكان ؟
- لا . . حافظح بيهم عكا .
- وتسدهم ازاي ؟
- يا أخى ربنا يفرجها بكام جنازه سقع زى بتاعة النهارده ، واحد كده يكون ساكن فى اسكندرية ويندفن فى اسوان . . هوا يعنى بعیده على ربنا والا بعیده على الأموات ؟
- اسمع . . باختصار . . انا معييش فلوس . . خد ده وقوم ماتورنيش وشك .
- ثم دفع فى يده بقطعة من ذات عشرة القروش ، ولكن « شحاتة » ردها متصنعا الغضب قائلا :
- إيه ده ؟ . . خد يا شيخ . . انا باشحت منك ؟
- اسمع آدى كمان نص ريال ، واذا ما كانش عاجبك . . انفلق .
- ورأى « شحاتة » علامات الجذ على وجه « سرور » فأخذ الريال ووضعهُ فوق الريال الآخر وقال للرجل :
- برضك تشكر . . ربنا يخليك لنا .
- ثم غادره وهو يقول لنفسه :
- لسه نص ريال . . ناخده من الشيخ سيد . . يمكن ربنا يهديه .
- واتجه شحاتة إلى الشيخ سيد واقترب منه قائلا بمنتهى الرفق :
- ازى رجليك يا شيخ سيد ؟
- زفت .

— الله يجازيه .. زى ما دوخنا معاه .

ورفع « الشيخ سيد » يده إلى السماء مستمطرا الرحمات على الميت قائلا :

— الله يسامحه .

واندفع فى ترديد الدعوات ، ولكن « شحاتة » لم يكن لديه وقت لمسايرته إلى النهاية ، فقاطعه قائلا وهو يميل عليه بطريقته المعروفة عند الاقتراض :

— معاكش نص ريال سلف .

ولكن الشيخ سبد ادعى عدم السماع واستمر فى دعواته فصاح شحاتة به :

— شيخ سيد .. معاك نص ريال سلف .

— ابعد عنى يا جدد انت ، مامعيش حاجه أنا ما بسلفش .

— أنا مزنوق قوى يا شيخ سيد .

— مزنوق فى إيه ؟

— فى واحده .

— فى واحده ؟

— افكرت حاتقوللى فى تسديد دين والا فى أجرة بيت ، والا فى كلام فارغ من اللى بقوله .. خد آدى النص ريال أهوه .. عشان تعرف ان الصدق منجى .

— كتر خيرك يا شيخ سيد . طول عمرك راجل شهم .

— بس اسمع .. الصدق ده .. ما ينجيش الا مره واحده ..

يعنى مره تانيه .. تقول الصدق تقول الكذب ، مش حاديك نكله .. مفهوم ؟

— مفهوم أوى .

وأخذ شحاتة نصف الريال ووضعه مع الأربعين قرشا . وانطلق
من المقهى وهو يشعر بأقصى آيات السعادة .

وفى طريقه إلى البيت مر بحانوت الشيخ عبيد العطار ، ودخل إلى
الحانوت وبعد أن أغرق صاحبه بالتحيات اقترب منه وهمس فى أذنه
نائلا :

— عايز بنص فرنك جوزة الطيب وحتة عود قرح . وشوية تحبيشات
على كيفك . . انت سيذ العارفين عايز توضييه زى اللى بتوضيها
لنفسك .

وضحك الشيخ عبيد وقال :

— هو أحنا بقى ينفع فينا وصفات ؟ . خلاص يا شحاتة افندى
خلصنا .

وأخذ الشيخ عبيد يحضر شيئا من هنا وشيئا من هناك ويدق هذا
ويصحن ذاك ، ثم عمل لفافتين أعطاهما لشحاتة وهو يقول :

— شوف . . دى تغليها وتشرب ميتها ، ودى تعمل منها بلابيع
وتاكلها ، واوعى تقول عليها لعدوك .

وتناول « شحاتة » اللفافتين وهم باخراج النقود ولكن الشيخ عبيد
صاح به :

— خلى يا شحاته افندى . . هى دى تيجى . . دى هديه منى . .
حاجه بسيطه ما تستاهلش . . بس ابقى تعالى قوللى عملت إيه .
— كتر خيرك . . طول عمرك راجل كريم . . السلام عليكم . .
— وعليكم السلام ورحمة الله .

وحمل « شحاتة » اللفافتين واتجه إلى البيت محملا بكل ادوات
القتال التى سيخوض بها معركة الليل .

الفصل التاسع

قتيل الهوى

وصل « شحاتة » إلى البيت .. فوجد « أم آمنة » فى مجلسها ، ولم يكن « شوشة » و « سيد » قد وصلا إلى الدار بعد .. ولم تكده المجوز الضريرة تسمع وقع أقدامه حتى صاحت :

— ازاي ضهرك يا شحاته افندى ؟

— ضهرى .. ماله ضهرى ؟

— يوه .. ياخويه مش بتقول انه بيوجعك ، وطلبت منى اسلق شوية الحاجات اللى انت جاييهم عشان يصلبوه . .

— أيواله .. أصل الشغل بينسى الواحد كل حاجه . حتى العيا ، والله لسه برضك بينتقح على .

— طب يا خويه ما تخش تستريح لك شويه ، والله ما كان حقك خرجت النهارده خالص .. العيا يحب الراحة .

— لكن اللقمة تحب التعب .

— الله يكون فى عونك .. أنا عملت لك الحاجه اللى انت عايزها ، وزكبه جابت لى شويه بهارات وساعدتى فى الطبخ .. الهى يعدلها لك يا بنتى يا زكيه .

— هيه فين الشوريه ؟

— مخطوطه فى السلطنه جوا المطبخ .. حاتاكل دلوقت والا
تستناهم ؟

— انا حاشرب الشوريه واخس اتمد .. اصلى تعبان شويه ...

— طيب اما اقوم احضرها لك .

— ولا تقومى ولا تتعبى نفسك .. خليكى زى ما انت . انا
حاشس اشرب الشوريه وخلص .

— طيب بس خدلك شويه رز وشويه بدنجان مكهور دانا عامله
بسبك وزى الزبده .

— حاضر .. حاخذ شويه بس خليكى مستريحه .

ودخل « شحاته » إلى المطبخ وكان أول ما فعله هو أن رفع سلطنة
البهريز إلى شفتيه وافرغ ما بها فى جوفه ثم أتى على كل ما بها من مخابى
وكلاوى ، ثم غرف بعد ذلك طبقا من الباذنجان وطبقا من الأرز فافرغهما
فى لحظات فى باطنه .. كل ذلك فى عجلة كأنه يأكل آخر زاده ..
او كأنه يملأ آلة بالوقود استعدادا لعمل شاق .. ثم ما لبث أن أوقد
وابور الغاز ويحث فى أرجاء المطبخ عن الهاون وأخذ يصحن فيه بعض
ما أحضر من العطار ثم قدحه على الوابور فى طاسة وضع بها بعض
السمن ، ثم أخذ بعد ذلك يأكل ما فى الطاسة وما فى اللفافة حتى أتى
عليها ، واخيرا عاد إلى حجرته بعد أن صنع فنجانا من القهوة ، وجلس
على الصحارة ثم أخرج العلبة الصغير من جيبه وأخرج ما بها يعود من
الكبريت ، وأذابه فى فنجان القهوة .

وعندما انتهى « شحاته » من احتساء الفنجان أخرج من جيبه علبة
الدخان ودفتر سجائر منزع منه ورقة ورص بها الدخان ثم أخرج القطعة
التي منحها له الشيخ سيد فكسر نصفها وفتته مع الدخان ووضع

النصف الآخر فى جيبه قائلا فى نفسه « خللى دى تنفع فى الزنقه »
ثم لف السيجارة وجلس يدخنها بتمعن واستمتع وهو ينفخ دخانها فى
الهواء وما لبث ان استلقى على الصحارة وراح فى غفوة .

اقبل « شوشة » على البيت وكان أول ما فعل هو سؤاله على
« شحاتة » .. فانبأته « أم آمنة » أنه حضر وتناول الغداء وأنه آوى
إلى مضجعه ليسترىح من ألم بظهره .

وتوضأ « شوشة » وصلى وما لبث حتى حضر ابنه من الكتاب فتناول
الاثنان الغداء مع العجوز وقد خيم على الثلاثة صمت عميق ، ولاحظت
« أم آمنة » هذا الاغراق فى الصمت ، فقالت متضاحكة :

— خدنا على زينة شحاته أفندى .. الاكله مابقتش تحلى من
غيره .

— أيا والله .. كان زمانه عمال يضحك ويأرا .. ربنا ياخد بيده .
وانتهى الثلاثة من الأكل ودخل « شوشة » إلى حجرته وانطلق
« سيد » إلى صاحبه تحت التوتة بجوار السبيل ، وجلست « أم آمنة »
مطرقة فى أسفل السلم .

وانتصفت الساعة الرابعة وتبها « شوشة » للخروج ولما يستيقظ
« شحاتة » بعد .

قال شوشة كأنما يحدث نفسه :
— مالوش عادة يتأخر كده .. لازم تعبان حقيقى .. أما أخش
أشوفه .

ودخل شوشة الحجرة مسترقا الخطأ حتى لا يحدث ضجة تقلق
الرجل ووقف بجوار الصحارة التى رقد عليها وكان قد تعود أن يكور
نفسه وأضعأ ركبتيه قرب نقره لقصر الصحارة ، وكان فى رقدته معطيا
وجهه للحائط .

وهتف شوشة مناديا الرجل فى صوت رقيق :

— شحاته .. شحاته ..

ولكن الرجل لم يستيقظ فمد يده وأخذ يربت على ظهره برفق
ثلاثا :

— شحاته .. انت حاسس بتعب ؟

ولم يجب الرجل ، وأحس « شوشة » فى جسده برودة غير طبيعية
فمد يده يتحسس جبينه فسرت إليه قشعريرة ، ولاحظ بالرجل سكوتا
عن التنفس ، وما لبث حتى أدرك أن ما أمامه ، هو مجرد جسد ..
بلا روح ولا نفس ولا حياة .

أجل ، لقد مات مشيع الجنازات ، والساخر من الاموات .
وذعر « شوشة » ذعرا شديدا .. فقد كانت المسألة مفاجأة كبرى
.. وكان آخر ما يخطر له على بال .. أن يجد الرجل ميتا .

ومضت لحظة والرجل وأجم فى مكانه من وقع المفاجأة لا يدري ماذا
يفعل ، وأخيرا بدأ يفيق لنفسه فكان أول ما فعل هو أن هرول إلى
أم آمنة فصاح بها فى صوت يخنقه البكاء :

— أم آمنة .

— نعم يا ابنى .

— شحاته اتندى مات .

وشهقت المرأة وصاحت فى فزع :

— مات .. يا ندامه .. مات ازاي .. دا لسه كان واقف قدامى
على رجليه .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .
ثم استغرقت فى الإجهاش بالبكاء .

وعاد « شوشة » إلى حجرته فانتزع ملاءة بيضاء وسار متاثلا
إلى حجرة شحاته .. ففرش الملاءة فوق الجثة ، ونفذت إلى أنفه رائحة
التدخين . فوقف يفكر قليلا ثم ما لبث أن اقترب من الجسد وأخذ من

تفتيشه وأخرج النقود فوضعها فى جيبه وقذف بالقطعة التى تبقت من
التدخين إلى المرحاض وهو يقول فى تأثر :

— يعنى كان عليك من ده بايه .. الله يرحمك .. انت اللى قضيت
على نفسك .

وانتشر النبا بين اهل الدار ، ثم فى الدرب ، وبدأ الجيران يتوافدون
على الدار للمساعدة أو للاستطلاع أو للعزاء .

وعندما اقبل الليل استأجر « شوشة » كلويا فوضعه على باب
البيت وصف بضعة مقاعد فى الفناء وأمام الدار وتطوع فقيه من سكان
الدرب بالقراءة ، وكان « سيد » وصحبه يجلسون على حجر السبيل
وقد أصابهم الوجوم وخيم عليهم الصمت وأخذ كل منهم يقوم بواجبه
العزاء نحو « سيد » الذى بدا عليه الذهول والفرع .. فقد كانت المرة
الأولى أن يشاهد ميتا ، وكان لا يكاد يصدق أن شحاتة قد ذهب حقا
إلى غير رجعة ، وأنه لن يراه بعد ذلك .

وأخيرا انفض المأتم وانصرف المعزون وانطفأ الكلوب وساد السكون
الدار وأوى « سيد » إلى مضجعه بين أحضان « أم آمنة » وجلس
« شوشة » على فراشه يرنو إلى النجوم المسهدة وخيل إليه أنه
يسمع فى سكون الليل صوت الناي الحزين وأحس بالدموع تخنقه فأجهش
بالبكاء .

وأخيرا وبعد أن أفرغ مدامه هز رأسه فى حسرة وأسى وقسال
لنفسه :

— كل شئ إلى نهاية .. كلنا نعرف ذلك ، ولكن المصيبة أننا
لا نعرف متى النهاية .. ولو عرفناها لكنا فى استقبالها أكثر شجاعة .
ان الحياة حقيرة ، ولكننا من نفس معدنها .. كيف نعرض عنها ونحن
أشد حقارة .. يا مشيع الموتى ما كان أقدرك على كشف الأحياء ..
تالله ما سمعت أصدق من قولك : ليس هناك أحقر من البشر ولا أغفل .

أهناك أشد غفلة من مخلوق يغفل عن نهايته ؟ . أهناك أكثر غفلة من مخلوق يوقن من نهايته ولا يهيىء نفسه لها ؟ . رحمة الله عليك .. فقد كنت على حكمتك أشد البشر غفلة .

وأضى « شوشة » ليلته وهو جالس فى مضجعه يرتقب النجوم ، شارداً الذهن .. منقبض النفس .. يكاد يحس بشبح الموت يجثم فى كل ركن من أركان الدار ، ويشم ريحه فى كل نسمة تطوف بأركانها .. ويسمع صوته فى كل قطرة تموء أو كلب يعوى .
الموت .. الموت .. الموت .

ماله بعبث بنا كل هذا العبث ؟ ! ماله لا ينتفض فيريحنا من عناء الانتظار !! ماله يتركنا حيارى ضالين نحس به ولا نراه ، نوقن من وجوده .. ولا نوقن من حنوته !! ماله يبدو كالشبح أو الوهم .. وهو حقيقة واقعة !! ماله يقبل متخفياً مستترا فلا نراه إلا وقد أطبق علينا ، وهو أبعد ما نتوقع !

أيها الموت .. أنت نذل جبان .. لا تأخذ إلا على غرة .. تبدو بعيداً نائياً .. وأنت كامن وراء تلك السكين أو هذه العصا ، أو أسفل هذه النافذة ، أو فى تلك اللقمة .

أظهر لنا أيها الموت ، فإننا لا نخشاك .. ولكننا نخشى مفاجأتك .. نخشى نذالك وجبنك ، نخشى طرقتك البهلوانية ووسائلك المسرحية .

تعال أيها الموت وأرحنا من سخافات الحياة .. أنت نومة لا أكثر ولا أقل .. أنت لا شيء .. سوى فاصل بين احساس ولا احساس .. أقبل علينا فأنت منجينا حتى من خوفنا منك .. فمن بعدك السلامة منك ومن وهمك ، ومن خشية انتظارك .. أقبل فليس مثلك شفاء للنفس الواعية المدركة بحقيقة الخليقة العارفة بزيغ قيمتها وتناهاه حصيلتها .

أيها الموت .. أقبل .. ولكلك أنذل من أن تجيب إذا ما دعاك

داع .. انك لا تقبل إلا بلا دعوة .. تقبل حيث لا تطلب .. وتعرض
عند الحاجة إليك .



وبدا نور الفجر يتسلل من الظلمات ، و « شوشة » ما زال فى
موضعه ، مفتوح العينين ، شارد الذهن ، ولم يكد يسمع اذان الفجر
حتى نهض من مكانه متاثلاً ، فتوضأ وصلى ! ثم ذهب إلى « أم آمنة »
فوجدتها جالسة فى الحجرة بجوار سيد ، وعندما سمعت وقع
خطوات شوشة رفعت رأسها متسائلة :

— يابنى صاحى ليه من النجهم ؟

— أنا ما شفتش النوم :

— ولا انا . حاسه انه حايقوم ويضحك زى عوايده . كان راجل

أمير .. الله يرحمه .

— الله يرحمنا جميعا .. انا خارج عثمان أجيب الخشبه والمغسل

والكفن .. انا وصيت عليهم من امبارح .. أما أروح استعجلهم ..
عثمان نخلص من الدفنه ، ونشوف أشغالنا .

— هوا انت حاتلاقى حد صحى ؟

— أنا قايل لهم ان انا حاجلهم بدرى .

— طيب يابنى البركه فيك .. ربنا يبعد عنك السوء .

وخرج شوشة يتلمس طريقه فى الضوء الباهت ، ولم يغب عن
الدار أكثر من نصف ساعة عاد بعدها ومعه ثلاثة رجال أخذ اثنان فى
تغسيل الميت ولنه فى الكفن ، وكان شوشة يشعر فى اول الامر بخشية
من الدخول فى حجرة الميت ومن لمس الجثة .. ولكنه تذكر قول صاحبها
عن الأموات ، وعن احتقاره للموت ، واستخفافه بالجثث .

الم يقتل له ان شعوره عند الإمساك بميت لا يزيد على شعوره

عندما يحمل فخذة خروف أو أوزة منبوحة ؟ ألم يقل له ان كليهما جسد ميت من لحم وعظم ؟

وهكذا أزال شوشة من نفسه الخوف والوهم وجلس مع الرجلين يساعدهما فى التفصيل واللف فى الاكفان حتى انتهت المهمة .. ثم حملوه فوضموه داخل النعش ، وكان قرص الشمس قد بدأ يظهر ، وقد نزل المعلم خشت من الدور العلوى لأداء الواجب وتشجيع الجنازة ، ووقف فى فناء البيت ، وهو يهز رأسه أسفا ، ويستتطر النقيد الرحمة وهو يقول :

— يا جماعة الرجل كان عندى ابراح صاغ سليم .. كان زى البهب .. نصبح النهارده نشيع جنازته ، اخص عليها دنيا غروره بنت كلب .

وانتهى اعداد الجنازة بسرغة ، وحمل الرجال الثلاثة النعش واستعدوا للسير ، وتلفت شوشة حوله فلم يجد سوى واحد هو المعلم خشت ، وهز رأسه أسفا ، وجاهد ليقاوم نوبة من البكاء أمسكت بتلابيبه .. وحدث نفسه فى أسى :

— أهذه جنازة مشيع الجنازات ؟ أبعد كل هذه الزفف التى اشترك فيها يحمل إلى مثواه بلا ناع ولا باك ولا حفل ولا موكب ؟ . أبعد طول تزيينه لجنازات الغير بالمناد والمجامر ، تخرج جنازته خاوية خالية ؟

وهم حاملو النعش بالمسير عندما خطرت بباله فكرة طارئة هتف على أثرها بالرجال « تقوا » ، ثم قفز إلى داخل الدار ، وبخل إلى حجرة الصحارة ، وأمسك بصرة « شحاتة » ففكها وأخرج منها عذة الشفل كما كان يسميها صاحبها .. وأمسك بالبدلة بيد مرتجفة ، ثم وضع ساقيه فى البنطلون ، وحشر الجلباب داخله ، ثم ارتدى الجاكete بسرعة فوق الجلباب ووضع الطربوش على رأسه ، ولف الفوطة الحمراء المخططة حول وسطه ، وأمسك بالمجبرة فى يده ، وأندفع مهرولا إلى الخارج .

وكان « سيد » قد استيقظ ، فبهت وهو يرى أباه فى هذا المنظر العجيب وصاح متسائلا :

— إيه ده بابا ؟

— ولا حاجه .. روح انت الكتاب بتاعك ، أنا رايع أوصل شحاته أفندى .

وخرج شوشة إلى الطريق بمنظره هذا فذهل المعلم خشت والرجال الثلاثة الذين حملوا النعش ، وقال « شوشة » مفسرا عمله :

— لا مؤاخذه يا جماعه لازم نكرم الراجل شويه .. دا طول عمره واخذ على الجنازات الأبهة .. وطباخ السم بيدوقه .. ياللا بينا .

وتحركات الجنازة المكونة من الرجال الستة : «شوشة» بالبدلة السوداء والمجمر يسير فى الأمام ، والرجال الثلاثة يحملون النعش و « الخشت » يسير وراءه .. وسادسهم « شحاتة » مسجى داخل النعش .. ولم تكد الجنازة تعبر درب القط حتى برز من إحدى الحارات « حسين القرداتى » بالرق فى يده والمعزة والقرد .. فلم يكد يرى « شوشة » والجنازة حتى سمر فى مكانه وصاح :

— إيه ده ؟ إيه اللى جرا يا معلم شوشة ؟

— البقية فى حياتك .

— فى مين ؟

— شحاتة أفندى مات .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهجم حسين على النعش فأزاح أحد حامليه .. وحل محله فى حمل النعش وهو يقول :

— عنك أجرنى .

وعاودت الجنازة سيرها .. وقد زاد فيها مشيعان .. المعزة ، والقرد .

وسار الموكب الجنائزى فى « درب عجور » .. وظل المشيعون

يزدادون واحدا بعد واحد كلما مر بجار ، أو صديق ، فلم يبلغ مقابر باب النصر حتى كان يسير وراء النعش جمع كثير من أهل الحى .

وكان شوشة قد أوصى اللحاد ليلة أمس بأن يعد المقبرة لاستلام زائر جديد ، فلم تكد تشرف الجنازة على مقبرة المعلم شوشة حتى كانت قد فغرت فاماها ، وبدأ جوفها المظلم معدا لاستلام الضيف المقبل .

وسرت فى جسد « شوشة » قشعريرة ، وهو يرى الفتحة المظلمة ، وعائده خوفه المتأصل من القبور والموتى .. وهم بالتراجع والابتعاد .. ولكنه تذكر الحديث الذى أسره إليه شحاتة فى الليلة السابقة .. وخيل إليه أنه يعاود همسه قائلا :

— « لقد بدأت أتعود النزول إلى داخل المقبرة نفسها .. لقد فعلت هذا .. لأننى عزمتم أن أهزم فى نفسى كل خوف من الموت ، أو رهبة له كشيء مروع .. وهكذا تعودت أن أنزل الأموات إلى المقابر .. وأصبحت بذلك رجلا شجاعا .. بل أصبحت أشجع رجل فى العالم ؛ لقد بت أحتقر الموت .. وأحتقر أكثر منه .. الإنسان » .

وأحس أنه يود هو الآخر لو هزم فى نفسه رهبة الموت وكشفه على حقيقته ، وتعوده كمسألة عادية متكررة الوقوع .

وبعد مستميتة أقبل على النعش ، فرفع غطاءه ، وصاح باللحاد :

— هه .. كل حاجه جاهزه ؟

— أيوه يا معلم .. عنك انت .

— شيل معايا شيل .

ودفع بكتا يديه إلى داخل النعش فأمسك بالجثة من كتفها .. وسرت إليه من برودتها رجفة هزته من أخمصه إلى قمته ، ولكنه همس لنفسه « لا تخش شيئا .. انها لحمة ميت .. انها كنفخة الخروف أو كالأوزة المذبوحة » .

وزاد أطباقه بأصابعه على كتفى الجثة .. كانت معركة بينه وبين رهبة الموت .. ولقد صمم على الانتصار .

ايها الموت .. انت تافه .. انك شيء لا وجود لك .. انها نهايتنا نحن .. لقد انتقلنا من الوجود إلى العدم .. كنا بالأمس ، فأصبحنا اليوم شيئا غير كائن . ما ذلك أنت تقحم نفسك وتخلق لك وجودا وكيانا ، وتقرض لنفسك سيطرة وسلطانا ، وتكسو نفسك الرهبة والروعة .. وانت فى حد ذاتك .. لا شيء .

ما هذه الرهبة التى أحطت بها بقاينا من عظام رميم ، انها مخلفات جامدة .. انها انقراض لم تعد لنا بها صلة .. انها مواد فانية متحللة .. لا فارق بينها وبين انقراض الدور وبقايا الأثاثات القديمة .. كلها صائر إلى رماد .. فعلام إذن الرهبة ولم الخشية ؟

وهبط شوشة بالجثة إلى باطن الأرض وهو فى نضاله العجيب محاولا تهر أو هام الموت .. حتى انتهى من آخر الدرج ؛ وبدأ يتحرك فى الداخل ، وقد أغشت عينيه الظلمة الجاثمة ، وصدمت وجهه برودة ثقيلة ونفذت إلى خياشيمه رائحة عفنة .

ولم يكد يسير خطواته الأولى داخل القبر حتى صدمت قدمه شيئا صلبا ، ونتج من الصدام قرعة أشبه بقرع الطبل وأخذ الشيء المصدوم بتدحرج على الأرض ، فلم يعد هناك شك فى أن الشيء المصدوم جمجمة ميت .

وكانت قرعة شوشة للجمجمة هى دقة الهزيمة .. لقد انهيار الرجل تماما .. وجثا بالميت على الأرض .. ودفن رأسه بين كفيه واندفع فى نحيب حاد .

— لا .. لا .. ليست هذه العظام انقاضا كإنقاض الدمن ، انها قد تكون كذلك .. لو لم يكن فى صدورنا قواد يخفق وقلب يدق وينبض .. اما وهذه تكمن فى حنايانا .. فما أعز البقايا وما أكرم الانقاض .. انها آثار عزيز غاب ، ودلائل حبيب فقد .

ايخفق القلب لشيء غير ملموس ؟ .. لرائحة سارية ؟ .. او لذكرى

عابرة .. ؟ ولا يخفق لبقية ملموسة ضمها الثرى ، وأثر محسوس حوته الأرض .

وأسرع الرجال بوضع الجثة فى مكانها وأخرج « شوشة » من القبرة وقد انهارت مقاومته وتحطمت أعصابه .

وسرعان ما أغلق القبر وقرا القوم الفاتحة مترحمين على الفقيد ، ثم انصرفوا إلى سبيلهم ، وعاد « شوشة » إلى البيت فابدل ملابسه وهو ساهم وأجم ثم خرج إلى عمله بعد أن خرج من الصراع بهزيمة بريرة .

قاتل الله ذلك الساكن فى الضلوع ، لقد خذله شر خذلان وكان السبب فى كل ما حاق به من هزيمة وما أصابه من انهيار .



عاد « شوشة » فى الظهر إلى داره ولم يتناول إلا قليلا من الطعام ، وكان سكون الموت ما زال يجثم على الدار ، وكان يشعر بتثاقل فى اطرافه وانهاك فى جسده ، ولكنه لم يرد أن يستسلم لآثار الهزيمة ، نخرج بعد الصلاة لتصريف شئونه والذهاب إلى المقهى ، ومر بعد ذلك يومان عاد كل شئ خلالهما إلى طبيعته فى الدار ، وعاد « سيد » إلى لهوه ، وشوشة إلى جلسته فى الليل ، وأم آمنة إلى قبوعها فى الفناء ، ولم يعد هناك أثر لشحانة إلا تلك الصرة المنزوية فوق الصحارة .

وفى ظهر ذات يوم وقد عاد « شوشة » من عمله وأنتهى من الصلاة سمع طرقا على الباب فقام ليرى الطارق فإذا به عجوز يرتدى جلبابا وطربوشا ولم يصعب على « شوشة » أن يميز فيه أحد أولئك الأفندية زملاء « شحانة » الذين كانت تكتظ بهم قهوة الأفندية .

وأكد سؤال الرجل ظن « شوشة » فقد تساءل قائلا :

— هى دى شقة شحاته أفندى ؟

— أيوه هيه .

— أمال هوا فين بقاله يومين غايب عن القهوة ؟ .. والشغل
كابس اليومين دول والمعلم محتاج له .

— شحاته افندى .. تعيش أنت .

— بتقول إيه ؟

— تعيش أنت .

وصاح الرجل فى دهشة بالغة وحزن ظاهر :

— مش ممكن .. حاجه ما تعقلش .. آخر مره شفناه كان زى

البمب لا بيه ولا عليه .. كان ماثى فى آخر جنازه زى الحصان

الاسترالى .. هو الوحيد اللى ما شتكاش م المشوار .. كان ماثى

طول الجنازه يضحك ويهرا .

— الى حصل .. الموت ما بيرحمش .

— حاجه غريبه ! الله يرحمك يا شحاته افندى .. كان راجل امير

زى السكره عمره ما زعل حد ولا عاب فى حد .. طول النهار قاعد

يغنى ويضحك .. الله يرحمه .. والله يا شيخ زعلتنى ونكدت على ...

واستمر الرجل فى ومفته على الباب ، ولم يجد « شوشة » أن

هناك شيئا يقال ، ولكنه كذلك لم يستطع أن يطرد الرجل فدعاه إلى

الدخول من باب المجاملة قائلا :

— ما تتفضل تستريح شويه !! خش اشرب لك فنجان قهوه ...

— كتر خيرك . أمال حضرتك تقرب له إيه ! أنا فاكرا أنا شفتك

معاه مره فى القهوة ؟

— والله معرفه عزيزه قوى .. كنا زى الاخوات .

— انعم واكرم .. أنا محسوبك هلال خلف الله هلال زميل المرحوم .

— أهلا وسهلا .

واستمر الرجل واقفا فى مكانه لا يدخل ولا ينصرف حتى بدا

« شوشة » يقلق ، وأخيرا قال الرجل متسائلا :

— وبعدين ؟ إيه العمل دلوقت ؟

— فى إيه ؟

— فى أزمة الأنفار اللي احنا فيها .. الأفنديه مش ملاحقين على الجنازات .. الشغل حمى خالص .

وهز « شوشة » كتفيه مظهرها أسف العاجز الذى لا يملك حلا .. واستمر الرجل فى قوله :

— وكنا معتمدين على « شحاتة » ييجى معانا .. اهو خلى بينا .. إيه العمل دلوقت ؟

واستمر « شوشة » فى اظهار أسفه الصامت ، فقد كان الجواب فى غير دائرة قدرته ، وكان سؤال الرجل له غير ذى جدوى ومع ذلك فقد استمر الرجل الملحاح فى حديثه قائلا :

— حاجة تحير .. إذا لقينا النفر مش حانلاقى البدله .

وهنا فقط أحس « شوشة » أن المسألة دخلت فى دائرة قدرته وأنه يستطيع أن يساهم فى حلها .. فعدة الشغل الخاصة بشحاتة افندى موجودة كما هى فى صرتها ، وهو لا يظن أن أحدا فى هذه الدار يمكن أن يحتاجها ، ولذا فإن خير ما يفعله هو أن يعطيها لهم بأى ثمن .. فهم وحدهم الذين يستطيعون استغلالها .

وقال شوشة مبشرا الرجل :

— إذا كان على البدله .. البدله موجوده .. هى والفوطه والمجره .. كل حاجة موجوده بحالها زى ماهيه .

وصاح الرجل فى لهفة :

— أيوالله . صحيح . الله يسترك . لكن مين حايلبسها ؟

— انت مش بتقول ان الأنفار موجودين .

— أيوه .. لكن فين دلوقت حلاقيهم .. الجنازه فاضل لها حسبة

نص ساعه .

وعاد الرجل إلى إطراقه وخيرته ، ولكنه ما لبث حتى رفع رأسه
متسائلا :

— اسمع .. ما تيجى انت معايا .
وكان السؤال مفاجئا لشوثة فقد كان آخر ما ينتظر ، فأجاب
متلعثبا :

— أنا ؟ . آجى معاك ؟ . لكن أنا مالياش فى الشغلانة دى ؟ ...
— يعنى إيه مالكش فى الشغلانة دى ! ؟ هى دى شغلانه ..
البدله مش تيجى على قدك ؟
وكان شوثة يعرف الرد فقد سبق له إرتداؤها فأجاب بلا تفكير :

— خلاص .. انتهينا .. الحكايه كلها مش عايزه غير انك تلبس
البدله ، وتمشى معنا قدام الخشبه ، وفى آخر المشوار تنقح لك اللى
فيه القسمه إذا كان شلن والا نص ريال ، وإذا كانت الجنازه حاره
والميت سقع .. يمكن توصل لريال .. خُش يا شيخ بلا وسوسه
.. دا رزق ربنا بعثلك .. حد يرفض الرزق ؟ يا الله بلا بطر ؟

وكان ذهن شوثة يعمل فى سرعة .. كان يفكر فى المسأله من
وجهة نظر أخرى .. كان يفكر فيها على أنها فرصة أخرى لدخول معركة
ثانية مع الموت ورهبته .. لقد خسر الجولة الأولى ، وها هى تسنح
له الفرصة لجولة ثانية وثالثة ورابعة .. إن الزمن معه وهو لا شك
منتصر . انها — كما قال شحاتة — مسألة تعود لا أقل ولا أكثر ، وليس
هناك فرصة خير من هذه لقهر الموت .

وفى ابح البصر كان شوثة قد حمل الصرة وسار مع الرجل إلى
قهوة لفنديه ، وعندما وصل إلى هناك كان النشاط على أشده والمقهى
والحانوت كخلية النحل ، ولم يكد الحاج سرور يرى هلال خلف الله
هلال حتى صاح به :

— آمال فين شحاته النحس ؟

- سبقتنا .
- على فین ؟
- على المقر الأخير .. على الذى لا بد منه .
- يعنى إيه ؟
- على القرافه .
- راح لوحده كده ؟
- طبعا .. امال يعنى راح بزفه ؟
- يا جدع اتكلم جد .. حايرجع امتى ؟
- ماهوش راجع .
- مش راجع ازای ؟
- زى الناس . اصله راح راكب . قطع ذهاب بلا اياپ .
- صدك تقول انه مسافر ؟
- حاجه زى كده .
- يعنى إيه حاجه زى كده ؟
- يعنى مات .
- مات !! بتتكلم جد ؟
- وهى الحاجات دى فيها هزار يا حاج .. شحاته افندى مات وشبع موت .. البركه فيك .
- ولم بكذ يسمع القوم النبأ حتى تصايحوا نى دهشة : « مات ؟ » ،
- « مات ازای ؟ » ، « الله يرحمك يا عم شحاته » ، « يا سائر يارب » ،
- « قال يا ريحين يكميكو شر الجايين » ، « لا حول ولا قوة إلا بالله » .
- وعندما هدأت التعليقات صاح الحاج سرور بهلال :
- وبعدين ؟ والعمل إيه دلوقت ؟
- ولا يهكم .. جبت لك نفر بداله .. حايلبس بدلته ويمشى مطرحة .
- انا مش قصدى كده .

— أمال تصدك على إيه ؟

— قصدى ع الأربعين قرش اللى مسلفهم له .. ريالين مشنيرين ..
ريال يخبط ريال .. يا خسارة الفلوس .. أنا كان قلبى حاسس انهم
حايضيعوا .

وكان شوشة قد وقف فى هذا الوسط العجيب يرقب الحوار ويسمع
إلى التعليقات ، فلم يكذب يسمع حسرة الرجل على دينه الضائع حتى
قال له فى هدوء :

— ما تخافش على فلوسك يا حاج .. المرحوم ما كانتش ياكل مال
حد أبدا .

— ما كانتش إيه ؟ الظاهر انك ما تعرفوش كويس ؟ .. دا كان
ياكل مال النبى .

— ماتقولش كده . عيب ... الأربعين قرش بتوعك اهم ..
ثم أخرج كيس النقود وأعطى الريالين لصاحبهما وحقى الحاج سرور
فى الريالين دهشا :

— عجيبه ! دول هم الريالين بتوعى .. الله يرحمك يا شحاته
افندى .. الظاهر انه مالحقش يصرفهم .

وكان مخزن المخدرات قابعا فى إحدى الزوايا وقد راح وسط هذا
الضجيج فى غيبوبته ، ولكن يبدو أن رشاشا من الحديث قد نفذ إلى
مسامعه وانه أدرك ما حدث ، فقد اهتز جفناه ، ثم صاح بصوته
المتحشرج دون أن يوجه أحد الحديث إليه :

— النص ريال بتاعى ماتيش عايزه ، ولا حتة المنزلول وفص
الحشيش خليفهم رحمه ونور على روح المرحوم .
ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال داعيا :

— أرحمه يارب .. حقيقى كان بتاع نسوان ، وفلاتى ، وخباص
وهلاس .. لكن برضك أحسن من ولاد الكلب السفله دول كلهم ..

طبيب وأمير وعمره ما أذى حد ، ولا عاب في حد .. ولا تسبب في ضرر حد .

وأمن « شوشة » على قول « الشيخ سيد » بقوله :

— معاك حق .. كان قلبه أبيض زى حنة البفته .

ولم يرد « الشيخ سيد » على « شوشة » بل استمر موجهها قوله إلى الله :

— وأنت عايز إيه من العبد غير أنه ما يضرش أخوه ، إيه يضايك من أنه يشبرق نفسه ويشوف كيفه ؟ .. وإيه يفيدك من حرمانه من نعمك ؟ .. أرحمه يارب ، وارحمنا معاه .. احنا عبيدك الغلابه .

وعلا صوت « الحاج سرور » مقاطعا « الشيخ سيد » ، صائحا « بشوشة » :

— يا الله ياسيدنا خشن البس . مستنى إيه ؟ معندناش وقت .

وسرعان ما جذبته هلال إلى الحانوت قائلا له :

— تعرف تلبس والا لا ؟

— أعرف البس الجاكطة والبنطلون .. بس القميص والبتاعة السوده دى مالبستهاش قبل كده .

— طب خشن أنا البسك .

وبعد بضع دقائق كان « شوشة » يغادر الحانوت .. وقد ارتدى الطقم الكامل .. وهلال وراءه يصفق بيديه طريا ويصيح :

— حلو .. اللي يشوفك يقول أفندى أفندى أصيل .. أفندى ابن أفندى .. هات الطربوش لقدام شوية .. ما تقصعوش لورا كده زى العصبجيه .. أيوه كده .

ثم صاح « هلال » قائلا « الحاج سرور » :

— احنا حانروح أنهى جنازه يا حاج ؟

— جنازة الجماليه .. حنقوم من الجماليه ع المجاورين .. يا الله اعملوكلو همه .. انا حاوصل لجنازة الكحكيين .. اودى الطقم

وحاصلكو على هناك .. مشى عايز لخطبه .. خد بالك من النفر
الجديد .. لحسن يعمل حاجه كده ولا كده .

— ما تخافش . خليه على .

وتحرك « شوشة » وسط الجمع يحثون الخطا فى شارع الخليج
متجهين إلى شارع أمير الجيوش ، ثم إلى الجمالية حتى وصلوا إلى
بيت الميت .. ووقف « شوشة » يرقب المعزين ، ويرقب الاستعداد
للجنازة ، وقد بدا مأخوذا بما حوله ، واجم الوجه ، شارد الذهن ، ولم
تترك له غرابة الموقف فرصة للتفكير فى الميت ذاته ، ولا الرثاء له ،
والعطف عليه .. فقد كان مشدوها من ضجيج المظاهرة ، وكانت
مشاعره فى حالة تبلد وجمود .

واستمر به هذا التبلد والجهود حتى أخذ الميت يهبط من درج البيت
وانطلقت الأصوات تشق أجواز الفضاء .. ويدت وهى تنطلق تكاد
تنترع قلوب مطلقها .. وهنا أصابته رجفة شديدة جعلته ينتفض
فى حلقه كأنه « العصفور بالله القطر » .. ثم لاح النعش .. نعش
قد لف فى الحرير الأبيض ، دلالة على أن صاحبه سيدة شابة .. فلم
يكذ تقع عليه عينا « شوشة » حتى أصابه ما أصابه عندما طرقت قدمه
الجمجمة من أول جولة .. فقد أنهار تماما ، واندفع فى نوبة بكاء عنيف .

وكان التأثير المباشر لنوبة البكاء التى أصابته ، نوبة ضحك أصابت
بقية الزملاء ، فقد كانت نظرتهم إليه ، وهو مندفع فى البكاء نظرة كل
محترف متمكن فى مهنته إلى مستجد غشيم يبدأ المهنة لأول مرة فيندفع
فى حماقة ، يسببها جهله ، وقلة درايته ، وضعف احتماله .

وقال له « هلال » مهدئا :

— كفايه بقى يا سى شوشة .. خلى شويه للجنازه الجايه لسه
تدامك مناحات كتير .. انت بالطريقه دى حاتخلص فى جنازتين تلاته ..
وبعدين حاتدور أنت على اللى يعيط عليك .. انتل بقى يا جدع انتل ..

بلاش شغل هبل ، كفايه تبص فى الأرض وتعمل نفسك زعلان .
وقال الشيخ سيد متسائلا :

— انت يا جدع بتعيط على إيه ، على الميت ، ولا على المشوار
اللى حاترقعه ؟
واجاب هلال :
— الميت .

— ميت ؟ ليه ؟ تعيط عليه ليه ؟ جعان ، والا عطشان ، والا عريان ،
والا بردان .. والا تعبان .. والا مروع . ما هو نايم اربعه وعشرين
قيراط .. ده هوا اللى حقه يعيط علينا . طب على الطلاق بالتلاته يوم
ما أرقد الرقده دى .. الأبس من الخشب واطلع لسائى للمفقلين اللى
بيعطوا عليه . آل بيعيط على الميت آل .. ليه هى الحكايه انقلبت ؟
فيه ماشى يعيط على راكب ؟ فيه محتاج يعيط على اللى مش محتاج ؟ ..
فيه متالم يعيط على اللى ما يتالمش ؟ يا ناس اعقلوا . ما تضحكوش علينا
الأموات .

وبدأت الجنازة فى السير واتخذ شوشة مكانه فى طابور الأفندية ..
ووصلوا إلى المدافن وواروا الميت التراب .. وعاد شوشة مع الجمع
إلى المقهى فأبدل ثيابه وقبض الأجر ثم عاد إلى البيت مطرق الرأس ،
أحمر العينين وأرم الأنف .

لقد انتهت الجولة الثانية بهزيمة أخرى .

وصل شوشة إلى البيت مع وصول الظلام ، وتلقاه ابنه سيد وهو
يعدو من آخر الدرب قافزا متواثبا وهو يصيح :

— آنا .. المعلم خشت سأل عليك ثلاث أربع مرات ، وقال لى
اول ما تيجى من بره أقول لك عشان يقابلك .

وقبل أن يجيب الأب كان الصبى قد لاحظ الصرة فى يده وعلامات
التعب واثار اليكأه فتسائل فى دهشة :

— الله .. إيه ده بابا .. كنت مين ؟

— كنت فى مشوار كده .

— وزعلان ليه ؟

وتضاحك شوشة قائلا :

— مش زعلان ولا حاجه .. خد القرش ده اشترى به حاجه .

ولكن « سيد » لم يتقبل القرش بما يجب من ترحيب وحماس ..

بل أطبق عليه بين أصابعه .. وكأنه يطبق على حصاة لا قيمة لها .

كان الصبى يحب أباه .. ولشد ما كان يضايقه أن يراه حزينا

موجعا .

وهم الصبى بسؤال ، ولكن شوشة لم يعطه الفرصة وصرفه

قائلا :

— يا الله يا سيد أجرى قول للمعلم خشت ان أنا جيت ، وخليه يتفضل .

وعدا « سيد » صاعدا إلى الدور العلوى ليبليغ الرسالة ، ودخل

شوشة إلى الشقة فتوضأ وصلى ثم جلس ينتظر المعلم خشت .

وبعد لحظة سمع وقع أقدامه البطيئة المتهادية منهض لاستقباله مرحبا

وقد كسا وجهه ما استطاع من علامات البشاشة والسرور :

— أهلا .. وسهلا .. أهلا أهلا .. اتفضل يا معلم .

— ازيك يا معلم شوشه .. ازاي الحال !

— رضا .. أهى ماشيه .

وجلس « المعلم محمود » على الأريكة فأصدرت قرعقة وطققة ثم

استقرت فى النهاية مستسلمة إلى حملها ، وجلس « شوشة » على مقعد

خشبي واطيء وهو مستمر فى الفاظ الترحيب ، ولمح « سيد » وهو يهبط

إلى الفناء فصاح به :

— واد يا سيد .. أوصل هات قزازة كازوزه من على باب الحارة .

وأصدر الخشنت بعض الفاظ التمنع مثل « مافيش لزوم » و « ليه

التعب ده » ؛ ولكن « سيد » كان قد انطلق ينفذ الأمر .. وما لبث

حتى عاد حاملا زجاجة الكازوزة .. ودلف إلى المطبخ ثم أفرغ جزءا منها
في كوب صغير وشرب بقية الزجاجة ، ثم حمل الكوب في صينية صدئة
إلى الضيف ، ثم وقف ينتظر حتى شرب الرجل معظم ما في الكوب ..
وعاد به ثانية إلى المطبخ فجرع ما تبقى به ، وانطلق إلى الفناء رابحا
ما يقرب من نصف زجاجة كازوزة .

وجرى الحديث بين الرجلين في أسئلة تافهة وأحاديث عادية حتى
تخنح الخشت وقال وقد كسا وجهه ابتسامة عريضة :

— أنا جاي آخذ رايك يا معلم شوشه في موضوع يهمني .. احنا
اصلنا مش جيران بس .. احنا اهل .
— طبعا يا معلم طبعا .

— بقى شوف يا سيدى .. المعلم أحمد الفكهاني جالى من يومين
طالب القرب منى في بنتى زكيه لابنه إبراهيم .. قلت له سيبنى أشاور
عقلى .. وبعدين ضربت أخماس في أسداس لقيت الواد كويس .. وابن
حلال وأبوه راجل طيب وأمير .. قلت يا واد وافق .. وربنا يقدم اللي
فيه الخير .. وبعدين قلت لمراتي فقالت الأمر أمرك .. حبيت آخذ
شورتك .. وبرضه رايبين أحسن من رأى واحد .
وأطرق شوشة برأسه برهة ثم أجاب :

— والله الراجل أمير ، وحاله متيسر ، والولد شاطر وابن حلال ،
ورايى انك توافق على طول .

— كده ؟

— أوى .

— خلاص .. هو حايفوت على الليلة دي .. أقول له ان اتا.
موافق وننتهى الحكايه .

— على خيرة الله .

— أنا عايز اعمل ليلة نفرح بيها .. بقالى كتير ما فرغتش ..
عايز اعملها ليلة بالعوالم والتخت .

— ربنا يديم الأفراح يا معلم .

وضحك الخشت ، وبدأت عليه آيات الفبطة ، ثم نهض للانصراف
مادا يده مودعا ، وكانت وقفته مواجهة لدورة المياه وبدأ لعينيه
الشق العميق فى الجدار هابطا من أعلى إلى أسفل منتثيا متعرجا ،
نتيجة التشع الذى أهال البياض ، وبدأت على وجه الرجل علامات
الانزعاج وقال لشوشة :

— ده إيه الشق ده ؟

— الظاهر إن فيه تشع فى دورة المياه اللى عندكو .

— لكن ده شق جامد .. واصل من أول الجدار لآخره .. لازم
تشوف لك فيه طريقه .

وضحك شوشة وأجاب باستخفاف :

— ما تخافش يا معلم ، دا بقالة عشر سنين على دى الحال .
عمر الشقى بقى .

— على العموم أنا حاجيب السباك يشوف المواسير إذا كانت
فيه حاجة بتنز يصلحها . هه .. سلام عليكم . تصبح على خير ..
تصبحى على خير يا خالتى أم آمنه .

وأجابه صوت أم آمنه من حجرتها :

— وائنت من أهله يا معلم محمود .. ربنا يتم بخير .
— الله يحفظك .

وقبل أن ينصرف التفت فجأة كأنما قد نسى أمرا وقال :

— على فكره يا معلم شوشه يمكن نحتاج فى الفرح لأوده والا أوحيتين
من عندك . فيه مانع ؟

— أبدا .. أبدا .. الشقه وإصحابها تحت أمرك .

— كتر خيرك .

ولم يلبث الثبا حتى سرى فى أنحاء الدار وأقبل سيد على صاحبه
« على الخشت » قائلا :

- حقيقى يا على اختك حاتتجوز ؟
- بيقولوا كده .
- وحاتعملوا فرح ؟
- أمال .
- وحاتعملوا فيه رز من بتاع الفرح .
- إيه الرز بتاع الفرح ؟
- رز كده تلاتيه بشعريه وزيبب طعمه لفيذ قوى .. كلته مره
- الفرح الللى اتعمل فى بيت المعلم « زين » السنه الللى فانتت ..
- أيوه فاكده .. كان فيه رقاصه بترقص عريانه ..
- حاتجيبوا رقاصه وعوالم ؟
- لازم أبويه حاجيب .
- وتجببوا مغناوتيه ؟
- ضرورى .
- وتنهذ سيد تنهيدة رضا وغبطة وقال وهو يمنى نفسه بمتعة مقبلة ؟
- حاتبقى ليله هايله .. امتى حاتعملوها ؟
- الله أعلم .. على العموم لسه بدرى .. الظاهر ان لسه فيه
- اخذ وعطا .. لائى سامع أبويا كده عمال يتودود مع أمى .



ولكن المسألة انتهت بأسرع مما توقع الصبيان ، غفى اليوم التالى كان « المعلم خشت » يطرق باب « شوشة » وينبئه فرحا أن المسألة قد انتهت وأن الاتفاق قد تم على أن يكون يوم الخميس موعدا لكتب الكتاب .

وأردف « الخشت » يقول وهو يفرك يديه :

— طبعا انت مش عايز عزومه ... البنت بنتك والفرح فرحك .

— طبعا يا معلم ودى عايزه كلام .

— أنا حاعمل شادر فى الحاره للرجال والالاتيه وحاخلى البيت للنسوان والعوالم .. بس عايزك تقضى لى الأوده اللى قلت لك عليها عشان المعازيم الرجاله ياكلوا فيها .

— الشقه كلها تحت أمرك .. هى دى عايزه سؤال .

— كتر خيرك .. احنا برضك أهل .

وكان الحديث فى يوم أحد اى لم يكن قد تبقى على يوم الخميس — موعد — الفرح — الا بضعة أيام جرى فيها الاستعداد للفرح على قدم وساق ..

— بدأت بشائر الزينة بعلمين اخضرين علقا على جانبى باب البيت وأورمة خشبية ملونة يعلوها التاج وضعت فوق منتصف الباب ، وكان هذا أول دليل ملموس اقنع « سيد » بأن هناك فرحا فعليا ، وأن المسألة لم تعد مجرد أمنية منتظرة ، وإن أكل رز الفرح ذى الشعرية والزبيب قد بات وشيك الوقوع .

ومرت بضعة الأيام التالية على سيد خفيفة الظل لطيفة الوقع ، فقد كان كل يوم يبصر دليلا جديدا .. ففى يوم فرش الرمل الأصفر ، وفى اليوم الآخر علق قدر آخر من الأعلام والبطيخ الزجاجى الملون ، وفى اليوم الثالث غرست أعمدة خشبية على مدخل الدرب ، قد لفت بأشرطة مخططة خضر وبيض ، حتى حل يوم الخميس .. فبدىء فى نصب السرادق لاستقبال المدعوين ، وسرادق آخر صغير خلف السرادق الكبير اقيم فيه المطبخ ورصت فيه الحلل فوق كائون حجرى .

وبات الدرب كله منهمكا خلال الأسبوع فى الاستعداد للفرح كل بما يخصه ، كمدعو أو كمشارك فى أداء أحد الواجبات .

وهكذا كان أهل الدرب من الاستعداد للفرح فى فرح إلا امرا واحدا ، هو « شوشة » ، فقد كان غريقا إلى شوشته فى الجنازات وتشيع الأموات .

اجل ! لقد فتح الله على الافندية بشوطة تدفقت عليهم من بعدها الجنازات ، ووجد « شوشة » نفسه ، وقد اندمج فيهم وجرت رجله بينهم فأخذ يشيع الميت تلو الميت .. وتوالت عليه جولات الصراع بينه وبين رهبة الموت سريعة متتالية .. فقوت من مقاومته وزادت من ملابته ، ففى كل جولة كان يجد نفسه أهدأ أعصابا وأقل حساسية من الجولة السابقة ، ووجد نفسه يسير فى طريق النصر بخطا حثيثة .. وأنه لو استمر فى مثابرته على تشييع الموتى فسينتهى به الأمر إلى انتصار لا شك فيه ، وأنه سيقهر خصمه الرهيب ويسخر منه ويكشفه على حقيقته التافهة الخالية من كل وهم ورهبة وروعة .

وهكذا ظل « شوشة » يواظب على الذهاب إلى مهوى الافندية ، وعلى الخروج معهم فى الجنازات حاصلا من عمله على ريحين ربح باذى وريح معنى .

وبدا أهل الدرب يتهايمون فيما بينهم عن سر خروج « شوشة » بالصرة يوميا يعد الظهيرة ، وما لبث أن ذاع الأمر عندما أبصره أحدهم يسير ببذلته السوداء أمام إحدى الجنازات .

وأثار النبأ تعليقات شتى ، فمن قائل أن الرجل يجرى وراء القروش ، وأنه قد استغل فرصة حصوله على البذلة فورث عمل « شحاتة أفندى » ، ومن قائل أن الرجل يهوى الأحزان أنه يريد جنازة لكى يشيع فيها لطما ، ومن قائل بأنه أصيب بلوثة ، ومن قائل .. ومن قائل ...

كانت الأقاويل كثيرة ، ولكنها كلها كانت فى حدود الهمس إذ لم يجسر أحد منهم على أن يواجهه بها ، وقد مرت الأيام فما لبث القوم أن اعتادوا المسألة ، فخفت همساتهم ولم يعد أحد منهم يعنيه الأمر .

ولكن « سيدا » لم يعتد المسألة ، ولم تخف الهمسات التى كانت تطن فى رأسه ، بل ظل الأمر يعنيه ويقض مضجعه .

كانت المسألة كلها بغيضة إلى نفسه ، كان يشتم منها رائحة ذلك الشيء المجهول الكريه الذى يغيب الأحياء ويأخذهم إلى حيث لا رجعة . . كان يجد فى البدلة والصرة ما يذكره « بشحاتة » ، وما يذكره بالغيبة الطويلة والضياع الأبدى ، وما يذكره بفقد الأعزاء فقدا ميثوسا منه ، فقدا لا مبرر له ، ولا أمل بعده فى استرجاع المفقود ، لقد كان إذا ما ضاعت منه بلية أو نحلة يعزيه أنه يعرف كيف ضاعت ، وأين ضاعت ، يعزيه احساسه بأنه يستطيع أن يجدها أو يجد غيرها بدلا منها . . أما ذلك الضياع الذى لا يعرف له سببا ، ولا ينتظر عنه تعويضا ، ولا يجد بعده من الضائع بديلا . . فذلك هو الشيء المروع .

كانت الصرة المغلقة تشعر « سيذا » بذلك الضياع . . وكان يخشى منها على أبيه الحبيب ، أبيه الذى كان لا يتصور كيف يمكن أن تكون الدنيا بغيره . . ولكنه مع ذلك لم يملك إلا أن يسكت الهمسات التى تطن فى رأسه ، وساعدت الاستعدادات للفرح والصخب والضجيج على إسكات تلك الهمسات إلى حين ، فأنصرف الصبى عن الصرة المغلقة ، إلى الأعلام المنشورة ، والرمل المبروش .

على عرش المياه

حلت ليلة الخميس وكان كل شيء على تمام الأبهة . فالسراشق قد أقيم من أول الدرب حتى قرب السبيل ، والأعلام تزفرف على مدخله ، والكلوبات تتدلى فى أنحائه يلاحقها عفريت قذر أسود بسلم يسنده إلى الأعمدة الخشبية ، ثم يتسلقه إلى سقف السراشق ، ويدفع فى الكلوبات النفس تلو النفس ويسلكها بآبرة فى يده فيزداد وهجا ويشدد ضوءها ، وفى مقدمة السراشق جلست فرقة موسيقية ترتدى ثيابا قديمة من ثياب موسيقى الحرس الملكى لا صلة بين مقاسها ولا بفسياها فإما أن يكون الفرد غريقا فى حلقته وإما أن يكون محشورا بين أزرارها فهى لا تكاد تلم لحمة .

ولم تكن الآلات الموسيقية لتنزل عن أفواههم إلا لترفع ثانية فقد كانوا يعزفون السلام لكل داخل على قدر حاله فإذا بدا القادم من ذوى المكانة عزف السلام على مهل وبكل مقاطعه ، وإذا كان هلفوتا ضرب السلام سريعا مختصرا . . . وعندما كان يخف الاقبال على السراشق كانت تبدأ الفرقة فى عزف أحد الأدوار كإفراح القفة أو يا ملكى أنا عبدك . . . ولكن لا يكاد يقبل مدعو حتى تترك الدور وتزف السلام ، ثم تعود ثانية إلى الدور التى كانت تعزفه .

وفى السراشق كان يصطف المدعوون . . لا يكاد يبدو بينهم وجه غريب عن الدرب ، ففى أحد الأركان جلس المعلم مسطرين ، وزكى زين ،

والأسطى شيحة البقال ، وعيد الحلاق .. وفى ركن آخر كان يجلس على الحمى ، وجاد صبى الحاجة زمزم ، والحاج إبراهيم المعيرجى ، وعم جاب الله البواب .. وفى ركن ثالث كان يجلس الشيخ عبد الرسول ومعاونوه ، وبين كل هؤلاء كانت تتناثر بضعة وجوه مجهولة .

وفى صدر السراقد أعد موضع التخت وهو أريكة خشبية عالية حفت ببعض مقاعد خالية لللاتية .

وراء السراقد يوجد سراقد المطبخ وهو لا يزيد عن « تزلك » أحاط الفرن المصنوع من حجارة شيدت على وجه السرعة ورصت فوقها القزانات الضخمة والحلل السوداء « المهبية » ، وأخذت النار تنز من تحتها ، ومن آن آخر يدفع الطباخ بعض الحطب إلى أسفلها .

ومن وراء « التزلك » كن يطل وجه صغير يستبشق بأنفه شبيها طويلا ثم يلتفت وراءه ويخاطب آخر لم يبد وجهه :
— وله يا على .

— عايز إيه يا سيد ؟ .

— أمال امتى حايتدوا الأكل .. أنا خلاص بطنى نونوت .. أنا بقالى يومين مبطل أكل وبستعد للعشوه دى .

— صبرك شويه .. لما تكمل المعازيم .

— اسمع .. احنا حايفوكلونا لوحدنا والا مع الكبار ؟

— أنا عارف .

— عايزين ناكل لوحدنا .. روح قول لابوك كده .

— أروح أقول له دلوقت ؟ .

— أيوه .. أمال حانتقول له بعد العشا ؟ .

وهم « على » بأن يعدو من وراء سراقد المطبخ إلى داخل السراقد الكبير حيث كان أبوه يرحب بالدعويين وينثر عليهم التحيات .. ولكن « سيد » سرعان ما أمسك بتلابيبه صائحا :

— والا أقول لك .. بلاش دلوقت .. لحسن يجيبوا لنا صنف
والا صنفين ويكروتونا ، ولا من درى ولا من شناف .. خلينا ناكل مع
الكبار .. أقل ما فيها نضمن إن مافيش صنف حايسينا .. والا إيه
رايك ؟

— برضك كلام مضبوط .. وعلى العموم احنا نقدر ناكل مرتين .
— ازاي بقى ؟ .

— مره مع الرجاله ومره مع الستات .

— لا والله حدق .. يا سلام يابو علوه .. إيه الأفكار النيره دى ..
انا طول عمرى أقول عليك غبى .. ومخك زى الصرمة القديمه .. لكن
فى الحكايه دى طلعت حدق . بس اسمع ...
— إيه ؟ .

— عليك تشوف لنا مين حياكل الأول .. الستات والا الرجاله ؟ .
— بس كده .

ثم انطلق يعدو وبعد لحظة أتبل عليه بجوار السراقى يقول
هامسا :

— وله يا سيد .. الستات فى الأول .
— طب يالله بينا على فوق .

ودلف الصبيان إلى الداخل وكان الفناء يعمج بالصبيه والبنات ،
وكانت شقة شوشة قد فتحت على مصراعيها وقد أخلت القاعة وحجرة
شوشة ، ووضعت بضعة مقاعد فى حجرة شوشة ووضعت فى القاعة
منضدة مستديرة قد غطيت بمفرش أبيض ووضعت عليها الأطباق
الفارغة .. وكانت « أم أمّنة » قابضة فى حجرتها جالسة على الشلّة
جلستها التقليدية الحزينة الشاردة .

وشق الصبيان طريقتها إلى أعلى وكانت الزغاريد تهبط طويلة
مسترسلة .. وكانت الشقة تعج بالنساء وقد توسط القاعة بضعة

مقاعد وحشيات انتظم عليها عقد العوالم وقد توسطتتهن رئيستهن
« الأسطى إحسان » وهى امرأة يتكون هيكلها من عدة دوائر متوازية :
فوجهها قرص دائرى أبيض متورد أشبه بصينية البطاطس ، وجسدها
دوائر من اللحم الأبيض قد رصت فوق بعضها البعض ، وذراعاها
وساقاها طيات دائرية أحاطت بها الخلاخيل والأساور .

والمرأة بوجه عام جميلة مجلجلة الصوت لا تفتأ صيححتها تنطلق
رنانة بين آونة وأخرى وقد أحاطت بها صبياتها من الفتيات والمغنيات
والراقصات وبجوارهن جلس عجوز خمر فى حلة سوداء وقد وضع
على ساقيه قاتونا أخذ يتشاغل فى تصليح أوتاره وفى تجربة بعض
التقاسيم .

وبدا « سيد » يخوض وسط اللحوم البيضاء الطرية ويشق طريقه
بين كتل الأرداف المنتخخة والصدور البارزة .. ولحته أم على فصاحت :

— فىن ستك أم آمنة يا سيد .. ما طلعتش ليه ؟

— أظن قاعده تحت .

— تحت ! .. يا ندامه ! .. ليه ؟ .. عايزه عزومه ؟ .. دى ست

البيت .. أوعى ياست منك لها .. أما أنزل أجيبها يا نداشه .. وهى
السهره تحلى من غيرها .

— واندفعت أم العروس هابطة إلى أسفل ، وبعد هنيهة كانت

تعود ساحبة العجوز الضريبة من يدها مفسحة لها الطريق بين
المدعوات ثم هيات لها حشية فى أحد الأركان وأجلستها عليها وهى
تفرقها بمظاهر الترحيب والتكريم .

وكان سيد وصاحبه يستكشfan مكان الطعام ويحومان حول المنضدة

المستديرة التى توسطت إحدى الحجرات التى أخليت من أثاثها .

وقال سيد وهو يفرك كفيه رضاء وغبطة :

— بس ، ولا كلمة .. جلينا لازقين فى الإوده دى عشان نخش فى

أول دور . وبعدين نطير على تحت نلحق دور تانى .

وانبعث من القاعة صوت نسائي يهتف :

— ما تسمعونا حاجة يا جماعه .. والا حاتفضلوا كده قاعدين

ساكتين .. هو احنا قاعدين فى محزنه والا إيه ؟

وكان الرجاء موجها إلى الأسطى إحسان .. التى انطلق صوتها
الرنان يجيب على الرجاء محاولا اسكات عش النحل الذى يطن فى أرجاء
المكان :

— هو إيه أصله ده يا ستات .. ما تسكتوا بقى عشان نعسرف

نشتغل .. بت يا تفيدته جاهزه والا لا ؟

وأجابت تفيدة :

— أيوه يا أسطى جاهزه ، بس بدور على الصاجات ، مين فيكو خد

الصاجات . بت يا شربات .. أنا مش مدياهم لك ، عشان تشيلهم

قبل ما تيجى هنا ؟

وصاحت شربات :

— أنا مش خدامة أبوكى عشان أشيلهم لك .. متشيلهمش انت

ليه .. مأسدة فى إيديكى ؟

وتدخلت الرئيسة لحسم الموضوع صائحة فيهما :

— بسر يا بت منك لها .. هوا دا وقت خناق .. اتلمى بلاش

فضايح ، اديها يا بت يا نعيمة الصاجات بتوعك .. يالله بقى المعازيم

زهقوا .

ثم أمسكت بالرق وطرقت عليه طرقتين ثم أخذت تهزه فى يدها

قائلة لصاحب القانون :

— رقص الهوانم يا خليل أفندى .

ولم يفتح خليل أفندى فاه ، بل ازداد انحناء على القانون وأخذت

أصابعه تنتقل بسرعة بين أوتاره . وقد أخذ نصفه الأعلى يتحرك ويهتز

مع النغمات .

ونهضت تفيدة تنتثى وتتلوى ملتية عن جسدها وشاحا كانت تستر

به حلة الرقص ، وافسح لها القوم رحبة وسط القاعة تباشر فيها رقصها .

وقفت الراقصة رافعة كفيها بالصاجات تقرعها بين أصابعها مع اللحن ، وتحرك نصفها السفلى المغطى بشرائيب من التل والخرز وتكشف عن فخذيها البيضاوين المتلئين ، وبطنها الطرى المستدير الذى ينطبق عليه الوصف القديم « عجين خمران » ، أما نصفها الأعلى فقد شد بصديرى لا يكاد يلم صدرها المترجح المكتنز .

واخذ القانونجى الضربير يتلاعب بأصابعه ويهز جسده مترنحا ، والراقصة تتبع نفثاته ، مسيطرة على كل قطعة فى جسدها محركة رديفها ونثيبيها ووسطها حسب رنين الاوتار ودقات الرق .

وانتهت تفيدة من الرقص ، وانبعث سيد يصفق بيديه طربا وهو يطل بعفته بين أجساد المعازيم وهمس فى أذن على :

— يا سلام يا على .. البت دى هايله !

ولم يكد ينتهى الرقص حتى بدت « الرئيسة » وصبيانها الغناء بعد أن نهبت خليل أفندى إلى الدور بقولها « الهؤ النؤ » .

وجرت أصابع خليل أفندى بمطلع الدور أو كما يسمونه فى لغة الموسيقيين « الدولاب » ، ثم علا صوت « الرئيسة » احسان منشدا :

« الهؤ النؤ .. الها النؤ .. تكايدنى ليه مالكش حق » .

وبدا الانشراح على المدعوات ، إذ كان الدور محببا إلى نفوسهن واشتركن فى الغناء مع العوالم مرددات قولهن : « الهؤ النؤ .. » .

وكان سيد منهما فى التريد عندما توقف فجأة ، وغمز ذراع صاحبه قائلا :

— شايف ؟

— شايف إيه !

— شايف اللى طالع على السلم ف

— أبوه شليف .

— طيب يا الله بينا بأه ، بلا الهؤ النؤ ، بلا الها النا .. يا الله بينا

نقعد على الترابيزه .. انا قتيل الرز أبو صتيير ، والمهلبيه أم فزدق .

ثم تسلل من القاعة واتجه إلى الحجرة التى بها المنضدة ، وجلس على أحد المقاعد وأجلس عليها بجواره ، وبعد لحظة وصلت الصينية الخشبية التى أبصرها « سيد » صاعدة من السلم ، وأخذ حاملها يرص الصحف على المنضدة و « سيد » يحمل فى كل طبق ويتلمظ .

ونظر إليه حامل الصينية شزرا وصاح به :

— قوم يا واد انت وهوا من هنا ، يا الله روحوا شوعوا شغلكم .

— شغلنا ! ماهو دا شغلنا .. زى ما انت شفلتك انك ترص

اللى معاك على الترابيزه . احنا شغلنا اننا نرص اللى على الترابيزه فى بطننا .

ثم صاح متهتها ، ولكن الرجل لم تعجبه النكتة فأمسك به من ذراعه وحاول جذبها بعيدا من المنضدة ، ولكن « سيد » تخلص من قبضته مهددا بقوله :

— حيلك .. انت فاكركنا مين ؟

— يعنى تبقوا مين !

— ده ابن صاحب البيت .. اخو العروسة لزم .

— وانت تبقى مين ؟

— اخو العريس .

وانبسطت أسارير الرجل وتكلف ابتسامة على شفتيه وأجاب :

— عدم المؤاخذه .. انتفضلم بالهنا والشفا .. بس ما تجرحوش

الاطباق إلا لما يقعدوا المعازيم .

— وجب .. لك علينا كده .

وانصرف الرجل وأخذ « سيد » بتغزل فى الاطباق سائلا « على »

بين آونة وأخرى عن هذا الصنف أو ذاك .

وأخيرا أقبلت الدفعة الأولى من الأكلات ، واندمج « سيد » بكليته
فى الطعام ، وأكل من الرز ، ومن غيره ، على حد قول جدته « لما وقف
على ضوافره » .

وعندما انتهى من الطعام سحب صاحبه من يده قائلا :

— يا لله بنا على تحت .

— لا يا عم أنا مقدرش أكل لقمة بعد اللى كلته .

— يا أخى مش ضرورى ناكل نقعد كده نمزمز .. ناكل لحمه ..
نفقى الصنير والزبيب اللى فى الرز ، ناكل الفزقد من على وش المهلبه ،
بالله يا عبيط ، دا الواحد ما بيشوفش العزائم إلا كل عشر سنين مره .

وهبط الاثنان إلى أسفل . واشتركا ثانية فى أحد ادوار الرجال ،
ولم يكن الدور متعا كآول دور ، ولكنه كان مجرد نأناة كما قال « سيد » .
وبعد الانتهاء من الأكل خرجا إلى السرايق .

كان الآلاتية والمغنى قد حضروا ، واتخذوا أماكنهم فى صدر
السرايق وبدأت أصوات تصليح الآلات تنبعث متناثرة من هنا وهناك ،
وكان المغنى — الأستاذ عبده زياده — قد ارتدى الحلة السوداء الرسمية
الشبيهة بحلة المرحوم « شحاتة أفندى » ، وكان الرجل مطبق الوجه
مجعده ، « مقروح النجفن مسهده » .. نتيجة لرمد مزمن ، وكان الرجل
يتلمظ ويحرك لسانه بين شذقيه كأنه يمص شيئا ويسلك زوره متحنحا
بين آونة وأخرى .

وانبعثت الأصوات من أنحاء السرايق محيية « الأستاذ عبده »
سائلة إياه بعض الأوار ، وكان هو يرد التحيات رافعا كلتا يديه إلى
أعلى طربوشه على طريقة « بارك الله فيكم » ويهز راسه كلما طلب
منه أن يغنى دورا قائلا :

— حاضر .. حاضر .

وأخيرا ، وبعد طول « تنقنة » من الآلاتية وتمتمة من المطرب ..

بدأ الغناء .. منشدا دور عبد الحى حلمى : « متع حياتك بالأحباب » ..
بالطريقة التوقيعية المنتطعة البطيئة قائلا :

— مت .. تع .. حيا .. تك .. حيا .. تك .. بلا .. اح ..
باب .. آه .. آه .. آه .. حبك ، (ثم كلمة مدغومة غير مفهومة ،
اغلب الظن أنها ، وصل ، أو هجر ، أو غدر ، أو شئ على هذا
الوزن) .

واندفع المستمعون يضجون بالصراخ ، لست تدري من فرط الطرب
.. أم من مجرد الإيحاء ، أم هى مسألة واجب كان لابد أن يؤديه ،
اذ كان على المطرب الغناء ، وعلى المستمعين الصياح .

على أية حال لقد أحدث صياحهم اثره فى المغنى وفى السراق
كله ، إذ سرت فيه موجة طرب وجذل ، ووجد السرور صداه فى كل
نفس .

وعاد الأستاذ عبده يهتز ويتلوى ويقطع فى الغناء ، ويتلوى
منشدا : « مت ، تع ، حيا ، تك ، تك ، تك » .

واستمر التجاوب بين المغنى والمستمعين ، واستمرت موجة
السرور تغمر السراق حتى سمع المدعوون قهقهة عالية تنطلق من مدخل
السراق فتغطى على صوت المغنى والآلات ، ثم أعقبها صيحة عالية :
— هاى ، ماتعبرونا يا خلاق .

وتوقف الأستاذ عبده عن الغناء وتلفت المستمعون إلى ناحية الصوت
وقد تملكهم الوجود وبدأ على وجوههم الدهش فوجدوا المعلم دنجل يقف
بباب السراق وقد أمسك بشوخته وعلت شفته ابتسامة ساخرة .
وهمس المعلم عز فى صوت قلق :

— الظاهر انه شارب حبتين .. رينا يفوت الليله دى على خير .
وعاد المعلم دنجل يصيح :

— إيه مالكم كده سلكتين زى اللى نزل عليكم سهم الله ، مفيش

— وله يا عبده .. أنت بقيت صاحب تخت ؟ ! .. والله عال ..
الله يرحم الرق اللي كنت تقعد تهز فيه طول الليلة .. طب ما اعمل انا
كمان مغنى .. اسمعنى انت .. هو انت احسن منى .. هع .. قوم
يا واد خلينى اتعد .. قوم .

ونظر المغنى حوله مستنجد .. متسائلا فى نظرات مذعورة هل
بخلى له الحل ام ان هناك منقذا بين الرجال .

ولم يطق الخشت صبرا واندفع كالقنبلة ، وقد أخرج من جيبه مديّة
طويلة وهو يهدر صائحا :

— سيبنى على ابن الكلب ده .. انا افتح كرشه .. هو مش عارف
مين صاحب الفرع .. سيبنى بس .

ولكن شوشة اعترض طريقه مرة ثانية .. وأطبق على ذراعه بقوة
.. وصاح :

— اسكت انت يا معلم خشت .. دخل المطوه فى جيبك ماتضيعش
نفسك فى شربة ميه .. سيبنى إنا حاعرف اريبه .

— سيبنى يا شوشه . سيبنى بقولك .

وصاح دنجل :

— مين المره اللي بيزعق ده .. مين اللي ..

ولكنه لم يتم قوله فقد خطف شوشة أحد المقاعد ورفعته بسرعة
البرق ثم قذف به فى وجه دنجل فانطلق كالصاروخ وأصابته حافته
جبين الرجل فمزق منه الدم كالصنبور .

كانت الضربة مفاجئة .. فقد كانت المعركة متوقعة بين « الخشت »
ودنجل ، وكان شوشة لين الالفاظ مسالم الحديث ولم يكن يبدو عليه قط
أنه هو الذى سيكون البادى بالقتال .

وقبل أن يفيق دنجل من وقع المفاجأة ، وقبل أن ينتهى من تحسس
جبينه واكتشاف الدماء السائلة اندفع « شوشة » هاجما عليه فأسرع
الرجل بتلقيه بشوخته محاولا أن يهوى بها على رأسه ، ولكن « شوشة »

تلقاها بيسراه ، ثم ناوله يميناه لكمة تشديدة إلى أعلى بطن خصمه
أو ما يسمونه « فم المعدة » فصرخ صرخة مكتومة وانحنى ممسكا بطنه
وقد بدا عليه ألم شديد .

وتلقى شوشة انحناءته بضربة سريعة برأسه فى وجهه .
وبدا على الرجل التسليم .. ولم يعد هناك شك فى انه انتهى ..
ولكن أحد أنصاره أسرع فهوى بشوخته على ظهر شوشة .. ثم
أسرع آخر فحطم أحد الكلويات بمقعد من المقاعد وبدأ الضرب والتحطيم
والقتال . وسرت موجة الذعر فى السراشق ، وعلا الصراخ ، واختلط
الحابل بالنابل وما لبث الفزع حتى سرى إلى مجمع النساء فاستبدلت
بالزغاريد ولولة وصراخا .

وانطلقت الصفافير وأقبل الشرطة .. وبعد لحظات أقبلت عربات
الاسعاف يتقدمها رنين الجرس .

وأخيرا هدأت المعركة .. وخرجت العربة تحمل المعلم دنجل وأحد
أنصاره .. وانصرف المدعوون والتخت والعوالم .. وأخذ الفراش
يحل السراشق ويجمع المقاعد .. ثم ساد السكون وعاد كل شىء إلى
ما كان عليه .. كان لم يكن هناك فرح ولا معنى ولا معركة .

وعلى الفراش جلس شوشة فى حجرته ولم يكن يتطلع إلى السماء
من النافذة كعادته بل كان منهمكا فى تدليك مرفقه بالزيت من أثر الضربة
التي تلقاها من شومة دنجل ، وأحس بوقع أقدام تتسلل إليه فى الظلمة
والتفت فتوجد ابنة سيد يقترب منه فلما وصل إليه رفع ذراعيه الصغيرتين
وأحاط جسده بهما وأسند رأسه عليه قائلا فى صوت تملؤه الدموع :

— ايدك وجعتك يابا .. أنا حسيت زى اما تكون الشومة نازله
علىّ وهجمت على الرجل وعضيته حته عضه .

وضحك شوشة ورفع سيدا ووضع على حجره وضمه إليه وقبله

قائلا :

— لكن متى علقه كويسه ؟ .

— كويسه وبس ؟ .. دانت دشدشته .. أنا ما كنتش فاكرا انك
فتوه بالشكل ده .. أنا كان نفسي أشوفك بتتخانيق .. دانت خبطته
خبطه بالكريسي طلع من ايدك زى القنبلة .. والا الروسيه اللى ضربتها
له كانت مدهشه .

وريت شوشة على ظهر ابنه وقال :

— روح بقى نام دلوقت .. لحسن اتأخرت فى النوم .
— اصل بكرة بطاله .

— معملش .. برضك روح نام .. كفايه سهر .

وذهب « سيد » للنوم فى أحضان جدته .. وجلس شوشة برهة
ثم ما لبث حتى رقد فى فراشه وراح فى سبات عميق .

استيقظ شوشة فى الصباح على صوت طرقات على الباب وكان
قد تعود أن يهب نفسه بعضى الراحة يوم الجمعة فلا يستيقظ مبكرا
كمعادته ، وزادته السهرة ومعركة الليلة رغبة فى الاستمتاع بنومة طويلة
واستيقاظ متأخر ، ولذا كانت اشعة الشمس تهبط من النافذة فتية
والضوء يتسرب قويا عندهما ذهب لفتح الباب .

ووجد أمامه رجلا يرتدى حلة صفراء رسمية أشبه بحلة السعاة ،
ولم يكذبصره الرجل حتى سألته :

— هوا دا بيت المعلم شوشة السقا ؟

— أيوه .

— وهو فين ؟

— أنا المعلم شوشه .. يلزم خدمه .

— صباح الخير يا معلم .

— صباح النور .. أهلا وسهلا .

— أهلا بك .. أنا جاى من الشركه .. شركة اليه .

— خير ان شاء الله .. فيه حاجه ؟

— عايزينك تكلم فى المكتب بتاع الشركه فى شارع الفجالة .

— عشان إيه ؟ . ما تعرفش ؟

— الظاهر انهم عايزين يسلموك الحنفية بتاعة الحسينية ، اصل

ببنى وبينك الراجل « دنجل » ... باين عليه ابن كلب ، ماسترشى ..

جت فيه شكاوى كتير .. كل يوم ما بيفتحش الحنفية غير الضهر ..

ده غير الخنصره اللي بيخنصرها من الإيراد .. الظاهر انهم ضبطوا

عليه حاجه .. والا لقوه بيتلاعب .. الله أعلم . أهو كلام بيقولوه ..

ان بعض الظن اثم .. وآخرة المتهمه ، والا زى ما بيقولوا بالنحوى

وثالثه الاثنافى .. النهارده مارحش الحنفية خالص ، وبيقولوا انه بات

فى الاسغاف بعد خناتة أترقع فيها علقه جامده ، مين يعرف ..

أهو كلام .

— لا .. ده بقى مش كلام .. ده صحيح .. أنا اللي مبينه فى

الاسعاف بايدى دى .

— طيب اديهالى أبوسها .. تسلم ايدك يا معلم شوشه .. كان

مثرعن أوى .. ومش حاطط واطى .. مره جه المكتب وبكلمه بالذوق ،

راح مهزائى قدام الناس ، وكان حايعتدى على بالضرب ، لولا ان أنا

أحدثها من قصيرها .. لما لقيتته قدامى زى الفحل .

— كنت تعالى اتفرج عليه امبارح .. وهو مفرش فى الأرض

بالاربعة زى القبتيل .

— والله براوه عليك ، ياالله بينا لحسن الوقت متأخر .

— حالا . اغير الجلابيه واحط البلغه فى رجلى وألف اللاسه على

راسى وأجبلك .. خش اتعد استريح ، خش اشرب لك فنجان قهوه .

— لا .. لا .. مفيش وقت ، بس البس انت قوام .

ودخل شوشة مسرعا وارتنى ملابس فى عجلة . ولم يكن هناك

ثبك فى أن الطرب قد استخف الرجل الرزين ، وأن فرحته بالمنصب

الرفيع ، كانت أعظم من أن يستطيع اخفاءها .

لقد كان يعتبر الحنفية مقره الطبيعى وكان يرى فى نفسه الوريت الشرعى لعرش المياه فى حى الحسينية .

كان الكرسي مطمعه ومنتهى أمله فلما خلا مكانه ووضع فيه « دنجل » أحس أنه سلب حقه ، وأن الظلم قد حاق به ، ولكنه لم يملك ردا ولم يستطع سوى الصبر والاستكانة حتى يرفع الله عنه الظلم ويرد له الحق .

وهكذا لم يكد ينبئه الرجل بأنه مذ اتى ليستدعيه لتولى العرش ، وتسلم مفاتيح خزائن المياه ، حتى فأخذ الفرح بنفسه ، ولم تستطع قدرته على ضبط أعصابه والتحكم فى مشاعره أن تطوى موجة الفرح الظاهرة .

وعندما تم ارتداء ملابسه دخل حجرة « أم آمنة » فوجدها راكعة تتمتع ببعض الدعوات . ووجد سيدا ما زال مستغرقا فى نومه .

وصاح بأمر آمنة فى جذل :

— صباح الخير يا حابه ، هوا سيد لسه ماصحيش ؟

وتقلب سيد فى فراشه وفتح عينيه ، وتمطى ثم أغمض عينيه مرة أخرى ، وأجابت « أم آمنة » وهى تنهض واقفة :

— خير عليك ياخويا ، خليه نائم ، مادام ماوراهش كتاب .

— طيب أنا خارج ، رايح الشركه .

— شركة إيه ؟

— شركة المياه .

— ليه كفى الله الشر ؟

— ولا شرولا حابه ، أنا رايح أستلم مفاتيح الحنفية .

— حنفية إيه ؟

— حنفية المياه ، خلاص حاستلم الكشك بدل دنجل .

— يا خويا ألف نهار أبيض ، مبارك ، ألف مبارك ، ربنا تاب عليك

من ألف والدوران وشيل القرب .

ومرة ثانية فتح سيد عينيه وهو ما زال راقدا ، ثم تساءل في دهشة :
— فيه إيه ! ربنا تاب عليك من شيل القرب ليه !
وضحك ثوشة وأجاب :

— خلاص بقيت من أصحاب الاكشاك .
وقفز سيد من فراشه وصاح في دهشة :
— بالذمة صحيح .. حانتقد في الكشك بدل دنجل ؟
— أمال .. احنا شويه في الحته والا إيه !
ولم يجب سيد فقد اندفع يصفق بيديه ويطوف بالحجرة راقصا وهو بصيح :

— ول .. يا ول .. ول .. يا ول .

ثم التفت إلى أبيه متسائلا :

— ودنجل راح فين ؟

— في الاسعاف .. العلقه بتاعة امبارح جابت خبره .

وتمتمت أم آمنة :

— عشان ما يبقاش يتعدى على الناس ، ويسود لياليهم ربنا
ما يسيبش ظالم أبدا .

وخرج ثوشة إلى الرجل « مندوب الشركة » ، وسار الاثنان
عابرين درب القط إلى درب عجور ، وفي الطريق سال ثوشة :

— ماتعرفناش بالاسم الكريم .

— محسوبك خليل .. محمد خليل الشنواني .

— أهلا وسهلا .. محسوبك ثوشه الدنك .

— تشرفنا يا معلم ثوشه .. انت حضرت التامين معاك ؟

— التامين ؟! إي والله فكرتني .. دانا ناسي الحكايه دي خالص .

هو اطلع كام التامين ؟

— اظن حوالى ميه وخمسين قرش .

— كده خبط لزق ؟

— أهو كده تقريبا .

وتمهل شووشة فى سيره متفكرا .. هذه مسأله لم يعمل لها حسابا ..
مائة وخمسون قرشا دفعة واحدة .. من أين له بهذا المبلغ وكل ما يملكه
فى جيبه لا يزيد على الثلاثين قرشا . لو ان الرجل أتى إليه بالأمس أو
أول أمس لكان فى استطاعته دفعها بسهولة ، فقد استطاع أن يقتصد
من أجر الجنازات ما يقرب من المائة قرش ، ولكنه دفعها بالأمس لشراء
قرب جديدة ولتصليح العربة .

وكان قد وصل فى سيره إلى دكان « المعلم خشت » ووجد الرجل قد
أخذ فى تعليق اللحوم فى واجهة الحانوت ، ولم يكد يراه حتى قذفه بتحية
عالية صارخة :

— ازيك يا معلم شووشه .. صباح الخير .. على نين كده .
شايفك لابس ومتقمع ؟

وهنا وجد شووشة أنه لن يحل مشكلته سوى المعلم « خشت » ..
انه رجل كريم خير ، ولن يبخل عليه بالمائة وخمسين قرشا .. ما دام
يملكها ، ولكن أتراه حقا يملكها أم تراه قد استنفد كل ما معه فى فرح
الأمس ، وأصبح « على الحديدة ؟ » .

أجل .. أجل .. ان من المستبعد أن يكون المعلم خشت مالكا فى
مثل هذه « الصباحية » لمائة وخمسين قرشا .. أو حتى لمائة وخمسين
مليما . ان سوء الحظ يابى الا التدخل . أفلم يكن من الخير أن تتحقق
الأمنية منذ بضعة أيام قبل الانتهاء من الفرع ؟ ولكن كيف كان يمكن
حدوثها قبل الفرع ، ودنجل لم يذهب إلى الاسعاف إلا نتيجة الفرع ،
وتهجمه على الفرع ، وضربه وعراكه مع أهل الحى ؟
على أية حال .. لا داعى لكل هذا التشاؤم .. ليجرب سؤاله ..

نمن يدري .

واتجه إلى الدكان معتذرا « لخليل » بقوله :

— إذنك يا عم خليل أفندى .. دقيقه واحده .

— احنا مستعجلين أوى يا معلم شوشه ، مافيش وقت .
— حالا ، دى كلمه واجده ، أصلها حاجه مهمه أوى .
ثم أسرع إلى « المعلم خشت » فتلقاه الرجل فى شئ من الدهش
قائلا :

— إيه الحكايه ؟ مالك مطقم كده ليه ؟
— أصلى رايح الشركه .
— ليه ؟

— معتولى دلوقت عشان استلم الحنفية بدال دنجل .
وتلقى « المعلم خشت » الخبر بتصفيقه من يده — وصاح فرحا :
— حلو .. اهو كده الشغل والا بلاش .. أهال . ادى العيش
لخبازينه .. مثن يجيبوا مطيباتى يشغلوه سقا ، مبروك يا معلم ، الف
مبروك .

— كتر خيرك يا حاج .. بس كان فيه حكايه كده .
— إيه ؟ فيه إيه ؟
— والله طلب مكسوف اطلبه منك .
— متقولش كده عيب .. احنا أهل .. رقبتي .
— الحكايه لازم لها مايه وخمسين قرش تأمين .. ما معيش منهم
غير ريال .

ووجم « المعلم خشت » برهة ورفع يده وأخذ يعصر رأسه ثم ضرب
جبينه بكفه وتهللت أساريره وهتف قائلا :

— بس ولا كلمه .. فرجت .. برضك تقدر تحلها .. خد ..
آدى مايه وخمسين قرش معايه كنت شايهم للفراش .. لكن خد ،
فوز بيهم أنت ، ولما يجى الفراش يبقى يفرجها رينا ، الحمد لله .. أنا كنت
فاكر مامعيش ولا مليم ، وعز على أن أرد طلبك ، ولكن الحمد لله رينا
سترها .

ثم مد يده فدفعها فى حافظة نقوده وأخرج المائة وخمسين قرشا

واعطاها « لشوشة » ، وتردد « شوشة » فى اخذها قائلا فى كثير من الخجل :

— لكن يا معلم حاتعمل إيه مع الفراش ؟

— خد يا شيخ خد ، يحلها سيدك . . يالله روح استلم شغلك ، احنا ديكى الساعة لما نشوفك قاعد على الحنفية ورينا يتوب عليك م اللف والمرطه .

— كتر خيرك يا معلم . . رينا مايحرمناش منك أبدا ، رينا يقدرنا على رد جميلك .

وأسرع « شوشة » إلى « خليل أفندى » وسارا حائنين الخطا إلى مكتب الشركة بالفجالة حيث أنهى الاجراءات الشكلية ، ثم عاد مسرعا إلى الحنفية فوجد الزبائن متكاثرين حولها فى شبه مظاهرة وهم يتصايحون شاكين متبرمين ، ولم يكادوا يبصرون « شوشة » فى جلبابه النظيف ولاسته وبلغته بلا عربة ولا قرب حتى تساءلوا فى دهش :

— إيه الحكايه ؟ مالك كفى الله الشر ؟ عيان والا إيه ؟
ثم قال أحدهم :

— شايف الرجل النصاب لفاية دلوقت ماجاش !
وقال آخر :

— لازم بايت فى السجن .
وقال ثالث :

— والا فى الاسعاف .
وقال رابع :

— والا فى بيت سر .
وقال خامس :

— والا فى غرزه .

ولم يجب « شوشة » بل تقدم فى خطوات ثابتة متزنة ووجهه عليه سيماء الطرب قائلا فى لهجة حازمة :

— وسع منك له .. خلينا نشوف شغلنا .

فأجاب صوت ساخر :

— شغلك إيه يا عم ؟ إذا كان صاحب الأمر لسه ما صحيحش م النوم

.. تعال اركن جنبنا هنا .

ولكن « شوشة » استمر فى سيره حتى وصل إلى الحنفية وارتقى السلم إلى المقعد خلفها ، ثم جلس فى تؤدة وفتح الحنفية فائلا فى لهجة أمرة :

— اتقوا ورا بعض صف واحد .. الستات قدام والرجال ورا ..

مش عايزين زحمه ومش عايز زيطة . اللي حايطلع من الصف مش حاصر له إلا فى الآخر .

وبهت القوم .. ثم ما لبثوا حتى تهلت أساريرهم وصاح أحدهم :

— انت حاتقعد هنا على طول يا معلم شوشة ؟

— إن شاء الله .

فهتف صائحا :

— يعيش المعلم شوشة .

وردد الجمع :

— يعيش المعلم شوشة .

ثم تعالت الصيحات من هنا وهناك : « مبارك يا معلم » . « بركه

اللى غار فى داهيه » ، « الحمد لله » ، « ألف نهار أبيض » .

وهكذا تربع « شوشة » على العرش ، واستوى على أريكة المياه ، وبلغ أمنيته الكبرى ، وأضحى المانع المانع للمياه فى حى الحسينية ، وكماه الله شر اللف فى الدروب والجري فى الحوارى ، واستقر به المقام ، واطمأن به الحال .

وكان حريا والأمر كذلك أن يقلع عن عمله الآخر ، وهو السير فى الجنازات وتشجيع الموتى وحمل القمامة وزيارة القبور ، فما كان مركزه الجديد يلائم تلك « المرمطة والبهذلة » وما عادت به من حاجة إلى المزيد من النقود التى يتقاضاها من الجنازات بعد أن زاد دخله زيادة محسوسة .

ولكنه مع ذلك — ولدهشة كل من حوله — استمر فى عمله الإضافى المشئوم ، وكان لا يكاد يفلق الصنبور ويعود إلى الدار حتى يخرج مرة ثانية حاملا صرة الشغل متوجها إلى مهوى الأفندية .. حيث يعينه الحاج سرور فى الجنازات المطلوبة .

لقد اعتاد شوشة عمله فى الجنازات ، وسره أن ينتصر على المخاوف القديمة والرغبة الموهومة ، وسره أن يتحقق قول شحاتة وأن يجد المسألة بعد أن جردت مما علق بها من أوهام .. قد أضحت هيئة تافهة ليس بها ما يخيف أو يروع .

لقد سره أن ينتصر على الموت ، وأن يصبح كشحاتة . رجلا شجاعا .. أزيلت عن عينيه غشاوة الوهم .. فنفذ ببصيرته إلى الحقيقة العارية .. وكشف عن روعته الزائفة وروض نفسه على قبوله ، كأمر طبيعى . لقد بات يحتقى الموت ، ويحتقر — أكثر منه — الحياة .

وأثار استمراره على السير فى الجنازات ، أتاويل الناس ولغظهم ، ولكنها — كما كانت فى المرة السابقة عند بدايته العمل مجرد أتاويل ولغظ ما لبثت حتى بددتها الأيام وذرتها ربح النسيان . امرؤ واحد .. هو الذى لم تستطع الأيام أن تبدد من ذهنه اثر العمل ، بل زاده عمقا وتأثيرا .

كان سيد يكره تلك المشاوير الجنائزية ، ويكره أن يبصر أباه خارجا بالصرة أمامها ، ولكنه كان يتلمس بالحاجة عذرا لأبيه ، وينتظر بفارغ الصبر يوم يجلس أبيه فى الكشك فيغنيه الله عن ذلك العمل الرهيب ويصبح فى غير حاجة إلى دريهمات المشئومة .

فلما من الله عليهم بمطلب العمر وحقق لهم الأمنية المنشودة .. طارت نفسه فرحا ، وحمد الله أن خلصهم من الجنازات والاموات . ومن كل ما يتبعها من أقاويل الناس وسخریات الصبية وغمزهم ولزهم ، وذهب إلى حجرة الصحارة فركل الصرة بقدمه ثم قذف بها داخل الصحارة قائلا فى شماتة :

— ربنا تاب علينا منك .

ولكنه لم يتمتع بفرحته طويلا .. فلشد ما أذهله أن يجد أباه فى اليوم التالى قد حملها فى يده وخرج كعادته بعد الظهر .

وهم بالعدو وراءه لاستبقاته وتأنيه ، ولكنه كان يعرف أباه .. يغرف حزمه واصراره وصرامته ، فكبّت غيظه فى صدره وخرج يتسلى باللعب مع أترابه بجوار السبيل .

ومرت الأيام وعادت العجلة تدور دورتها الطبيعية .. شوشة وراء الصنبور صباحا ، ووراء الموتى بعد الظهر ، وسيد فى الكتاب صباحا وفى لعبه حتى المساء ، وأم آمنة تابعة فى مكانها مخنية الظهر مطأطأة الرأس مسندة ذقنها إلى خدها .

وفى ذات صباح خرج سيد كعادته إلى الكتاب وقد أمسك بلوح من الصفيح .. وسار بجوار على الخشت يتبادلان الحديث فى شتى توافه الأمور عن الشيخ عبد الرسول وجرادة والبلى والنحلة ، والكرة الشراب وإبراهيم المعرجى ودقدق .. الخ ..

وعندما وصلا إلى بائع البليلة توقف على وقال لسيد :

— انت عليك الدور النهارده .

— ازاي بقى ؟

— أنا مش موكلك امبارح ؟

— وأنا مش مدبك عشرين بليه امبارح ؟

— مانا خسرتهم ، وخذتهم انت تانى .

— وانا مالى . أهم محبوبيين عليك . هو أنا كمان مسئول عن خسارتك . حد قال لك اللعب واخسر ؟

— يعنى مش حاتوكلنا ؟

— أنا مستعد أوكلك لو كان معايا فلوس .. لكن ما معيش ، وكلنا انت النهارده وانا لك على أوكلك بكره وبعده .

— لا يا عم لا توكلني ولا أوكلك .. أنا رايح أكل لوحدى .

— طب سلفنى نكله ؟

— مايسلفش حد .

— طب هات تمن البلى ؟

— مش جاديك حاجه .

— يعنى عافيه !

— أيوه عافيه .

ومد « سيد » يده فأمسك بتلابيب « على » ومد « على » يده فأمسك بتلابيب « سيد » ، وهمت المعركة بأن تدور لولا أن مربهما « المعلم على الحمى » وتدخل بينهما مخلصا كل منهما من قبضة أخيه ، زاجرا إياهما بقوله :

— يا واد عيب منك له .. دانتو ولاد حته وجيران ، ميصحش .

وتخلص « على » من المعركة واتجه إلى بائع البليلة ، واتخذ سيد طريقته إلى الكتاب وحيدا وهو يحرق ارم الغيظ بعد أن حرم من طبق البليلة دون صاحبه .

وعندما ذهب « على » إلى الكتاب بعد أن انتهى من طبق البليلة واجتاز الباب إلى الفناء ، وجد سيدا واقفا أسفل النخلة ، وقد تلف حوله ثلة من الصبية له يكادوا يبصرونه حتى أخذوا فى التهامس ، وتعالّت من بعضهم ضحكات عالية .

واقترب « على » فى حذر وهو يتوجس خيفة شاعرا أن مكيدة قد

دبرت له وأن خطرا يوشك أن يحرق به ، فلم يكذب يصر إليهم حتى
أحاطوا به وأخذوا يصفقون بأيديهم وينشدون ما يشبه اللحن قائلين :

على يا على يابتساع الزيت
وابوك يا على ركبه عقرت
وامك يا على ماشيه ع الحيط
على يا على يابتساع الزيت

واحمر وجه « على » وبدت عليه سيماء الغضب وهو يرى نفسه
محاطا بتلك الحملة الساخرة التي قادها ضده سيد نتيجة لرفضه مشاركته
البليدة .

واستمر الصبية في مظاهرتهم المجانة الصاخبة حتى دق الجرس
ودخلوا الفصول ووراءهم « على » باكي العين .

ومرت الحصة تلو الحصة ثم حلت فسحة الظهر وتفرق الصبية
في أرجاء الفناء ، ولكن البعض كانوا يحيطون بعلى وقد أخذوا
يتهايمسون ، وبدأ لسيد أن هناك مؤامرة تدبر للرد على مؤامرة الصباح
وأن عليا أخذ يجمع حوله الأنصار . . فقد كانت أصابع موز الحلو
وبراغيت الست تفرق بكميات وفيرة دفع فيها كل ما معه من ملايم .

ولم تمض هنية حتى تكتلت الأنصار حول « على » ، ووجد سيد
نفسه وحيدا وأخذ يرقب الصبية وهم يتهايمسون ويتصايحون وحاول
جهده أن يستنتج ماذا يمكن أن يكيدوا له ، حتى يستعد لأجراءات
مضادة .

وفجأة بدأت المؤامرة ، فقد انتشر الصبية وأحرقوا به كما سبق أن
أحرقوا بخصمه ، ثم بدعوا نشيدهم الساخر ، بنغمة مختلفة ، ولفظ
مختلف قائلين :

أبوك السقا مات
بيمشي في الجنازات

ويوصل الأموات أبوك السقا مات

وفوجيء سيد بأقوال الصبية مفاجأة شديدة . فقد مست منه موضعا
شديد الحساسية ، ونكأت فيه أوجع الجروح .

لم يأخذ « سيد » كلام الصبية على أنه لهو ومزاح .. وقول
طائش ماجن .. بل انطبعت في ذهنه في لمح البرق صورة أبيه يحمل
الصرّة ، ثم صورته وهو يرتدى الحلة المشنومة ويسير أمام النعوش
ويصاحب الموتى ويجول بين القبور ثم صورته وهو مستلق ، كما استلقى
شحاتة من قبل .. بلا حراك .. ولا أمل في حراك .. بل جثة هالكة
مفقودة ، لا تلبث حتى توضع في صندوق وتحمل على الأعناق ثم
تغيب في باطن الأرض .

ومن ؟ . من الذي يحدث له كل هذا ؟

أبوه الحنون الطيب الحازم المرهوب القوى .. الذي حطم الرجل
الفحل واطاح به إلى الأسعاف !

أبوه !! نموذج الأحياء ، بل هو نفسه الحياة ، وبغيره لا تكون
حياة .. يضع منه كما تضع البلية التلقة أو الكرة القديمة . يضع
منه أبدا . يضع نهائيا . بلا أي أمل في عودة .

أبوه نفسه ، يغيب في باطن الأرض ، ويدفن كالقمامة والديدان !
لعنة الله عليهم أجمعين .

انه لا يابه للشتائم والسخریات والمزح .. بل هو نفسه أطول الصبية
لسانا وأقذعهم سبابا ، ولكن السباب شيء ، وهذه الأقوال المروعة شيء
آخر .

لو أنهم قالوا له « يلعن أبوك » أو حتى « يا ابن الكلب » أو أنهم
سخرُوا منه بأقسي ما يشاعون من الهُزء والسخرية ، لاستطاع الاحتمال
.. فهو قد تعود منهم الشتائم والسخرية ، وهو أيضا البادى بالشتيمة ،
والضارب مضروب ، والشتائم مشتوم .

اما ان يقولوا على ابيه مثل هذا القول المروع ، الذى يبدو كأن له صلة كبيرة بالواقع ، وأنه محتمل الحدوث .. فهذا ما لم يستطع عليه صبرا .

واندفع « سيد » باكيا واقبل على الصبية يمعن فيهم ضربا ، ولكن الخبثاء امعنوا فى الضحك والضحك والصياح ، وكلما ازداد هياجه ازداد مجونهم ومرحهم ، حتى كل من الصياح والضرب والهياج والبكاء ، فعاد إلى فصله وجلس على تختته وحيدا يبكي بهرارة .

وكان هياجه ويكاؤه ابعت للصبية على التمسك بالأنشودة والاصرار على ترديدتها ، والامعان فيها ، فلو أن « سيدا » قابلها ببرود وهدوء ، ملأوا منها سراحا ، ولكن انتاجها فيه هذا الأثر الباهر السريع ، جعلهم أكثر تشبها بها وجعله العويتهم كما يتخذون من الأبله الهائج والمجنون المنفذ ، موضع تسلية ووسيلة لهو .

وعندما انتهت الدراسة ، عاد « سيد » إلى البيت مشيعا .. بالأنشودة إياها ، وهو يعدو وراء الصبية ويتذفهم بالحجارة ويكل ما تصل إليه يده .. وفى البيت أمضى بقية اليوم حزينا مهموما ، ولم يحاول الخروج للعب .

وفى اليوم التالى تكرر الأمر ، وعاد « سيد » إلى البيت أشد حزنا ، وأكثر غما .. ولم يحاول الخروج للعب ، حتى دهشت « أم آمنة » وصاحت به متسائلة فى انزعاج :

— مالك يا سيد .. انت عيان ؟

— لا .

— أمال مالك ؟ تعالى ورينى أورتك لما أجسها .

— قلت لك مش عيان ولا حاجه .

— أمال ما بتخرجش تلعب ليه مع العيال ؟

— عشان عندنا سوره لازم أحفظها .

— طيب يا خويا ربنا يهديك وينجحك .. القرآن مفيش أحسن منه .
وكان اليوم يوم خميس ، ولم يكن أبوه فى البيت ، وكان واثقا
أنه قد خرج إلى احدى الجنازات ، إذ لم يجد للصرة المنحوسة اثرا فى
حجرة الصحارة .

وقبيل المغرب عاد أبوه ، وقد تحقق ظنه .. فقد دخل الرجل من
باب البيت .. ليس حاملا الصرة فقط .. بل — شرا من ذلك — مرتديا
الحلة نفسها ، وواضعا الجلاب تحت ابطه .

ولم يحتل « سيد » أن يراده بمنظره هذا ، فأوى إلى مضجعه
ووضع رأسه فى الوسادة واندفع فى البكاء .

وفى مخبئه سمع صوت أبيه يسائل « أم آمنة » :

— أمال سيد فنين .. مارجعش من بره ؟

— دا جوه عندك ، مخرجش ابدا .

— ليه .. كنى الله الشر ؟

— آل بيحفص سوره .

— ما شاء الله ، ربنا يهديه .

ثم علا صوت أبيه متناديا :

— سيد .. سيد .

واسرع « سيد » بكفكة دمه ومسح أنفه بكم جلابيه ، ثم أجاب
على أبيه :

— أيوه بابا .

— انت فنين ؟ تعالى .

— حاضر بابا .

وتريث « سيد » برهة ريثا يذهب عنه أثر البكاء ، ثم حمل اللوح
معه وذهب إلى حجرة أبيه .

وفى الحجرة وقف يرقب الرجل ، وهو يتزعج عنه ملابس الاموات ،
وعندما رآه الرجل قال مازحا :

— هيه يا شيخ سيد .. حفزت السوره .. ربنا يجعلنا من
بركاتك ، ادعى لنا « يا شيخ سيد » .

ودعا الصبى بحرارة من صميم قلبه :

— ربنا يخليك يا ابا ، ربنا يطول عمرك .

ونظر الأب إلى عيني ابنه .. فلمح على الضوء القريب الباهت
المتسلل من النافذة احمرارا ينبىء عن آثار يكاء .. فتساءل فى دهش :
— ايه ده ؟ . انت كنت بتعيط ؟ .

— الا يا ابا .. دا اصل عيني انطرفت ودعكتها .

وارتدى الأب جلبابه ، ثم جلس على حرف الفراش ، وقال « لسيد »
مبتاسطا :

— حفزت سورة إيه ؟

— عم .

— انت لسه فى جزء عم ؟

— خلاص ختمناه النهارده ، وحاتمك فى تبارك .

— طب اسمع بقى يا عم .. ما دام ختمت جزء عم .. إيه رأيك
لو نخرج نتفصح سوا .

وبدا البشر على وجه الصبى وتهللت أساريره وتبددت منه سحب
الهم التى أثقلت نفسه وصاح فى فرحة ظاهرة :

— بحق وحقيق ؟

— أمال .

— حانتفصح فمين ؟

— تروح القهوه معايا .

— ودى نسحه دى .. تقضل انت تلعب فى طاوله .. وأنا قاعد

انئس .. لا يا عم ما تنفعنيش الفسحه دى .

— أمال تروح فمين ؟

— نروح التياترو اللى اتنصب فى الحته الفاضيه اللى قدام البوابه .. بيقولوا فيه حاجات هاييله .

وصمت الأب برهة وبدت عليه سيمها التفكير كأنها يزن قول ابنه
نم هتف فجأة :

— اسمع يا سيد .. إيه رأيك لو نروح الحمام .. احنا بقالنا مده مارحناش ؟

وصاح سيد فرحا :

— هاييله .. يا سلام يابا .. انا كان نفسى أقول لك من زمان لكن خايف تقول لى لا .. لحسن تفرق فى المغطس .

وضحك شوشة قائلًا :

— انت فاكرك .. آخر مره ، لما كنت حاتفرق .. لكن انت كبرت دلوقت وطولت مافيش خوف خليك ، اتف كده ورينى طولك .

وقفز سيد واقفا وهو يشب على أطراف أصابعه وقال ضاحكا :

— شاييف .. إيه رأيك مش بقيت أطول منك ؟

— بزمان ، مش معقول المغطس يفرقك .

— بس اسمع أنا عايزك ثعلمنى العموم .

— حاضر .. يالله بينا .

— أما اقول لستى عشان تحضر لنا غيار .

— وعايزين توضع لنا عثموه كويسه ناكلها هناك بعد ما نستحمى .
— وجب .

وخرج الاثنان من الحجرة فى فرحة ظاهرة ، واتجه سيد إلى جدته يتراقص متواثبا وإرتى بين أحضانها قائلًا :

— أم آمنه يا ويكا .. رايحين الحمام يا ويكا ، وحانتعشى هناك باويكا .. وحانسيبك لوحدة يا ويكا .

— ولزومه إيه الحمام دلوقتى بس . دى الدنيا بردت .. ما اسخن لكم فيه فى الصفيحه ، وتستحموا هنا وتستكوا فى الأوده .

بـ طلب بس وحياة أبوكى بلاش الشوره المبيهه دى ، بلا صفيحه
.. بلا هباب .. هو انتى غاويه شقا .. احنا جانروح نعيموم فى
المفطس .. الغيارفين ؟

— أهو عندك فى الصندوق .. خد لك لباس وفانله وجلابيه
وخذ الصديرى الصوف وخذ كمان الجاكتيه القدييه بتاعة أبوك عشان
تلبسها وانت خارج ، وخذ الطاقيه معاك لحسن رأسك تبرد ، وقول
لابوك ياخذ البالطو معاه وياخذ الشمال .. أنا عارفه بس لزومه إيه
الحمام ده ؟

ولكن « سيدا » تركها وهى فى منتصف الحديث واندفع يخطف
ملابسه من صندوق الملابس ، وبعد لحظه كان يقف أمام أبيه متعجلا :
— يالله بابا .. انا جاهز .. انت جاهز ؟

— يالله بينا .. خليتك بعانيه يام آمنه .

— الله يعافيك يابنى .. خد بالك م الولد كويس . لفه كويس واوعى
يستهوئ منك .. بس هوا يعنى كان لزومه ايه .. ما كنت أسخن لكم
ميه فى ...

ولكن « سيدا » سحب اياه بسرعة إلى خارج الدار قبل أن يسمع
بقية الاقتراح ، وسار الاثنان عابرين درب القط إلى درب عجور إلى
شارع البغالة إلى الحسينية ، وفى الطريق ابتاع المعلم شوشة من
عربة الكفتة الواقفة على ناصية الشارع رغيفين ملاءها بالكفتة والمبار
والكباب وبعض قطع الطرشى ولفهما فى ورقة وتابط اللفافة متجها إلى
الحمام .

كيف ماتت

وصل شوشة إلى حمام الحسينية والشارع مزدحم بالباعة والمارة ، وعلى باب الحمام قد وقفت « عربية بطاطا » قد اتكا صاحبها باحدى قدميه على يد العربية ، ثانيا ركبته ، ممسكا باحدى يديه « جوزة » وجعل يشد منها النفس بعد النفس وقد رصت البطاطا النيئة فوق العربية ووضع فى ركن منها الفرن الأسود ذو المدخنة وقد احتشدت فى جوفه البطاطا اللينة الحلوة الحارة المكتنزة كأنخاذا الفيد وأخذ ينفث الدخان فى الجو كزفرات العثاق .

وبدا الحمام بنوافذه ذات القضبان الحديدية المتقاطعة والضلف الخشبية المقلقة التى علتها الأتربة وخيمت عليها العناكب ، وفوق الباب قد وضع مضباحان زجاجيان علق كل منهما فى احد الأجناب .

وهبط « شوشة » بضع درجات دانعا الباب الزجاجى ، وعبر مرأ ضيقا أفضى به إلى قاعة رحبة غير منتظمة الشكل قد رصت بها دواليب خشبية قديمة وضعت بها المناشف ، وعلى الجانب الأيمن للقاعة مصطبة فسيحة عريضة أقيمت على حافتها أعمدة ضخمة مستديرة واصلت إلى السقف المرتفع ذى الضلف الزجاجية ، وعلى المصطبة تمددت بضعة أجساد ملتفة بالمناشف وكأنها جثث لا حراك بها ، ويجوار الأجساد المتمددة التى انتهت من الحمام وقف بضعة رجال يظلمون ملابسهم ويلفون

البشاكير حول خصورهم ساترين نصفهم الأسفل استعدادا لدخول الحمام .

وعلى يسار القاعة وفى مواجهة المصطبة ذات العمدان ، أو حسب الاصطلاح الفنى « اللون » توجد حجرة زجاجية يصعد إليها بوضع درجات يستعملها الخاصة من المستحمين بدل اللون .

ولما كان المعلم شوشة يعتبر من خاصة المستحمين لا سيما بعدما تسلم الحنفية فقد أمسك ابنه واتجه إلى الحجرة بعد أن ألقى بضع تحيات إلى موظفى الحمام وإلى بعض المعارف من الزبائن ، وكانت الحجرة محاطة بالأرائك الخشبية التى صفت عليها الحشيات وغطيت بالملاءات المحلاوى الحائلة اللون وقد تمدد على الأرائك بعض افراد من المستجمين ، وكان أحدهم يرقد على وجهه وقد وقف بجواره رجل من عمال الحمام انهك فى تدليكه وتكبيسه ، وبين آونة وأخرى تسمع طقطقة من عظام الرجل وتنهيدة راحة من شفتيه .

وفى جانب الحجرة الخالى من الأرائك وبجوار النافذة المطلة على الشارع والمغلقة الزجاج وضع « كنصول » .. ذو مرآة مغبشة مشققة مهشمة الحروف ورف خشبى ذو قوائم مكسورة موصولة مدهونة باللاكىه الفزدقى المترب .

وأخذ شوشة وسيد فى خلع ملابسهما ولف كل منهما منشفة حول نصفه الأسفل ومنشفة أخرى حول صدره ورأسه ، ولغا الملابس القذرة فى صرة سلماها لأحد عمال الحمام الذى وضعها فى دولاى بالحجرة وكذلك تسلم منها الملابس النظيفة فوضعها فى دولاى آخر .

وهبط الاثنان من الحجرة الزجاجية وعبرا الفناء أو القاعة متجهين إلى باب الحمام ، ودخلا إلى حجرة بها مصطبة تمدد عليها عدد آخر من الجثث المستحمة ، ودهليز يفضى إلى باب آخر فى المواجهة وقد ملئ جوها بالبخار وبدا سقفها مقببا ذا عوينات زجاجية .

كانت هذه هي. « باب أول » حيث الحرارة وسط بين الحمام وخارجه ، كى يستريح المستحمون برهة فوق المصطبة حتى « تستهدى » أجسامهم وحتى لا يتعرضوا للبرد بانتقالهم المفاجيء من الحمام الحار إلى الصالة الباردة .

ونزع شوشة وابنه المناشف عن جسيديهما ووضعاهما على المصطبة ثم دلفا من الباب المواجه إلى الحمام نفسه .

وفوجيء « سيد » ببخار كثيف ثقیل يعتم الجو ويحجب ضوء بضعة الفوانيس المتناثرة فى أرجاء الحمام ، ونفذ البخار الثقيل إلى أنه وحجبرته فاندفع فى سعال شديد ضايق أنفاسه .. ولم يستطع احتمال البقاء فصاح بأبيه وهو يسعل :

— آبا .. مشى قادر .

وضحك الأب وجذبه من يده :

— خشى ما تخافش .. دلوقت تاخذ عليه .. مانتش فلكر المره اللى فاتت برضه عملت كده ؟

— مافيش حاجه بتضايقتى فى الحمام غير الدخان ده .. مافيش حمام من غير دخان ؟

— ويبقى حمام إيه ده .. البخار ده هوا اللى بيدفيسه ويخليه حمام .

وبدت فى الحمام من الداخل رحبة يتوسطها إيوان رخامى مستدير فى منتصفه نافورة وقد رقد على الإيوان رجل عار وقف بجواره عبد الله المكيساتى الشبيه بعناريت الليل .. بارز عظام الوجه والجسد ، بتصيب جبينه عرقا وقد أدخل فى بيناه كيسا جلديا أشبه بالقنار وأخذ يذلج جلد الرجل الراقد بعنف وقوة وفى كل دعة يفرج منه أقدارا مبرومة سوداء يلتقى بها بجوار الإيوان .

ويحيط بالرحبة أبواب تقضى إلى مختلف أنحاء الحمام فالباب الأول يقود إلى المغطس الحار وهو عبارة عن حجرة ضيقة يصعد إليها الداخل

يبضع درجات ثم يجد في أرضها حفرة متسعة مليئة بالمياه كأنها تد
حفرت في الصخر تملأ رحاب الحجرة إلا حافة ضيقة تحيط بها كالمشي
والماء يتساقط من ماسورة في السقف المقبى ذي العوينات الزجاجية ،
ودرجة حرارة الماء في المغطس تكاد تصل إلى درجة الغليان .

أما بقية الأبواب فيفضي أحدها إلى المغطس العادي وهو أوسع
من المغطس الحار وأقل حرارة ، والأبواب الأخرى تفضي إلى خلوات
بها أحواض مياه وصنابير يغتسل فيها الزبائن .

وكان المستحمون قد انتشروا في أرجاء الحمام ما بين مغتسل
وغاطس وداعك بالليفة والصابونة ، وكانوا يبدون بأجسادهم الكرشاء
السمينة أو المعجفاء النحيلة وقد لفهم البخار الثقيل كأنهم أشباح أو جن
يتحركون بلا صوت ولا همس .

وذهب شوشة وابنه إلى المغطس العادي وهبط الرجل بجسده
في الماء ثم تلقى ابنه بين ذراعيه وأخذا يعبشان في الماء الساخن
ضاحكين مرحين وبعد برهة قال شوشة :

— أنا حاطلع بقي عشان اتكيس ، وانت تروح تليف نفسك كويس .

— ما تخلينا هنا في المغطس احسن .

— المغطس ما يطلعش الوساخه .

— مش ضرورى .. عنها ما طلعت .. احنا عايزينها تطلع ليه ؟

احنا بندفع عليها أرضيه ؟

— يابنى حد ييجى الحمام ولا يطلعش الوساخه اللي على جتته ..

دى النظافه من الإيمان .

— بس إيه دخل النظافه في الإيمان يابا .. ما تخلينا في المغطس

مستريحين وسبيك من الوساخه .. دى طلعت ما طلعتش عنها
ما طلعت .

— عايز تقعد في المغطس خليك .. أنا حاروح اتكيس علشان

أفوق واستريح .

وخرج شوشة من المغطس وكان عبد الله قد انتهى من تكييس الرجل الرأقد على الفنسية .. فاستلقى شوشة مكانه وتلقاه المكيساتى مرحبا بقوله :

— اهلا وسهلا .. والله زمان يا معلم .. يقالنا مده ما شفنكش .

— مشاغل الدنيا يا عم عبد الله .. والله ان كان على ماسيبش الحمام أبدا .. لكن فين الوقت .

وبدأت عملية التكييس ، وشنوشة مستسلم ليد الرجل فى استرخاء وخمول ، وظل الرجل يدعك فى جسده بالكيس حتى كاد يجلطه ، وأخيرا نهض شوشة واتجه إلى المغطس ليخرج سيد .

وذهب الاثنان إلى إحدى الخلوات ، ولم يكد سيد يرى الليفة والصابونة حتى بدا عليه القم وتمتهم تائلا :

— أدى عيبه .. جالك الموت يا تارك الصلاة .

ثم قال لأبيه :

— ما بلاش يابا حكاية الليفة والصابونة ، انت حاتمبل زى سنى .. هو الصابون دا ورائنا ورائنا .

— ما تخافش مش حاجيب الصابون نواحى وشك .. انا حاليك جسمك قوام وأغسل انت وشك .

وأخيرا انتهى الاثنان من الاغتسال بالليفة وصبا على جسديهما من الماء ما أنزل الصابون ، ثم اتجها إلى المغطس مرة ثانية فأخذا يتمتعان بالتلوى فيه والاسترخاء واللعب ، ثم أخرج الأب ابنه تائلا :

— أظن كفايه بقى .. يالله بينا ؟

— يالله .

وجفف كل منهما جسده باحدى المناشف ، ثم التقا فى بشكرين كبيرين وخرجا إلى باب أول فاستلقيا فى خمول على المصطبة .

وتثائب الأب فى تكاسل وهو يتمطى ويمدد جسده ، وقد رقد ابنه بجواره وقال فى غبطة ظاهرة وقد زفر زفرة حادة مريحة :

— يا سلام .. حابه تهدى الأعصاب وتريح الجته .. أنا بعد المشوار اللى خبطته النهارده ، كنت فاكّر اتى مش حاستريح ولا بعد سنه .. كانت جنازه سخنه .

وكان « سيد » حتى هذه اللحظة يشارك أباه فى احساسه بالراحة والغبطة ان لم يزد عنه ، ولكن لم تكّد تصكّ أذنه كلمة « الجنازة » حتى استيقظت همومه ونكّأت جراحه ، واندفع إلى ذهنه فى سرعة البرق معاكسة الصبية له وسخريتهم منه وانشودتهم عن موت أبيه .. والصرة والحلة المشئومة والقبور ، وأحس بالدمع يصعد إلى مقلتيه كأنه مياه النافورة .

وتلفت الأب إلى ابنه فأذهله أن يجد الدمع يفيض من عينيه ، ولم يتصور فى بادئ الأمر أنه بكاء وقال متسائلا :

— عينيك لسه حمرة من الحمام ؟

ولم يجب الابن فقد كان يحاول جهده كبت مشاعره ، وعاد شوشة يتسائل فى دهشة :

— مالك .. ما بتردش ليه ؟

وأجاب « سيد » .. ليس بالكلام .. ولكن بالاندفاع فى البكاء .
ذهل الأب ونهض بجسده نصف قومة . وأمسك بذراع ابنه وتساءل دهشا :

— إيه الحكاية ! ؟ مالك ! ؟ جرى إيه ؟

— ولا حاجة .

— مش ممكن لازم فيه حاجة ، قول إيه الحكاية ؟

ولم يكن هناك بد من أن يتكلم « سيد » فيفرغ كل ما فى نفسه ..
قال الصبى :

— أصل بابا الحقيقة ان أنا يخاف من الجنازات اللى بتطلعها دى ، وكنت زمان بقول يمكن محتاجين ، لكن دلوقت لزومها إيه ؟
— وتخاف منها ليه ؟

— بخاف عليك .. أنا بقالى جيمسه والولاد فى الكتاب كل
ما يشوفونى يتلوا على ويقولوا لى : أبوك السقامات ، ييمشى فى
الجنازات ، حايجصل الأموات .

— وانت بتتكسف ؟

وأجاب « سيد » هازا رأسه بشدة :

— أنا أتكسف ؟ !! أتكسف من إيه ؟ أنا مابتكسفش منك أبدا ..
لكن بخاف عليك ، لحسن كلامهم يتحقق ، بخاف من قرهم عليك .
وتضاحك الأب قائلا :

— ولا يهكم .. خليههم يقولوا زى ما هم عايزين .. عمر القر ما ناد
ولا ضر .

— ما هى لو كانت الحكايه حكاية قر وكلام فى الهوا مكانش يهمنى
.. لكن دا قر فى محله .. أنا مفيش حاجه مخوفانى من الكلام .. إلا ان
أنا بلاقى له أصل .. أنا كل ما بلاقيك شابل الصره اللى كان شابلها
« شحاتة أفندى » ولايس البدله اللى كان بيلبسها ، يبقى متهيالى أنك
حايجرالك زى ماجراله ، يبقى متهيالى أنك حاتنام نومته ، وما ترصاش
تصحى أبدا ، وبمعدين ياخذوك بشيلوك غصب عنا ويحطوك فى الصندوق
زى ما عملوا فى « شحاتة أفندى » ، ولا يرجعوكش لنا أبدا ، ونتمعد
لوجدنا أنا و « ستى أم آمنة » ..

ولم يكد الصبى يتم حديثه حتى أجهش بالبكاء ، وأخنى وجهه
بذراعه ، وأخذ جسده الصغير العارى الملتف فى المنشفة يرتجف .

ولم يحاول الأب التضاحك فى هذه المرة ، ولو حاول لما استطاع ،
نقد سرت نوية الحزن والتشاؤم من الأمن إليه ومد يده غربت عليه بحنان
وقال :

— بس .. بس .. عيب يا سيد عيب .. أنا بقول عليك راجل كبير
.. حد يعيط كده من شوية أو هام ؟ ثم افترض أنها تحققت .. تقوم

برضك تعيط كده زى النسوان .. الراجل لازم يكون راجل ، وياخذ الحكاية دى بسهولة .. آمال انا بطلع ليه ورا الجنازات ، مش عشان الواحد يعيد نفسه على وحشة السكة اللى مسيره يقطعها .. انا كنت زمان برضك بتوهم منها ، كنت فاكرها حاجه صعب ، حاجه مخيفه لكن لقيتها كلها كلام فارغ وهايف ، وإذا ما كانتش حاتحصل لنا النهارده حاتحصل بكره أو بعد بكره .. والواحد بيفكر بكره بعيد ، لكن ما أسرع ما ييجى بكره ، وبعد بكره .. ليه تخاف من الموت ، ما دام حاصل ، هو افيه حد مش حايموت .. كلنا حانموت ، كل حى لازم يموت ، ولنا حى فلانم حانموت .

ورفع « سيد » رأسه إلى أبيه فى ارتياح وتساءل فى استنكار ودهش :

— لا يابا ماتقولشى كده ، انت مش حاتموت ، مش ممكن تموت ، تموت ليه ؟ انت ما بتعملش حاجات وجشه ، ولا انت عجوز ، ولا عيان ، وانا عايزك ، تموت ليه ؟

وصمت الرجل برهة قبل أن يجيب ورفع كفه إلى جبينه ثم إلى عينيه وبدا كأنه يفالب فى إعادة بعض قطرات من الدمع فرت من مجاريها ، وشرد ذهنه ، ويدت على وجهه علامات حزن دفين ولوعة مكبوتة . ثم قال أخيرا فيما يشبه الهمس كأنما يحدث نفسه :

— هى كما كانت كده ، عمرها ما عملت حاجه وحشه ، ولا كانت عجوزه ، ولا عيانه .. وكنت أنا وانت عايزينها .. لكن ماتت ، ماتت ليه ؟ . معرفش .

وتساءل « سيد » فى دهش :

— هى مين يابا !

— أمك .. يابا سهرت الليالى أسأل نفسى ، وأسأل السما والنجوم ، ورينا : ماتت ليه ! . وعشان إيه ؟ . لكن ما كنتش بلاقى جواب .. ماكنتش بلاقى سبب .. غير ان الموت . بلا سبب ... زى

الحيا .. ليه بنتولد ؟ . وليه بنموت ؟ مين يعرف !
أمه ؟ !!

كانت المرة الأولى التى يحدثه أبوه عن أمه .. فما حاول من قبل أن يجرى ذكرها على لسانه .. أنه لم يرها قط ، ولم يحدثه عنها أحد ، ولم يحاول هو أن يستفسر عنها .. فقد صدته الأجوية المقتضبة والهتة ملاهى الحياة ومشاغفها ، ولم تشعره جدته ولا أبوه .. بحاجته إلى أم .. فبدأ له أنه قد خلق هكذا بلا أم ، وأنه ليس من المحتم أن يكون لكل انسان أم كأمهات أصحابه من الصبية .

لم يكن يشعر بالفراغ ، ولذلك لم يشعر بالتالى بفقدان ما كان يجب أن يملأ الفراغ .. كان يجد ما يكفيه من المحبة ، والعطف والحنان .. لقد تضخم أبوه فى حياته بحيث ملأ عليه كل فراغ وبحيث شغل مكان الآب والأم .. فأحس « سيد » .. أن المرء يمكن أن يعيش بلا أم ، ولكن تستحيل عليه الحياة .. بلاأب .

وهو يذكر جلسة أبيه وراء النافذة كل ليلة ، ونفثه الدخان ، ورنوه إلى النجوم والسماء .. كأنها كان يسألها عن شيء أضاعه .. أو عن معضلة أعياء حلها .

وهو يذكر جلسة جدته واطرافها وشرودها وذقتها المسند فى كنفها ، ويدها المقلوبة التى تطرق ركبته ، ورأسها المتلهل ينة وبيرة . وحديثها الهامس لنفسها بين آونة وأخرى ، كأنها تتساءل عن شيء .. أو تطلب حاجة ، وعندما كان يسألها عما تطلب كانت تفيق إلى نفسه قائلة :

— ولا حاجة .

إذا فهذا هو الشيء الضائع والمعضلة المستعصية التى أضنت أباه .

إذا فهذا هو السؤال الحائر ، والمطلب المتمتع الذى أعيأ جدته !
وبدا للصبي أن الفرصة سانحة لكى يحمل عبئه .. الذى سها عن

حملة طوال السنين الماضية ، ولكى يشارك أباه وجدته ، وجيعتهما ،
وأحزانهما ، وسهرهما ، وشرودهما ، وسؤالهما عن المطلب الضائع .
ولم لا .. ليست أمه ؟

الا يحق له أن يعرف عنها كل شيء ؟
ورفع الصبى رأسه إلى أبيه ، وبلا ارادة ولا وعى ، وجد شفتيه
تنطقان بالسؤال الذى لم يخطر له ببال من قبل :
« كيف ماتت ؟ » .

وكان الصمت قد خيم ، والمكان قد خلا إلا من الرجل وابنه ،
والبخار قد تكاثف فى الجو فبدد أشعة المصباح الهابطة من أعلى
السقف .

واستند الأب بظهره إلى حشية على المصطبة بجوار الجدران وجذب
ابنه إليه فألصقه به محيطا بإياه بذراعه ثم أعرق برأسه وانطلقت من
صدره زفرة حارة وعاد يردد قول الصبى :
« كيف ماتت ؟ ! » .

ثم انبرى يقص القصة ويجيب عن السؤال .

ماتت كما يموت كل انسان .
سكنت أنفاسها وتصلب جسدها وبردت أطرافها .
وأضحت لا شيء بعد أن كانت كل شيء .
من كان يصدق أنها ستموت ؟

ذلك الجسد القوى ، والوجه النضير ، والثغر الباسم ، والعينان
الضاحكتان المتلألئتان .. من كان يصدق أن كل ذلك يمكن أن يتبع فى
حفرة رطبة مظلمة يباطن الأرض ، مسلوب الحركة فاقد الحياة .. ليصبح
بعد حين هيكلا قد أكله البلى وعظاما قد نخرها السوس ؟ . من يصدق

أن هذا الكوم من العظام كان فى يوم من الأيام ربة البيت التى تفيض فيها الحياة وتتفجر منها العافية ؟ من كان يصدق أن تلك الجمجمة المخيفة التى قرعتها بقدسى كانت هى نفسها الرأس الفاتن ذا الجذائل الحالكة والشفاه الوردية ؟ من كان يصدق أن هذا الرماد المكون لأديم الأرض هو نفس الجسد الفارع الباسق الذى أبصرته أول مرة فى حديقة السراى فكأنه النبت الزكى والشجرة المزدهرة ؟ من يصدق أن أمانة التى كانت تطاول السماء .. قد باتت موطئا للأقدام ؟

انى لأذكرها يوم ذاك وقد هبطت من الطابق العلوى قبيل الشروق وأنا أملا حوض النافورة ، وهى تبتسم فى دلال وتسالنى أن أسقى شجرة التبرحنة .

ولم أكن مسئولاً بالطبع عن سقى الشجر فقد كان ذلك من عمل البستاني وكان عملى مقصورا على حمل المياه وإفراغها فى الحوض ثم ملء الأبار والصفائح والطشوت وغيرها من خزانات المياه الموجودة بالدار .

ولكن لم أستطع حينذاك أن أرفض طلبها لا سيما وأنها انبأنى أنها قد غرستها بيدها وأنها تخشى أن يهملها البستاني فتموت وهى عزيزة عليها حبيبة إلى نفسها .. وضحكت ووعدتها أن أداوم على سقيها يوما بعد يوم ، وأن تجعل مسئوليتها فى عنقى ما دامت تعتر بها كل هذا الاعتزاز .

وكنتم أعرمها من قبل فقد سبق لى أن رأيتها ضمن ثلة الخاديمات اللاتى تكنتن بهن السراى ، وكنتم أستطيع بسهولة تمييزها من بين عدة الوجوه التى تتوالى على رائحة غادية .

ولكنها كانت المرة الأولى أن أبادلها الحديث ، وان تكل إلى بعمل خاص بها وتخطبني كما يخاطب الرء صديقه وتضع فى عنقى شيئا مزيئا لديها أتولى سقيها والسهر على حيلته .

ومن ذلك الحين بدأت أشعر بشيء يربطني بها ويشدني إليها ،
واعتبرت سقيا شجرتها العزيزة واجبي الأول في الحياة .

كنت أراها كل صباح إما في المطبخ حين أضعد للماء الأواني وإما
في الحديقة حين تهبط لتلقاني أو لتطمئن على شجرتها .

وكان كل يوم يمر يجعلني أشعر أننا لسنا غريبين أحدا عن الآخر ،
وأنه لابد أن يكون بيننا سابق عشرة أو قديم معرفة ...

كانت صبوحة مشرقة الوجه ، دائمة البسمة ، وكان اشراقها سريع
الانفكاس في نفسي وبسمتها سريعة التردد بين جوانحي .. فكنت
لا أكاد أراها حتى تشرق مني النفس ويضجك القلب وتصنق الروح .

ولشد ما سرني أن أسمعها ذات صباح تسألني عن شجرة التمرحنة
بقولها : « شجرتنا » ، فقد أحسست أنه قد بات بيننا شيء مشترك ،
وأن لنا مصلحة واحدة .. تافهة مهما كانت .. فهي تربط بين أحدا
وصاحبه .

وبدأ بيننا دور التعبير عن المشاعر بالهدايا .. أحملها إليها وتحملها
إلى خلصة ، وبعيدا عن الأعين .. أنا أقتصد من دريهماتى لأبتاع لها
منديلا للرأس أو قطعة رخيصة من الحلوى .. حلقا أو خاتما أو أسورة ،
وهي تقتصد من طعامها لتحمل إلى بعضه .. أو تقتصد من مصروفها
أو تحتجز من أجرها الذي تعول بها أمها دريهمات لتبتاع لى منديلا
أو جوربا .

وكما سقيت الشجرة فترعرعت ، سقى الله حبنا فترعرع ، وباتت
الحياة عندي تنحصر في تلك النهيات التي أحمل فيها الماء إلى السراي
الكبيرة ، والتي ألقى فيها أمانة تبادل النظرات أو التحيات أو الكلمات .

وفي ذات يوم ألت بى علة .. بدأت في المساء خفيفة ثم زادت
سقوطها واستثرى شرها طول الليل ، فلم أذق النوم إلا لما وأنا أنقلب
على أحر من جمر الغضى وقد جف حلقى والهبت الحمى رأسى .
وفي الصباح .. لم ألق على النهوض ، وكنت أسكن في حجرتي

وحيدا ووجدت نفسي أستسلم إلى ما يشبه الغيبوبة ، ورقست في
الغرائش كالجثة الهامدة .. لا أقوى حتى على الاستجد بأحد يحمل دواء
أو يبل لي شفة .

وقبل الضحا سمعت طرقا على الباب فأمرت الطارق بصوت خافت
بالدخول وإذا بي أفلجا بأمة تدفع الباب ببطء وحذر وتناديني في تردد
وخشية

ودهلّت وأجبتهما بقدر ما أستطيع من جهد .

كانت آخر من أنتظر دخوله .. كنت أتوقع أن يحصّر إلى جدار
أو زميل .. أما أن تترك هي عملها وتحضر إلى في البيت .. فكان أمرا
بعيدا عن تصوري .

وأقبلت على جزمة تحسس جبیني ولاطفنني مطمئنة بوضع كلمات
حنون ، ثم غابت عني لحظة ورجعت فجلست بجواري ومعها خرقة
فخّمتها في طبق خل ووضعتها على جبیني ، وظلت تمسح بالخرق على
جبیني حتى أحسست بالحرارة تهدأ بعض الشيء ، وشعرت برغبة في
النعاس فأحكمت الغطاء حول جسدي وحذرني من رمعه ، ثم غابت
لحظات أخرى وعادت حاملة إلى اناء من اللبن ويضعة برتقالات وسألنني
أن أتناولها .

وغادرتني وقد تحسنت حالتي بعض الشيء ، وفي الصباح التالي
استيقظت على صوت طرقاتها الحذرة وخطواتها المتسللة ، وكانت
نحمل في يدها بعض القرائيش وانهاء من اللبن ، وجلست بجواري
وتحسست جبیني بيدها .

وكنّت أحس بكثير من التحسن ، رغم أن الحرارة لم تكن قد هبطت
تماما ، ورغم أن قواي كانت ما زال بها كثير من انحطاط .. ولكن كان
لابد لي من النهوض فان عملي لا يتحمل الرقاد أو الانقطاع . والناس ان
صبروا على المياه يوما فهم لا يستطيعون أن يصبروا يوما آخر ..

وان هم استعانوا بسقا آخر استحل مكانى واستمرا مرعائى وطارت
زبائنى ، ولذا فقد عذمت على النهوض .

ونظرت هى إلى مؤنية دهشة ، وأنبأتنى أنها لن تتركنى انهض باية
حال .. والا أصابتنى نكسة أعادتنى إلى شر مما كنت عليه ، ولكننى
أصررت على ترك الفراش قائلا لها : ان الناس لا يستغفون عن مياهى
وانا لا استغفى عن نقود الناس .. وخير لى أن أعيش مريضا من أن
أموت جوعا .

ولكنها خاطبتنى بقولها ان المياه متصل إلى الناس وان النقود لن
تتقطع عنى ، وأنى لن أموت جوعا وهى على قيد الحياة .

وكان قولها عجيبا ، ولكن أعجب منه كان فعلها .. فقد أصرت على
أن تحمل هى المياه إلى الزبائن حتى أبل من مرضى ، وكان من الجنون أن
أقبل منها عرضها ، وأن أترك امرأة تقوم عنى بعمل الشاق ، ولكنها
أنذرتنى ان لم أضعها تقوم بما أرادت .. فلن أراها بعد ذاك ، وستقطع
كل ما بيننا .. حتى الشجرة ستقتلعها من مكانها .

ولم يكن هناك مفر من الاستسلام لاصرارها .. ولو كنت فى صحتى
وفى كامل قواى ، لكننى أقدر على اخضاعها .. ولكن الرأس الملتهب ،
والجسد المنهك ، والنفس الواهنة ، والداء الذى لم ينصرف بعد .. كل
ذلك تعاون على غلبتى ، فرقدت مستسلما ، وخرجت هى لابسة السطيح
حاملة القرية .

وشاهد حى الحسينية يومذاك لأول مرة وآخر مرة فتاة تحمل
القرية ، وتسير مثقلة بها ، لتمام الأزيار والصفائح ، ولتجيب على الزبائن
بأن شوشة مريض وانها تقوم بالسقية بدله حتى يبل .

وفى اليوم التالى استيقظت من الفجر ، قبل أن تحضر إلى وأسرعت
بالقرية إلى السراى الكبيرة وهناك أفرغتها وسالت عن أمنة ، ولكن
لدهشتى أنبأونى أنها غير موجودة !

لم ؟ .. لأنها طردت .. لهربها من البيت .. وغياها طيلة أمس .

وروعنى النبأ فى بادئ الامر .. ولكن الفكرة دارت فى راسى ،
فشعرت منها بنشوة وطرب .. ولم البث حتى حشنت الخطأ إلى بيت
أمها .. بعد أن سألت عنه إحدى الخادemat .

وهناك وجدتتها ترقد وأمها ، ولم تكذبصرنى حتى صاحبت بى فرحة
متسائلة عما أتى بى فى هذا الوقت المبكر ، ولم تركت فراشى ؟ وقلت
لها انى قد أبليت وانى سمعت عن طردها من السراى الكبيرة وانى قد
فرحت للنبأ لانى صممت على نقلها إلى السراى الصغيرة .. إلى حجرتى
المتواضعة .

ودخلت على أمها الطيبة فسألتها أن تزوجنى ابنتها ، فلم تعارض
« أم آمنة » .

ولم تشرق شمس صباح اليوم التالى إلا زلزلتنسا - أنا وآمنة
وأمها قذ ضمنا ذلك البيت الذى نسكن فيه فى درب القط بعد أن
نوجهنا إلى المآذون وقد عقد علينا . وبقينا زوجاً وزوجة ، وثالثهما
حياه .

وبدأت حياة جديدة ، حياة سعيدة عنيئة قريرة .

لقد أحسست مذ ضممتا دار واحدة أن عبء الحياة قد خف ، وأن
ثغرها قد بسم ، وأنه قد أضحى عندى ما أعيش لأجله ، وانى تغيرت من
سائمة ضالة إلى إنسان قرير .

أى والله .. لقد بت مخلوقا آخر وملئت حياتى الجوفاء الخالية .
ولم أعد أحس بالوحدة المريرة والوحشة الاليمة .

بات البيت عندى ملجأ الجأ إليه .. ولماذا الود به .. وحياة أحيا
فيها .. بعد أن كان مجرد مضجع أقضي به سواد الليل .. لا يسامرنى
فيه غير مواء القطط ، وعواء الكلاب .

كانت مخلوقة عجيبة ، كأنها فى الجهد مائة امرأة فى امرأة لم أر
أشد منها احساسا بواجبها وتفانيا فيه ، ولا أقل منها مطالبة بحقها
وتناسيا له .. كانت صبوراً على البأساء .. حمالة للأسى . كانت

نموذجاً للتضحية والوفاء والبعد عن الأنانية ، كانت أقدر الناس على
تبديد الهموم وطرد الأحزان وتسهيل الحياة وتخطي عقباتها .. ما رأيته
قط شاكية ولا متبرمة .. يملأ نفسها دواما الرضا والقناعة .

وحمدت الله الذى وهبني الهناء والاستقرار بعد طول جهد وانهك ،
وضلالة فى ببداء الحياة .. وشعرت ان الله قد أكرمنى إلى أبعد حدود
الاکرام ، وانى ما كنت أتمنى فى أحلامى أكثر مما وهبني إياه .

أمنية واحدة هى التى كانت لا تزال قلقة فى افق الأمانى ، واهل
واحد هو الذى كان يداعب النفس ، ويبتغى طريقا إلى الظهور .
هذه الأمنية وذلك الأمل .. هو أنت يابنى .

كان بنا حنين إليك ، وشوق إلى الابن المجهول المنطوى فى غياهب
الغيب والذى لم تبد لنا بشائره بعد .

ولم أحاول انا قط أن أفصح عن ذلك الأمل الذى كان يراود النفس
خفية .. لانى كنت واثقا بالله .. عوقنا أن الأمنية وان تأخرت فهى
قادمة قادمة .. وانك وان تمهلت فانك آت آت .

وكنت أخشى أن أشعرها بالتقصير وبأنها بعد كل هذا الجهد
والفئانى والاخلاص ، لم تنلنى أمنية عزيزة .. يعلم الله إذا كانت قديرة
عليها أم أن بها عجزا وعقما .

وهكذا طويت الأمنية بين جوانحي ، وبالفث فى اظهار اثرها
والسعادة ، ولكنها كانت أذكى من أن تخدع وكانت من أشد من رأيت
نفاداً إلى راسى وقلبى واكتشافا لباطنى واحساسا بمتاعبى وآلامى
وأحزانى وآمالى .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هى الأخرى أشد رغبة لىك ، وتمنى
لمجيئك .. ولذا فقد بدا القلق والخوف يدخل إلى نفسها ، وأخذت
تزور الاولياء والمشايخ .. وتتعاطى للوصفات وتتبع المشورات .
وأخيرا .. حقق الله يقينى .. واستجاب لدعائها .. وأعطينا

الإنذار الأول .. لبدء خلقك .. ولتكوينك فى باطنها ..

وسادت فى الدار حركة نشاط واستعداد ، وفرحنا ، كما يقولون ،
قبل الهنا بسنه ، وأخذنا نعد العدة لاستقبالك .. وتوقعنا ، أو تمنينا ،
أن تكون ولدا ، وسميناك باسمك وأنت فى علم الغيب وناجينك ولاغيناك
وأنت منطو فى حشاياها .

كنت موجودا بيننا قبل أن تهبط إلينا .. لقد دفعنا لهفتنا عليك إلى
أن نخرجك بيننا قبل أن يخرجك الله .

ولا اظن أن هناك مخلوقا أصاب قدرا من السعادة كما أصابت هى
فى فترة حملك ، لقد كانت تشعر أنها تحمل أمنية عزيزة ، وحلما جميلا .
ومحت فرحتها بك كل متاعب الحمل ، فما أذكر أنها تأملت من شيء
أو عجزت عن شيء .. لقد تعاونت قوتها الجسمانية وقوتها النفسية على
حملك كاصح وأقوى ما حملت أم .

وأخيرا .. وبعد طول ترقب وانتظار .. وتحضير .. واستعداد ..
هبطت إلينا .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

يا للسخرية الكبرى !! لكنها كانت تشعر بأنها لن تسعد بك بعد
ولادتك ، فأخذت نصيبتها من السعادة بك وأنت طاو فى باطنها .

وعندما أقول لك الآن صعدت .. لا أملك إلا أن أقولها ببساطة ..
بساطة أى لفظ .. لا يحمل أكثر من معناه ، ولكن صعودها وقتذاك ، كان
أجل من أن يستعمل للتعبير عنه أى لفظ ، كان أشبه بانطباق السماء
على الأرض أو حلول الساعة .

كان كل شيء يمكن أن يتصور الإنسان حدوثه .. غير أن تصعد هى ،
وتركنا فى وحدتنا ، أنا وأنت ، وأما .

كانت مسألة لا يقبلها العقل ولا يسمح بتصديقها .

ولم يستغرق صعودها وهبوطك وقتا طويلا بل حدث التبادل فى مثل
لمح البصر .

فى لحظة من اللحظات ، كانت هى موجودة ، وأنت فى عالم الغيب ،

الانذار الاول .. لبدء خلقك .. ولتكوينك فى باطنها .

وسادت فى الدار حركة نشاط واستعداد ، وفرحنا ، كما يقولون ،
قبل الهنا بسنه ، وأخذنا نعد العدة لاستقبالك .. وتوقعنا ، أو تمنينا ،
أن تكون ولدا ، وسميناك باسمك وأنت فى علم الغيب وناجينك ولاغيناك
وأنت منظر فى حشاياها .

كنت موجودا بيننا قبل أن تهبط إلينا .. لقد دفعنا لهفتنا عليك إلى
أن نخرجك بيننا قبل أن يخرجك الله .

ولا أظن أن هناك مخلوقا أصاب قدرا من السعادة كما أصابت هى
فى فترة حملك ، لقد كانت تشعر أنها تحمل أمنية عزيزة ، وحلما جميلا .
ومحت فرحتها بك كل متاعب الحمل ، فما أذكر أنها تأملت من شيء
أو عجزت عن شيء .. لقد تعاونت قوتها الجسمية وقوتها النفسية على
حملك كأصح وأقوى ما حملت أم .

وأخيرا .. وبعد طول ترقب وانتظار .. وتحضير .. واستعداد ..
هبطت إلينا .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

يا للسخرية الكبرى !! لكأنها كانت تشعر بأنها لن تسعد بك بعد
ولادتك ، فأخذت نصيبها من السعادة بك وأنت طاو فى باطنها .

وعندما أقول لك الآن صعدت .. لا أملك إلا أن أقولها ببساطة ..
بساطة أى لفظ .. لا يحمل أكثر من معناه ، ولكن صعودها وقتذاك ، كان
أجل من أن يستعمل للتعبير عنه أى لفظ ، كان أشبه بانطباق السماء
على الأرض أو حلول الساعة .

كان كل شيء يمكن أن يتصور الإنسان حدوثه .. غير أن تصعد هى ،
وتتركنا فى وحدتنا ، أنا وأنت ، وأما .

كلنت مسألة لا يقبلها العقل ولا يسمح بتصديقها .

ولم يستغرق صعودها وهبوطك وتنا طويلا بل حدث التبادل فى مثل
لمح البصر .

فى لحظة من اللحظات ، كانت هى موجودة ، وأنت فى عالم الغيب ،

وفى اللحظة التالية كنت انت موجودا وهى فى طريقها إلى عالم الغيب بلا أمل فى عودة أو رجاء فى بقاء .

انى لا أذكر أنها تعذبت فى ولادتك ، أو ربما تعذبت ، ولكن جلدها العجيب وقدرتها على تحمل الآلام منعها أن تفصح عن شيء .. فرقدت فى حجرتها .. الحجرة التى بها الصحارة ، ثم جاءها الطلق ، وأخذت أمها تعاونها حتى تحضر « الداية » ولكن قبل حضورها كان كل شيء قد انتهى .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

ويعلم الله إذا كانت قد صعدت حقاً .. أم أنها هى الأخرى قد هبطت مع جسدها إلى جوف القبر .. وانتهت — كما يقول شحاتة — ككل مقعد قديم وقطة .

كنت وقتذاك أشبه بالضائع فى غيبوبة .. كنت مرتاعاً إلى أقصى حدود الارتياح .. فقد كنت — إن صح التعبير — محدث وفاة .. لم يسبق لى أن فجعت — على كبر وإدراك — فى عزيز لدى .. بل فى أعز ما أملك .

واندفعت أمها يومذاك فى الصراخ .. كأنها كلب جريح يعوى .. ولكنى لم أصرخ ولم أعو .. فقد كنت .. كما قلت لك فى غيبوبة .. أسير وأتحرك وأتصرف بلا وعى ولا إدراك .. ولقد سألنى من حولى وقتذاك أن أبكى .. حتى أفرج عن نفسى ، وحتى لا أجن أو أصرع ، ولكن الدمع كان يستعصى ، فالبكى لا بد أن يبكى عن إدراك ، أما أنا فقد كنت من الصدمة فاقد الإدراك .

وقام الناس بإجراءات التفسير والتكفين والجنائز والدفن وأنا انظر إليهم نظرتى إلى أشباح مزعجة مخيفة .

كانت الرهبة تجثم على أنفاسى فنجعلنى أرى كل هذه الإجراءات أشياء مروعة رهيبة من الصعب فهمها ، أو مباشرتها .

وخلا الدار من عنصر الحياة فيه ، بعد أن قطع شريانه وأقبل

الليل المدهم ، وأنا وأنت والعجوز وحدنا .. أشبه بجند حديثي عهد
بمعركة فقدوا قائدهم ، أو بركاب سفينة فقدت ريانها ، أو بثلاث عجائز
تركن في صحراء مقفرة لا ماء فيها ولا رواء ، ولا زرع ولا ضرع .
وكان على العجوز الشكلي النائحة أن تتولى أمرك ولقد تولته —
والحمد لله ولها — على أحسن حال .

ولقد حاولت جهدها التجلد والتحامل من أجلى ومن أجلك ، ولكن
الحزن والدموع المناسبة في الليل الطويل ، أفقدها البصر ، ولكن لم
يفقدها الجلد والتحمل والصبر على رعايتنا ، أنا وأنت ، أو بقايا ابنتها
الراحلة .

وحاولت أنا الصبر والتجلد واستعنت بالصلاة وبالقُرآن ووضعت
آيات الصبر نصب عيني أقرؤها في كل غدوة وروحة ، ولكن الصبر
كان متعذرا والوجيعة جاثمة على القلب تأبى فراقه .

ولا أكذبك القول يابني اننى كرهتك في أول الأمر ، كنت أراك
لا تستحق الثمن .. كان ثمنك نادحا جدا لا يدفع لشراء عالم بأكمله ..
نما بالك بوليد تافه ، وكنت أتمنى في قرارة نفسي لو يعدل الله عن
البذل فيأخذك ويردها ، ولكن كنت أشعر أنى في تفكيرى أحق مجنون ..
وأن قضاء الله لا راد له .

ورويدا رويدا بدات أحبك ، واتخذت منك عزاء عنها ، بعد أن
عز العزاء ، ووجدت منك إلى حد كبير دافعا على التحامل ومواصلة
العيش .

ولقد كنت دائما أسائل نفسي في يأس — كما سألتنى أنت — لماذا
نبوت وهى لم تفعل شرا ولا هى عجوز ولا مريضة ونحن في أشد
الحاجة إليها .

ولقد استعصى الجواب على حتى دخل « شحاتة » في حياتى وأخذ
يلقننى حديثا بدا لى في أول الأمر حديث خرافة .

قال لى : إن وجه الأرض متغير ، وأن مركبات هذا الوجه من مختلف

الكائنات محدود وجودها بفترة معينة لها بداية ونهاية .. وان ابن آدم لا يزيد عن أن يكون أحد مركبات وجه الأرض ، فوجوده محدود لفترة معينة حكمه فى ذلك حكم المقعد الذى تجلس عليه والقطعة الجالسة اسفل المنضدة ، وأنه لا بد له من الانتهاء ليحل محله سواه ويأخذ مكانه فى الوجه المتغير .

ولكن ابن آدم المغرور يكره أن يقارن نفسه بالمقعد أو بالقطعة أو بأى مخلوق من المخلوقات ذوات البقاء المحدود ، وهو كذلك يكره الموت ويأبى قبوله كنهاية محتمة ويأبى إلا احاطته بأوهام كرهية ، ومناظر مفرجة ، ويرغض تَعُودَه وترويض نفسه عليه .

انها مسألة ترويض وتعود .. لا أمل ولا أكثر .. ان كل حدث على الأرض يهون بالتععود .

هكذا قال لى الرجل .. ولقد بدا حديثه .. كما قلت لك حديث . مخرف ، وكان من المستحيل على ، انا المفجوع المجوع .. المجروح القلب ، الكليم الفؤاد ، أن أستسيغ مثل هذا القول الساخر الواقعى الجاف .

ولكن لم أكد أنزل الحومة وأجوس بالساحة .. حومة الأموات وساحة المقابر .. حتى تبددت من نفسى الرهبة شيئاً فشيئاً .. وأدركت ضيق الثقب الذى ينظر منه الإنسان إلى هذه الأشياء .

لقد نزلت إلى ساحة الأموات .. فوجدتها سخریات فى سخریات ، ووجدت الإنسان .. مهما كان .. لن يزيد على المقعد أو القطعة ، ووجدت اكوام العظام فى القبور .. أحقر كثيراً من انقاض المقاعد المهشمة . وان رمم القطط والكلاب قد تبدو أبهى منظراً من رمم الإنسان .

لقد باشرت التفصيل والتكفين والدغن .. فوجدتها سخافات فى سخافات وتفاهات فى تفاهات .. ان المسألة كلها لا تزيد على دفن القمامات الإنسانية والمخلفات البشرية ورميها فى حفرة بباطن الأرض . عرفت الكثير من الحقائق فى عملى الجديد .. الذى فككت به

العقدة الكبرى المعقودة فى نفسى وفى نفس كل إنسان : ووجدت الإجابة المستعصية تأتى سهلة هينة وأنا أسأل نفسى : لماذا تموت وهى ليست عجوزا ولا مريضة ونحن فى أشد الحاجة إليها ؟

لقد قلت لنفسى يابنى لأنها ليست أول من يموت ولمست أور من فم زوجة ولا كنت أنت بأول من يولد بلا أم .. هذه أشياء تحدث كثيرا فى الحياة ، فيجب ألا ينظر إليها على أنها مأس قد خصنا بها القدر .. يجب أن نعرف أن هذا الأمر هو سنة الحياة وطبيعة الأشياء ، ويجب ألا نعتبرها مفاجأة .. بل نقبلها بالصبر ، ونواصل السير لنقوم بواجبنا .. حتى يصيبنا قضاء الله .

بهذا وحده أحسبت بالاستمرار والسكينة . ولكن ليس بالنسيان .. لقد كنت حريا أن أنسى .. لولا ذلك القلب الناتج بين الضلوع . الباكى فى الحنايا ، والذي لا يقتنع بمنطق ولا يسلم بعقل ولا يحتمل صبرا .. اننى لم أنسها رغم اكتشافى لحقيقة الموت والحياة .. لقد كنت أشيّعها فى كل جنازة أسير أمامها . وكنت أراها فى حن ميت أواريه الثرى . انى أحس بمتعة من تشييع الجنازات .. فهى تقربنى إليها وتبغنى برفقتها وذكرها ، وتهون على نفسى مسألة الموت وتعبدنى لاستقباله غير وجل ولا هيب ، وعندما تهون على الإنسان النهاية .. تهون الحياة .



وصمت الرجل ورفع الصبى رأسه فى خوف وجزع وقال فى صوت خافت ملىء بالدموع :

— ولكنك رغم ذلك .. لن تذهب .. انى أريدك .. إذا هانت عليك نفسك فلن تهون على .. إذا كنت قد روضت نفسك على الذهاب ، فانا لم أروضاها .. ليس لى فى الحياة سواك .. انك الأم والأب .. انك با أشعرتنى قط بأننى فقدت أمى .. لا تذكر الموت أبدا ولا تعود نفسك عليه .. فإنك لن تموت .

الفصل الثانى عشر

لن يموت

ومرة ثانية بذل الرجل جهدا كبيرا ليحبس الدمع فى المآقى ولا يفضح تأثره بحديث الصبى وهو القوى المتجلد ، وبعد فترة صمت استعاد خلالها نفسه وتمالك قواه اصطنع ضحكة خفيفة أسدل بها ستارا على حديث الشجن الذى فاض به .. ثم قال لابنه فى لهجة مازحة :

— طيب ياسى سيد خلاص .. ماشى كلامك .. ما دام مش عايزنى أموت .. مانيش رايح أموت .

وأجاب « سيد » ، وهو يكتف دمه :

— ولا تطلع الجنازات ، ولا تلبس البدله دى أبدا ؟

— ولا حاحطها على جتنى عشان خاطرك .. مبسوط بقى يا عم ؟

— أيوه مبسوط .

— طيب أمال مبتضحكش ليه .. يالله اضحك .

وافتر ثغر الصبى عن ابتسامة مفتعلة صاحبها بقايا دمع سائل على خديه ، ولكن الرجل عاد يقول مازحا فى بعض التآنيب :

— برضه ده ضحك ؟ !! اضحك كويس .. احنا خلاص مش

حانجيب سيرة الزعل بعد كده .. يالله وريتنى ضحككت .

وضحك الصبى ضحكة غريضة خالصة وريت أبوه على ظهره فى

رفق ، وهو يقول :

— أيوه كده ، خلينا نفرغش .. يالله بينا نقوم نلبس بقى أنا بطنى
فونوت ، وكل ما افكر رغييف الكياب ريقى يجرى ...

— أيوه حقيقى .. أنا كمان جعت .. يالله بينا ناكل .

ونفض الاثنين ملتفين فى المناشف وغادرا باب أول إلى القاعة
الرحبة ، ثم اتجها إلى اللوان الزجاجى الذى خلعا فيه ملابسهما مجيبين
فى طريقهما على بضعة تحيات من هنا وهناك ...
« نعيما » .. « أنعم الله عليك » .

وفى اللوان تمدد « شوشة » على إحدى الأرائك وأقبل عليه
« عميره » المدلكاتى المكسأتى فأخذ يدلكه ويكبسه ويطلق عظامه ،
وانهمك « سيد » فى خلع المناشف وارتداء ملابس النظيفة ، ولم يكد
يقم اللبس حتى صاح « بعميره » :

— فىن الأكل يا عميره ؟

— حالا حاجيبهولكوا .. أنا أصلى ادبت الرغيفين « لعبده » بتاع
المستوقد يحطهم فى الفرن عشان يفضلوا سخنين .
— زمانه طير نصهم .

— ما تخافش أنا نبهت عليه انه ما يمدش ايده عليهم ، وهوا يخاف
منى ويعمل لى حساب .

وضاق « سيد » ذرعا بطول التكبيس والتدليك فصاح بأبيه :

— ماتىالله بقى يابا .. آمال كنت بتقول اناك جعان ازاي ؟

— أهو خلاص .. يالله يا عميره انت روح هات لنا الأكل .

ونفض « شوشة » وأخذ فى ارتداء ملابس ، ويعد برهة أحضر
« عميره » الأربعة الساخنة يتصاعد من باطنها بواخ اللحم ورائحة
الشواء ، وجلس كل منهما يلتهم رغيفه فى أنهماك وصمت ، وبين
آونة وأخرى يتبادلان جرعة من « القلة » التى أحضرها « عميره » ،
وبعد الانتهاء من الطعام صاح « شوشة » « بعميره » :

— يا عميره .

ودنا « عميره » مسرعا .. فمد الرجل يده ببضعة قروش قائلا :
— خذ هات لنا كل واحد كباية شاي وخذ الباقي .
— كتر خيرك يا معلم شوشه .

وبعد هنيهة كان كل منهما يجرع كوب الشاي فى لذة واستمتاع ،
وأخيرا نهض الرجل والتفت بوشاحه الصوفى ولف ابنه بجاكته القديمة ،
ثم غادرا الحمام عائدين إلى البيت بعد أن ابتاع « لأم آمنة » نصيبها من
الكفتة والكباب .



نام الثلاثة : الابن والاب والجدة انعم ما يكون بالا ، وأقر ما يكون
نفسا .. وكان « سيد » أكثرهم هدوءا وطمأنينة بعد أن وثق تماما من
الخلاص من بدلة النحس ، ومن العمل المشئوم الذى يقوم به أبوه ..
وبعد أن وعده الأب وعدا جازما بأنه لن يموت .

وكانت « الجدة » أول من استيقظ ، فأخذت تباشر أعمالها العادية
التي تعودت أن تقوم بها بطريق التحسس والتوجيه .

واستيقظ بعدها « سيد » ، وكان اليوم جمعة .. وهو يوم يتلفه
عليه « سيد » لكى يستيقظ متأخرا حتى يثار من بقية الأيام التي يكر
فيها فى الاستيقاظ ، ومع ذلك لا يكاد يحل اليوم حتى يجد « سيد » نفسه
أشد رغبة فى الإستيقاظ مبكرا عنه فى بقية الأيام .

وأخذ « سيد » يعد البلى ويجهز أحد الجوارب لعمل كورة ثم
خرج لينادى عليا حتى يتفق معه على عمل طائرة ، ولكنه فوجئ « بعلی »
وأمه وأخته وأبيه هابطين على السلم ، وقد حملا بعض السلال .
وصاح بـ « على » :

— على فبن كده .. بربطة المعلم ؟

— معزومين النهارده عند أخت المعلم عز فى امبابه .

— حانتغدوا هناك ؟

- أيوه .
- يا بختكم .
- ما تيجى معنا ؟
- على إيه .
- قول لابوك وتعالى .
- أبويا لسه نايم .
- وكانت الأسرة قد وصلت إلى الباب ، فقال المعلم خشت وهو يدلنك إلى الخارج :
- ابقى صبح لنا عليه لما يصحى .
- وقالت زكية وأما :
- وأبقى صبح لنا على الحاجه .
- وغاب الأربعة فى الطريق .. ووقف سيد وحده يجهز الكرة الشراب ، ولكنه ما لبث أن أصاح السمع ، فقد بدا له كأن هناك من يناديه ، وبالأصوات ميز صوت أبيه يأتى من الداخل :
- يا سيد .
- وبدخل الصبى يعدو إلى الداخل ملبيا نداء أبيه ووجده ما زال فى نرائسه ، وقد لف رأسه بالوشاح الصوفى وأحكم تغطية جسده بالبطانية . ووقف سيد بجوار أبيه :
- أيوه بابا .
- اسمع يا سيد .. أنا عايزك تاخذ المفاتيح ، وتروح تفتح الحنية ، وتترك قاعد لغاية ما توزع الميه على السقاين وبقية الزبائن .. النهارده الجمعه مفيش شغل كثير ، لكن عايزك تاخذ بالك كويس وتفتح عينك ، تيد كل اللى تصرنه فى الدفتر واللى تتبضه اكتب قصاده .. وحط الفلوس فى الكيس .. فاهم ؟
- ولكن « سيد » كان مشدوها فصاح بأبيه فى جزع :
- ليه بابا ؟

— ولا حاجة أنا أصلى حاسس ان جتتى مخدله .. الظاهر انى
خدت برد .. خلاص يا سيد .. الظاهر ان الواحد عجز .. مابقيناش
نستحمل زى زمان .. لكن نقول إيه .. الواحد مش عايز يعترف انه
سأب الشباب .

ثم حاول التضاحك ، ولكن قطع تضاحكه نوبة حادة من السعال ،
صعدت الدم إلى وجهه ، والدموع إلى عينيه ، وعندما انتهى من سعاله
عاود الضحك والحديث قائلاً :

— يا لله يا أبو السيد .. ورينا الشطاره ، عايز أشوفك راجل .

— لكن بابا انت عيان ؟

— ولا عيان ولا حاجة .. أنا عايز أستريح لى يوم .. والا منتش
قادر على الشغلانة ؟

وانتابت الصبى نوبة من الحماس أزاحت جزعه على أبيه جانباً
فصاح فى حزم :

— مش قادر ازاي .. دانا أدها وأدود .. ايدك على المفاتيح ..

دانا سيد ابن المعلم شوشة .. على سن ورمح .

وخطف سيد المفاتيح والدفتر والكيس الفارغ واندفع يعدو إلى
الخارج ، وصادفته « أم آمنة » فصاحت به :

— على فين ! ؟ إيه الحكايه ؟

— رايح أفتح الحنفيه .

— تفتح الحنفيه ! ؟ ليه .. وأبوك فين ؟

— عايز يستريح شويه ، عن أذنك بقى لحسن مستعجل .

— هوا إيه أصله ده ! ؟ استنى شويه أما أشوف إيه الحكايه ؟

— يا ستى أنا مش فاضيلك ا عندى شغل .

ثم اندفع يعدو إلى الطريق ، واستمر فى عدوه فلم يقف حتى

وصل إلى الحنفية واعتلى متعدها فى فغار وكبرياء .. وصاح فى الجمهور
المحتشد الصاخب :

— بس منك له .. كل واحد يتقف ورا التانى .. اللي حايرج عن
الصف مش حاصر له إلا فى الآخر ، واللى حايعمل زيتله مش حاصر
له .. واللى مش عاجبه يلعن أبوه فى الأرض .. فاهم منك له والا لا .

— وضج الناس بالضحك .. وانتظموا فى الصف وهم يتساءلون :

— آمال فين أبوك يا سيد ؟

— تعبان شويه .. مالوش كيف .

وتعالت التعليقات ما بين « لا بأس عليه » و « بعد الشر عنه »
و « سلم لنا عليه » .. الخ .

وظل سيد منهمكا فى العمل ، فرحابه ، مستمتعا بمركزه الرفيع حتى
انتهى من الصرف ، وقد نسى خلال العمل كل شىء عن مرض أبيه وجزعه
عليه .

وبعد الانتهاء أغلق الحنفية وسار حاملا الكيس المليء هائئا سعيدا ،
بفكر فيها ينوى أن يقول لأصحابه عن مغامرة اليوم وعن اعتلائه عرش
المياه ، وتحكمه فى أفواه الناس .

ولكنه ما كاد يقترب من الباب .. حتى عاوده جزعه الخفى وأصابه
قلق على رقدة أبيه ، ولكنه دعا الله أن يكون قد عافاه وأن يجده قد
خرج إلى المقهى .

ودلف إلى الداخل فلم يجد جدته فى مكانها فى الفناء ، فزادت خيفته
وانجه رأسا إلى حجرة أبيه فلم يجده بها لا هو ولا فراشه . واستدار
يبحث عنه فى الشقة فوجد العجوز جالسة قبال الأب ، والاب مضطجع
على فراشه فى حجرة الصحارة مغمض العينين وغرق جبينه خرقة مبللة
وقد تعالت أنفاسه فى صوت مسهوع .

وأحس الصبى بقلبه يهبط بين جوانحه ويرجفة تصيبه من قمة رأسه
إلى أخمص قدميه ، وتقدم فى حذر سائلا جدته فى همس جزع وتشاؤم :

— انتوا قاعدين فى الأوده دى ليه ؟
وأجابت جدته :

— الأوده التانيه بارده وقزازها مكسور .. ويتجيب هوا كبير .
— وهو ازيه .. لسه تعبنا ؟

— زى ماهو .. البرد مزومه .. ماقلت بلاش الحمام .. وقتلت
اسخن. لكم ميه فى الصفيحه .. بس كان لزومه إيه ؟

وفتح الأب عينيه ونظر إلى ابنته .. وقال فى صوت ضعيف :
— عملت إيه يا سيد ؟

— خير بابا ، صرعت الميه ، وجمعت الفلوس وايدتها .
— قفلت الحنفيه كويس ؟

— أيوم بابا .

وأغمض الأب عينيه مرة ثانية .. وبدا كأنه يرغب فى الراحة من
الجهد الذى بذله فى الحديث ، ونكلمت أم آمنة موجهة القول إلى سيد

— اسمع يا سيد .. خش كل لك لقمه .. عشان عايزاك تروح
تشتري لزقه انجليزى .. وشوية لبان ذكر .. ويخمسه قروش برتقال
ولون حلو .

— أنا مالباش نفس أكل .. حاروح اشتري الحاجه فى الأول
فبل ماكل .

— خش كل لك لقمه الأول .. انت خرجت من غير فطار على لحم
بطنك .

— طيب حاكل .

ودخل « سيد » إلى المطبخ فوضع قطعة من الجبن فى شقة وخرج
إلى جدته وهم يتضم منها قائلًا :

— أنا حاكل فى السكه .. هاتى الفلوس ، عشان اروح أجيب
الحاجه .

— فلوسى ؟ !!

وأخذت العجوز تبحث فى صدرها وجيوبها فى حيرة ، وعى
تردد :

— الفلوس .. دانا ميعيش ولا نكله .

ثم همست إلى شوشة فى رفق :

— معاك فلوس يا شوشه ؟

— وهز شوشة رأسه علامة النفى .

ووقف سيد برهة مترددا ، ثم قال وهو يشير إلى كيس النقود التى
جمعها :

— ماهى الفلوس أهى .. ناخذ منها ريال ؟

ولكن الاب فتح عينيه فى جزع :

— أوعوا تمدوا ايديكم على اللى فى الكيس ، دى عهده .
وأجاب سيد :

— مغلش يابا ، ماحنا حناخده سلف وبعدين نرده .

— أوعى تمد ايدك عليه ، دى تبقى سرته .

— لكن لازم نجيب لك اللزقه واللبن والبرتقان .

— ماغيش لزوم .. أنا كويس .

وتدخلت الجدة قائلة فى ضيق وقلق :

— مانتش كويس أبدا .. لازم نجيب اللزقه واللبن ، ولزم نجيب

حاجه تبل ريقك .. حاجه تتقوى بيها .. انت من أول النهار ماحطتش
حاجه على لسانك .

وساد الصمت برهة ثم قال الاب فى صوت ضعيف :

— أنا ليه ريال عند الحاجه زمزم بقية حساب قديم ، أوصل خده

منها وروح اشترى اللى انتو عاوزينه .. وإذا ما رضيتش قول لها ان

أبويا عيان ومحتاجينه ، عشان نجيب بيه دوا .

— طيب يابا .

وانطلق سيد يعدو فى الطريق وييده شقة العيش والجبن فلم يقف
إلا عند مسط الحاجة زهرم .

وكانت الحاجة جالسة فى مصطبتها جلستها المعتادة .. فأقبل
الصبي وسألها فى لهفة وعجلة :

— يا حاجه .. عايزين الريال اللى عليكى لابويه .

وفوجئت المرأة بقول الصبي ونظرت إليه فى شزر ودهش وقالت
هائئة :

— ريال! ! إيه يا عומר !

— ريال قديم .. بقية حساب الميه .

— ما كانش يتعز يا خويا .

ثم رفعت يدها وأشارت بكفها مفتوحة أمام وجهه وأردفت فى
سخرية :

— قل له ييجى ياكل به مibar .

واحتد سيد وقال ضارخا :

— هو ما بيكلش مibar .. احنا عايزين الريال .

ولم تجب امرأة السوء .. بل تشاغلّت بإعطاء أوامر إلى صبيها
« جاد » ، وصاح « سيد » فى حدة وغيظ :

— احنا عايزين الريال .. هاتى الريال .

ونظرت المرأة إلى « سيد » نظرة حنق وتهديد عندما رأت أنه بدأ
يلفت نظر الزبائن بصياحه ، ونهرته قائلة :

— امشى يا واد من هنا بلاش زيطة .

ولكن سيد أجاب فى عناد :

— مش حامشى إلا لما آخذ الريال .. هاتى الريال يقول لك .. احنا

عايزينه عشان نجيب دوا لابويه .. أبويه عيان .

— ما يعيا والا ينفلق .. ان شالله حتى يموت .. أنا مالى وماله .

ولم يطق « سيد » سماع قولها فاندفع بأقصى قوة وأطبق بيديه الصغيرتين على عنقها صائحاً وصوته يخنق بالبكاء :

— هاتى الريال يا بنت الكلب .. أن شالله تموتى انتى .

وذهلت المرأة من تهجم الصبى عليها وما لبثت حتى دفعته فى صدره دفعة قوية طرحته أرضاً .

وعلا بكاء الصبى ، ونهض من وقته محاولاً الهجوم عليها مرة ثانية ، ولكن تلقاه هذه المرة صبيها « جاد » فطمه بيناه لكمة قوية على صدغه ألغته أرضاً ، وحاول الوقوف مرة ثانية فضربه « مشط » بقدمه فهوى إلى الأرض ، وظل كلما حاول القيام أعاده إلى الأرض ، والصبى يصرخ من فرط الألم والبكاء والعجز حتى تطوع أحد الزبائن بانتقاذه من بين برائنه .

ولم يجد « سيد » بدا من الانصراف والدمع ينهر من عينيه وتطرات الدماء تسيل من شفتيه على جلبابه ، وقلبه يفيض بالمرارة والحقد والألم وبغض الناس .

ولم يعرف كيف يعود إلى البيت دون أن يحضر الدواء إلى أبيه ولم يعرف كيف ينتقم من « زمزم » وصبيها « جاد » ، وهو عاجز ضعيف .

وسار « سيد » يضرب على غير هدى ، ونظر إلى السماء مسائلاً نفسه : أهناك حقاً يوجد رب مطلع على كل شيء ؟ تقدير على كل شيء عادل رعوف رحيم ؟

— وهل رأى كل ما حدث وأقره . وسكت عليه .. لا .. لا .. لا بد أنه سيفعل شيئاً .

وأخذ عقل الصبى الباطن يجرى بما يود من الله أن يفعل محاولاً التنفيس عن كربيته وأخراج الغضب المكبوت والانتقام فى أفكاره من خصمه بعد أن عجز عن الانتقام فى الواقع .

أجل .. ان الله التقدير العروف لن يرضيه هذا .. انه سينتقم له .
ولكن باية وسيلة ؟ وعلى أى نمط ؟

يفعل « جاد » ما يقضب « الحاجة زمزم » .. فتسبه وتنهره وتقذفه
بالشومة التى فى يدها ، تصيب الشومة رأس « جاد » فيفقد أعصابه
ويندفع فى ثورة عنيفة هاجما على المرأة ممسكا سكينه التى يقطع بها
المبار والكرشة فيدفعها فى بطنها ويظل يمعن فيها القطع والطلع
والتمزيق حتى يجعلها جثة هامدة ، ولا يكاد ينتهى من جريمته حتى تزلزل
الأرض زلزالها فتتهتز جدران المصمت وينقض سقفه فوق رأس « جاد »
فيهشمه ويسحق جثة المرأة .

وتنهذ « سيد » وأخس بالكثير من الراحة ، وهو يصل إلى هذه
النتيجة من الانتقام الإلهى .

ولم لا يحدث هذا ! . اليس الله قديرا على كل شيء ؟



وفى تلك اللحظة كان المعلم شوشة يتأمل قلقا ويسأل أم آمنة :

— هو سيد لسه ما جاش ؟

— لسه .

— هوا غاب كده ليه ؟

— أما اطلع بره أشوفه .. يمكن الأتى حد من الولاد يدور عليه
ويستعجله .

وخرجت العجوز إلى باب الدار ، ووقفت صامئة برهة ثم أخذت
تنادى بعض الصبية من أصحاب « سيد » صائحة :

— يا محمود .. يا دقدق .. يا زكى .. ياولاد حد منكم يشوف لى
سيد .

ولم يجيبها مجيب ، ولم تسمع ردا سوى قرقعة آتت من ورائها أعقبها
دوى شديد جعلها تجثو على الأرض .

وكان شوشة يرتد في فرائسه .. فسمع نفس القرقعة والدوى ،
وكان الشق الذي في جدار الحمام قد أخذ يتسع ، وبدأ ركن الجدار
ينهار والسقف من فوقه لا يجد ما يستقر عليه فيهبط في قرقعة شديدة .

وهم شوشة بالنهوض متجها إلى باب الحجرة ولكنه سمع قرقعة
فوقه ووجد بعض الحصى والأتربة تنهار من بياض سقف الحجرة وفجأة
أحس كأن جدران الحجرة تتمايل ثم انقضض عليه حجر من أعلى فتلقاه
بيده وأقيا منه رأسه .. وتقدم خطوة أخرى .. ليتلقى قدرا متتاليا من
الحجارة تصيب رأسه وكففيه وتمصرعه أرضا .

وصرخ شوشة وأخذ يتلقى بيده الحجارة المنهارة وقد سالت الدماء
من رأسه فاختلطت بالتراب والثياب وقللت الأتربة والحجارة تنهار عليه
كالسيل وأحس بنفسه يضيق وبالأتربة تملا خياشيمه ، وجاهد في
القيام حتى يرفع رأسه من بين الأتربة ، ولكنه أحس بالعجز وشعر
بالأتربة تتكاثر ، ولم يعد يبصر شيئا وتعذر عليه التنفس كأنه غريق ،
وتملكه ضيق شديد وتمنى لو قتله الحجر الأول أو استطاع هو أن يخنق
نفسه ، ولكنه كان عاجزا عن كل شيء إلا الارتجاف تحت الركام ، وأخيرا
فقد الاحساس بكل شيء ، وانتهى العذاب .

وفي الخارج كانت صيحات المعجوز تشق أجواز الفضاء وكانت
ترفع يديها إلى أعلى صائحة :

— يارب .

وحاولت أن تتلمس طريقها إلى الداخل لتتفقد المريض الراقد ، ولكنها
لم تكن تصل إلى الباب حتى كانت أكوام الركام والرماد والانقاض تسده
بعد أن انهار ركن البيت الذي يضم دورة المياه وحجرة الصحارة وجزء
من القاعة .

وتجمهر الناس وعلا الصياح والضجيج .

وكان « سيد » ما زال يضرب في الطريق ، وهو يتصور المسبب
متهدما على رأس « زمزم » و « جاد » ، مستشهدا بذلك على قدرة الله

وعدله ، ومرت به سيارة الحريق ، وهى تقرع الجرس وتندفع مسرعة ..
فساءل نفسه :

— يا ترى حصلت حريقه فين ؟

ووجد السيارة فى اتجاه بيتهم ، فحث الخطا ليتمتع بمشاهدة
الحريق واطفائها .

وعندما وصل إلى قرب البيت كان الزحام قد سد منافذ درب القط ،
وكانت عربة الحريق تنتظر فى خارج الدرب لعجزها عن الدخول منه
لضيقة ، وأخذ الصبى يصيح متسائلا وسط الزحام ، وقد تملكه الدهش ،
وهو لا يرى أثر الدخان :

— ايه ده ؟ ايه اللى جرى ؟ هى غين الحريقه ؟ أنا مش شايف لها
أثر .

وكان الناس فى شغل عن الصبى ، ولكن « المعلم شичه » أبصره
فصاح به فى جزع :

— تعالى يا سيد هنا .. ماتروحش البيت .. لحسن البيت اتهد .
وصاح « سيد » :

— اتهد .. بيتنا احنا اتهد ، وابويا ؟

وكان الجمع قد التفتوا إلى الصبى وعرفوه ، وكان بينهم « المعلم
على الحمى » الذى أمسك بيده وأبعده عن الزحام قائلا له :

— تعال يا سيد .. ما تخافش تعال .. أهم الرجاله دخلوا
بطلعوه .

وكان « سيد » مذهولا .. مبهوتا .. فانساق مع الرجل ووقف وياه
بجوار بقالة « المعلم شичه » .

وأخذ رجال الشرطة يبعدون المحتشدين عن البيت ويفسحون الطريق
لرجال المطافى الذين أخذوا فى رفع الانتقاض والبحث عن المصابين .

وبين صخب الناس وضجيجهم استطاع « سيد » أن يسمع صوت
« جدته » يعلو بين الناس أشبه بأنين جريح . وكان يقف وسط الزحام

امام البقالة ، وقد أمسك بيد « المعلم على الحمى » ، ولكنه لم يكذب بسمع صياح « جدته » حتى تخلص من قبضته واندفع يشق طريقه وسط الأجساد المتزاحمة حتى وصل إلى مقربة من البيت ، وكانت واجهة البيت سليمة لم يبد عليها أثر للانهيار الذى حدث فى الداخل اللهم إلا آثار الأثرية المتصاعدة من النوافذ ورجال المطافئ المتكاثرين حول البيت ، وفى داخله ، الدائبين فى حركة مستمرة .

وأبصر « سيد » « جدته » ، وقد تهالكت أمام باب البيت مواجه . . فاندفع إليها مرتبها فى أحضانها ، وضمتها هى إليها فى لهفة كأنها غير مصدقة أنه قد عاد وصاحت بصوت منتحب :
— أبوك يا سيد ! . .

— ماله يا ستى ؟ هو فىن ؟

— جوه يا سيد ، وقع عليه البيت . . أنا خرجت أشوفك لما استغيبتك وتعمدت أنادى على حد يدور عليك ويدوبك جيت أخش سمعت صوت زى الرعد ، فضلت أصرخ وأنادى وجيت أخش أطلعه لقيت الباب مسدود بالحجارة والتراب .

وقبل أن تتم العجوز حديثها الباكى تركها الصبى واندفع فى جنون إلى باب البيت وحاول رجال المطافئ حجزه ، ولكنه أفلت منهم واندفع إلى الداخل صائحا :

— أبويه . . عايز أشوفه . . آبا . . آبا . . انت فىن يابا ؟

وعندما وصل إلى الفناء وصيحاته ترن فى أجواز الفضاء فوجئ برجال المطافئ يخرجون من باب الشقة حاملين إحدى النقالات وعليها شيء مغطى ببطانيتها التى يتغطى بها ، وقد أخذوا يشقون طريقهم بين الأثرية والحجارة .

واندفع الصبى فى صياحه :

— آبا . . آبا .

وربت عليه أحد الرجال بعطف ، وقال له فى صوت يقطر اثقاقا :

— بس يابنى بس .. قضا رينا .. حانعمل فيه إيه ؟

وتذكر « سيد » جثة « شحاتة » المغطاة .. التى حملها الرجال ووضعوها فى الصندوق ، ولم يعودوا بها أبدا ، وتذكر الضياع بلا أمل فى استرجاع ، والفقد بلا رجاء فى استعادة ، وأصابته رجفة شديدة واندفع إلى الجسد المسجى على النقالة وارتمى عليه صائحا :

— آبا .. آبا .. حايودوك فين يابا .. مش حاخليك تخرج أبدا ..
دول مش حايرجعوك تانى .. أنا عارف .. آبا .. آبا .. رد على يابا ..
.. انت مش فاكرك انك قلت لى امبارح انك مش حاتموت أبدا ، فاكرك
والامش فاكرك ، آبا .. ما تخرجش والنبي يابا .

وأحس الرجال الشداد الغلاظ الذين يحملون الجثة فى المحفة ..
بالدمع يتترقق فى مآقيهم ، وهم الجافو المآقى الجامدو الشعور
المتعودون على مناظر الموت ومآسيه .

وأمسك أحدهم بالصبى فابعده عن النقالة وساروا بها فى طريقهم
إلى خارج البيت ، وكانت عربة الاسعاف تقف بين الزحام على مقربة
من البيت ، ولكن حملة النقالة تهامسوا مع رجالها برهة عادوا بعدها
بعريتهم تاركين الجثة .

وبرز بين الزحام « على الحمى » و « المعلم شحيحه » وكان بيت
« الحمى » أقرب البيوت إلى البيت المهدوم فصاح الرجل :

— هاتوه عندي هنا .. اوعى يا جدع انت منك له .. وسع .

ورفع الرجال الجسد بالنقالة واختفوا بها داخل بيت الحمى .

وارتمى « سيد » يتمرغ على الأرض باكيا ، فحمله أحد الرجال
ووضعه فى أحضان « جدته » .

وبدا الرجال يحضرون بعض العروق الخشبية لسند جدران البيت
حتى لا تنهار بقيتها .

وبدا الزحام يخف رويدا رويدا عندما أقبل المعلم خشت وعائلته
من زيارتهم ، ولم يكذب يبلغهم الخبر حتى اندفعت امرأته وابنه إلى

« أم آمنة » يولولان ويكيان .. واخذ الرجل يضرب كفا بكف ، وقد دمعت عيناه واخذ يصيح :

— يا ساتر يا رب .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا ساتر يا رب .
ووقف « على » يرقب « سيدا » مرتبها على عتبة بيت « الحمى » ،
وقد أخذ ينشج باكيا .. ونظر إليه فى ذهول وتذكر القول الذى كان يعايره
به هو وبقيّة الصبية « أبوك السقامات » ، واحس بحزن شديد كأنها كان
هو المسئول عن كل ما حدث ..

وبدا كأنها يحاول أن يرفع صبا ضميره ويحدث نفسه قائلا انه هو
وزملاؤه إنما كانوا يهزلون .. وأنه لم يخطر ببالهم قط أن يموت السقا
حقا .. ويترك ابنه المسكين وحيدا فى الحياة بلا عائل ولا معين .
ولم يشعر إلا والدمع ينهمر من عينيه واقترب من « سيد » وضمه
إليه وصاح ، وهو يهتر من البكاء :

— معلش يا سيد .. مترعلش يا سيد .. ماكائش تصدى أبدا ..
لو كنت أعرف .. ماكنتش قلت لك كده أبدا .. حقك على يا سيد .
واقتلت زوجة « على الحمى » على الجمع .. وهى تكفكف دمعها
قائلة :

— تعالوا يا جماعه خضوا من السكه .. تعالوا اتعدوا عندنا لغاية
ما نعمل اللازم ..

ومرت الليلة بين البكاء والترحم وقراءة القرآن والعزاء ، ولم يكن
يمكن لأحد من أهل الدار المهدومة المبيت بها .. خشية أن يحدث انهيار
آخر ، فقضت عائلة « الخشت » ليلتها عند نسيبهم « المعلم عز » ..
وقضت « أم آمنة » و « سيد » ليلتهما مع الجثة فى بيت « على الحمى » .
وكانت ليلة عجيبة تلك التى مرت « بسيد » .. ليلة كانت لا تكف
أذناه خلالها عن سماع التحيب والولولة آتية من كافة النواحي منبعثة
من جميع الجهات .. وفى اللحظات التى كان ينعس فيها لم تكن تفارق
أحلامه صورة تلك الصرة المشؤومة والبدلة المنحوسة .. و « شحاتة »

تارة مسجى ، وتارة يعدو راقصا .. تم صورة أبيه يجلس فى الحمام ،
ليؤكد له أنه لن يموت ، وأنه لن يرتدى البذلة ، ولكنه لا يلبث حتى يراه
هابطا فى المغطس ، ولا يلبث حتى يرى المستحمين جميعهم يرتدون حلا
مثلها ويمسكون الجامر والقماقم ثم يعدون وراءه صائحين : « أبوك السقا
مات » .. فيأخذ فى رجمهم بالطوب .

وتقبل الفجر تملكه نعاس طويل استيقظ منه على أثر ضجة فى
البيت وحركة ، وشاهد نفس المناظر التى شاهدها يوم أن رحل
« شحانة » عن الدار محمولا فى صندوقه ، وأبصر نفس اللوثة البيضاء
الشعر ، وقد أمسك بها رجل ، ثم أبصر برجل آخر يحضر نفس الصندوق
الخشبي .

عجبا لهذه الدنيا ! .. أبوه حقا .. هو الذى تعد له كل تلك
الإجراءات الرهيبة ؟

أبوه حقا هو الذى هدم البيت عليه .. فمزق جسده اربا ؟ وجاد ؟
والحاجة زمزم ؟ ألم يهدم عليهما شيء ؟ . ألم ينقض عليهما حجر ؟ .
أما زالا يرتعان فى بحبوحة من السفالة والظلم والخسة والخطئة
والدناءة ؟

حقا .. أن الله تدير على كل شيء .. ولكن قدرته تبدو وكأنها قد
انحرفت فوضعت فى غير موضعها واتجهت اتجاها غير مطلوب
ولا متوقع : أو هو تدير حتى على ما يراه العبد ظلما وحتى على فعل
ما لا يقبله عقل المخلوق .. وما لا يقره منطق .. ولا ما يراه الانسان
حكمة وعدلا ؟ .

لقد نظمه جاد وزمزم فدعا الله أن يظهر قدرته ويرد كيدهما ، ويهدم
المسمط على رأسيهما ، ولقد أظهر الله قدرته وهدم بيتا فى نفس اللحظة
التي دعاه سيد إلى ذلك ، ولكن يبدو أنه أخطأ البيت ، خطأ مقصودا ،
أو غير مقصود .. وكانت نتيجة الخطأ أن أصابه بشر ما يمكن أن يصاب
به .. لقد أخذ منه أنباه .

لم ؟ ! وأين سيذهب به ؟ ! إذا كان سيأخذه إلى السماء فما حاجته به ؟ اليس هو أشد منه حاجة إليه ؟ أهو محتاج إليه لكي يصرف عليه ويضبه إليه ؟ إذا فلم يصعد به إلى السماء ؟

إذا كان سيهبط به إلى باطن الأرض غاي شيء سيقيده منه ؟

وأطلق « سيد » زفرة حارة . وعاود البكاء والنشيج وهو يبصر الصندوق يدخل إلى الحجرة التي بها أبوه . . ثم يخرج محملا بحمله الثمين . . الضائع . . المفقود .
انتهى .

لا فائدة . . انهم يخرجون به إلى الفناء ثم إلى الطريق ، وبعد لحظة سيتحركون به . . ثم يعودون وحدهم .

لم لا يسير معهم ، حتى يبقى بجواره إلى اللحظة الأخيرة ؟

لم لا يرى الطريق الموحش . . الذي تعود أبوه السير فيه ؟

وفجأة قفز « سيد » من جلسته التي شرد خلالها بذهنه . . وبدأ كأنه نوى أمرا . ثم اندفع يعدو إلى الطريق متجها نحو بيتهم . . خائضا بين الأتربة والحجارة حتى وصل إلى حجرة الصحارة . . المليئة بأكوام الأتربة المنهارة ، ولم يتمم في الحصول على بغيته . . فقد وجدها كائنة أمامه فوق الصحارة كأنها تناديه : « ها أنذا » .

ومد يده فأخذ الصرة . . وأسرع بفتحها وأخرج منها البذلة ، فدرس ساقيه في البنطلون الطويل المهرول ، وأدخل ذراعيه في الجاكيت الواسعة الفضفاضة ، ثم وضع الطربوش على رأسه فهبط حتى استقر على أذنيه ، وعندما هم بالخروج لمح إحدى اللافتات التي كانت معلقة على الحائط - اللافتة التي حاول شحاتة أن يشرحها له - قد وقعت على الأرض بين الأتربة ووقع بصره عليها ، فاستطاع لأول مرة قراءتها بسهولة . . وخيل إليه أنه يسمع صوت شحاتة يقرأها ويعيد شرحها له :

« والصابرين في البأس والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وحمل « سيد » اللافطة وطبقها ووضعها فى جيب الجاكته ، ثم أسرع إلى الخارج ، فوجد الموكب على وشك التحرك .

وفوجيء القوم وهم يرون قزما ، يهرول فى بدلة سوداء مضافنة وطربوش قد غطى اذنيه وكاد يغطى عينيه ، وقد اندفع يعدو حاملا القمقم ، متخذاً مكانه أمام النعش .

وحدق القوم بأبصارهم فى ذلك المخلوق العجيب فإذا به سيد قد ارتدى حلة الأقمدة .

وغلب القوم النائر ، وتفجرت الدموع من مآقيهم .. واقترب المعلم خشت من « سيد » وهو ينشج باكيا .. وأخذ يربت عليه بحنان شديد مواسيا مترفقا طالبا منه ألا يسترسل فى الحزن ، مؤكدا له أن كل أهل الدرب آباؤه ، سائلا إياه أن يبقى مع الصبية حتى يفرغ المشيعون من تشييع الجنازة .

وازاح « سيد » الطربوش الواسع عن عينيه ، ونظر إلى الرجل وقد بدا عليه التجلد والصبر والهدوء ، والإيمان وقال فى صوت هادئ وكأنه يردد قطعة محفوظة حفظها عن ظهر قلب :

— انى أود أن اكرمه .. كما اكرم سواه ... وأنا لست حزينا .. انه ليس بأول أب يموت .. ولا كنت بأول يتيم يفقد أباه .. هذه أشياء تحدث كثيرا فى الحياة ، فيجب ألا ننظر إليها على أنها مأس قد خصنا بها القدر ، يجب أن نعرف أن هذه هى سنة الحياة وطبيعة الأحداث فيها .. يجب ألا نعتبرها مفاجأة .. بل نقبلها بالصبر .. والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون . يجب أن نصبر ونواصل السير فى الحياة لنقوم بواجبنا نحو الخالق والمخلوقات .. حتى يصينا قضاء الله .

وذهل المشيعون .. ولم يملكوا سوى أن يتركبوا الصبى يسير ، وبدأت الجنازة سيرها .. والصبى على رأسها .. وقد بدا عليه مظهر التجلد .. لولا دمعتان تجريان فى صمت على خديه .. ولولا

همسات كان يهمنى بها إلى نفسه وكأنه يتم بها الجزء الباقي من قطعة المحفوظات :

« بهذا أحسست بالسكينة والاستقرار ، لولا ذلك القلب الذى لا يحتمل صبرا ولا يقبل منطقا : القلب النائح بين الضلوع الباكى فى الحنايا المقطر فى الصدر بدل الدمع دما » .

واستمرت الجنازة فى السير ، وما زال الهاف يهتف فى نفس الصبى : « انها مسألة ترويض لا اقل ولا اكثر .. ان كل حدث على الأرض يهون بالتعود .. لقد نزلت إلى ساحة الأموات فوجدتها سخریات فى سخریات » .

واشرفت الجنازة على المقابر وبدأت إجراءات الدفن ، ووقف « سيد » يرقبها وهو ذاهل شارد لا يحرص بها حوله .. ولا يسمع سوى الصوت الهاتف يردد :

« كنت أشيّعها فى كل جنازة أسير امامها .. وكنت أراها فى كل ميت أواريه الثرى ، انى أحس بمقعة من تشييع الجنازات .. نهى تقربنى إليها وتمتعنى برفقتها وفكرها وتهون على نفسى مسألة الموت وتعدنى لاستقباله غير وجل ولا هيب .. وعندما تهون على الإنسان النهاية .. تهون الحياة » .

وهبط القوم بالجثة إلى باطن الأرض فواروها الثرى ثم صعدوا وحدهم ووضعوا الحجارة فوق الحفرة وسويت الأرض فعادت كما كانت .

ورجع القوم وبينهم الصبى والصندوق الفارق .. بعد أن أفرغ حمولته فج باطن الأرض فزاد ساكنو القبور ساكنا .. ونقص الأحياء حيا .

الأحياء !!

يا لسخرية الأرض من الحى والأحياء !

كل ما على الأرض أبقي من الحى .. ويقايا الحى .. ومخلفات
الحى .

كم اختال عليها من قبلنا كل مختال فخور .. وكم مشى على ظهرها
مرحاً كل منتفخ الأوداج مغرور .. وكم تثنت عليها الغيد وتمايلت الحور
.. فأين ذهب المختال وراح المغرور .. وأين صارت الغيسد وآلت
الحور !

ذهبوا كلهم .. كانوا يملئون الأرض ضجة وحركة .. وكانوا هم
الأحياء وغيرهم عدم .. ونى غمضة عين صاروا هم العدم وغيرهم
الحياة .

كل جامد فى الأرض أبقي من الحى .

هذه الصخرة الجامدة أبقي على الأرض من هذا الرأس الحى المفكر
.. هذا الحجر الجامد الصلد أثبت فى موضعه من صدر الحسنة
المكتنز بالحياة .. الصائر إلى ضمور المنتهى إلى فناء . هذا ينبوع
البارد الجارى فى الوهاد أكثر استمراراً فى التدفق من الدماء الحارة
الجارية فى العروق الصائرة إلى جفاف وجمود .

يا للحى التعس المسكين .. حتى قبوره ومخلفساته إلى الزوال
مصيرها ، وإلى الفناء مآلها ومنتهاها .

« صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد » .

ما أوهى خيط الحياة .. وأضعف مادة الأحياء .

حى واحد .. هو الباقي القوى .. هو « الله لا إله إلا هو الحى
القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السماوات وما فى الأرض من ذا
الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء
من علمه إلا بما شاء » .

وما أقل ما يشاء وأكثر ما لم يشأ .

الخاتمة

والصابرين فى البأساء

فى اليوم التالى كان سيد يتربع امام الحنفية متخذا مكان ابيه ، وقد كسا وجهه مظاهر الجد والحزم ، واصطف القوم امامه فى صمت ورهبة وخشوع .. بلا ضجيج ولا صخب ، ولا صياح ولا ضحك ، اللهم إلا كلمة « البقية فى حياتك » أو « البركة فىك » يلتونها على الصبى فى تأثر وخشوع كأنهم يخاطبون شيخا كبيرا .

وفى نهاية اليوم .. حمل الصبى كيس النقود إلى مكتب الشركة بالفجالة وهناك سلم العهدة ، وسأله الحراف أن يحضر صباحا لمقابلة المدير .

وفى الصباح نظر إليه الرجل فى دهشة ثم صافحه بمزىا ، وأنبأه أنه سيستمر فى عمل أبيه .. وأنه سيجعله خليفة على الحنفية .

ومنذ ذلك اليوم وسيد قد حل محل أبيه وظل ضيفا هو وجدته فى بيت « على الحمى » حتى رمت دارهم وعادا إليها .

ومرت الايام والصبى يسير فى الحياة حاملا عبثها بجلد وصبر قائما بواجبه نحو الخالق والمخلوقات ، ولم ينس يوما ، واجبه نحو شيء عزيز .. كان يرى فيه .. صورة الغائبين ، ويشم منه عبثهما .. لم ينس يوما سقية .. التمرحنة .

وماتت « أم آمنة » ، وأضحى « سيد » رجلا وتزوج وأنجب ولدا ،
وفى كل صباح يحمل صبيه القرية الصغيرة ليستقى الشجرة العزيزة ..
لتزيد ايناعا وخضرة .. بين قفر يياب كأنها وأحة للتذكر والوفاء ..
في صحارى النسيان والقطيعة والاهمال .

وفى الكشك الخشبي جلس « سيد » .. جلسته منذ ثلاثين عاما
ووراءه قد علق فى داخل الكشك لافتة أحالت الشمس لونها ، ولكن
الكتابة ما زالت بها جلية واضحة يقرؤها كل وارد على الصنبور .

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون » .

الفهرست

صفحة

الإهداء	٣
المقدمة	٤
الفصل الأول	٧
» الثاني	٣٠
» الثالث	٥٨
» الرابع	٨٥
» الخامس	١١٠
» السادس	١٤١
» السابع	١٧٠
» الثامن	٢٠١
» التاسع	٢٢٢
» العاشر	٢٥٩
» الحادى عشر	٢٨٩
» الثانى عشر	٣١٠
الخاتمة	٣٣١

المؤلف

(١٩٤٧)	قصص قصيرة	اطياف . . .
(١٩٤٧)	رواية	نائب عزرائيل . .
(١٩٤٨)	قصص قصيرة	اثنتا عشرة امرأة . .
(١٩٤٨)	قصص قصيرة	خبايا الصدور . .
(١٩٤٨)	قصص قصيرة	يا امة ضحكت . .
(١٩٤٩)	قصص قصيرة	اثنا عشر رجلا . .
(١٩٤٩)	رواية	ارض النفاق . .
(١٩٤٩)	قصص قصيرة	فى موكب الهوى . .
(١٩٤٩)	قصص قصيرة	من العالم المجهول . .
(١٩٥٠)	قصص قصيرة	هذه النفوس . .
(١٩٥٠)	رواية	انى راحلة . .
(١٩٥٠)	قصص قصيرة	مبكى العشاق . .
		بين ابو الريش وجنيّة
(١٩٥٠)	قصص قصيرة	ناميش . . .
(١٩٥١)	قصص قصيرة	اغنيات . . .
(١٩٥١)	مسرحية	ام رتيبة . . .
(١٩٥١)	قصص قصيرة	هذا هو الحب . .
(١٩٥١)	قصص قصيرة	صور طبق الاصل . .
(١٩٥٢)	رواية	بين الاطلال . .
(١٩٥٢)	رواية	السقامات . .
(١٩٥٢)	قصص قصيرة	سهار الليالى . .
(١٩٥٢)	قصص قصيرة	الشيخ زعرب . .
(١٩٥٢)	قصص قصيرة	نفحة من الايمان . .
(١٩٥٢)	مسرحية	وراء الستار . .
(١٩٥٣)	قصص قصيرة	ست نساء وستة رجال
(١٩٥٣)	قصص قصيرة	هذه الحياة . .

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد .
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك يا ليلي .
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمرة .
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	همسة عابرة .
(رواية فى جزأين ١٩٥٤)	رد قلبى . . .
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع .
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة .
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر .
(مقالات ١٩٥٨)	من حياتى .
(مقالات ١٩٥٩)	لطمات ولثمات .
(رواية فى جزأين ١٩٦٠)	نادية . . .
(رواية فى جزأين ١٩٦١)	جفت الدموع .
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة .
(مقالات ١٩٦١)	أيام وذكريات .
(مقالات ١٩٦٢)	أيام من عمرى .
(رواية فى جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر .
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن .
(رواية فى جزأين ١٩٦٨)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك .
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم .
(مقالات ١٩٧١)	أيام عبد الناصر .
(رواية ١٩٧١)	ابتسامة على شفتيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين .
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة .

الناس
مكتبة مصر
٣ شارع كامل مكتبي - البحالة



الثلث ٧٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
معه حوده السحار وشركاه